رواية

سراب الياسمين

محمد عاطف عريقات



سراب الياسمين

محمد عريقات

سراب الياسمين

روايـــة

دار الفارابي

الكتاب: سراب الياسمين
المؤلف: محمد عريقات
صورة الغلاف: محمد عريقات
الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: ٣٠١٤٦١(٠١) - فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)
ص.ب: ٣١٨١/ ١١ - الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: تموز ٢٠١٥
ISBN:978-614-432-376-2

© جميع الحقوق محفوظة

تباع النسخة الكترونياً عبر موقع الدار.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الدار.

إهداء

إلى كل ياسمين الأرض
إلى الياسمين الميت
والياسمين الحي
والياسمين الذي سيتفتق من تربته غداً
أو بعد غد

تقديم

لا يخلو فلسطيني يتلوى في قبضة الاحتلال من خلجة تعتريه لفك نفسه من تلك القبضة، فترى المشهد الفلسطيني يكاد يتفجّر بألوان وأضواء تبرق في كل صوب من قعر بسطار الجندي الأسود القاتم، فها هنا المناضل الذي يختلق الوسائل القتالية للتخلص منه، وها هناك الفلاح والعامل الذي يكافح لتثبيت غرسه ونسله في الأرض، وها هي مؤسسات المجتمع المدني تشق طريقها بأظفارها إلى النور من ثنايا الاعوجاجات الوعرة التي توضع أمامها، وها هو القلم، وهو قلم تلك النفس التواقة إلى الحرية، الباحثة عن ذلك الفضاء اللامتناهي، ذلك الماوراء الذي، يقيناً، يحيط بهذه البقعة المغبونة من الأرض، والتي سوف تتفجر يوماً الطبقة الغاشمة خانقة الأنفاس لتجليه.

وكاتبنا فتى جامعي مقدسي يطلق العنان لنفسه جاعلاً خياله المشتعل مركبة تحملها وتخترق بها تلك الطبقة التي تجثم بسوادها على حياة الفلسطيني، فتحلق بها في أجواء انسيابية كتلك التي تصل الفضاء بالزمان في نقاط كونية، تختفي عندها الفواصل بين الماضي والحاضر والمستقبل، كما بين إنسان الواقع وإنسان الرواية، وكأن

بنا عندئذ نعيش في بعدين أو أكثر، أحدهما تمثله حبيبة الصبا عاشقة الأرض والمستضعفين عليها، والآخر حبيبته في الغربة الفرنسية التي تغشم عينيها تلك الطبقة حالكة السواد، والتي لا تسمح للضوء الإعلامي الغربي باختراقها ليصل الى معرفة البؤس تحت الاحتلال، والتي يغذي وجودها غربة المنفي عن وطنه. فنجد بطلنا منغرساً في الثرى محلقاً في ثريا الخيال والعوالم الافتراضية، راوياً هنيهة ثم مروياً عنه وكأن الشخصيات تختلط بعضها ببعض، كما الزمان والظرف، عند تلك الفواصل الكونية التي تنسف بجبروتها منطق الأبعاد الثلاثية.

ليس كاتبنا راوياً أو قاصاً محترفاً، بل هو نواة إبداعية آن تفتقها لتنبعث أولى شذراتها النورية، وهو إن كان منخرطاً في دراسته لمخزونات الواقع العلمي، فإن روحه تنقر عليه لتذكره، أن واقعاً ينبت في ظل الاحتلال لا شأن له، وأن لا صوت يعلو فوق صوت الحرية، ولا معنى للحياة سوى ذلك الذي ينقشع الظلم بضوئه، والذي يحيل القلم مشعلاً.

سري نسيبه

أستاذ الفلسفة

جامعة القدس

الفصل الأول

لن أنسى ذلك اليوم الماطر حينما ذهبت إلى بياريتز للمرة الثالثة، اليوم الذي غير تفاصيل حياتي وأكسبها طابعاً خاصاً، على عجلة من أمري أخذت أرتب حقائبي وأتفقد أغراضي التي مررها لي الشريط الآلي في مطار «شارل دي غول». توجهت بعدما انتهيت صوب الممر وقال عامل المطار: أنت إرهابي يا خالد، فدوماً عند سفرك يقع حادث في المطار.

أجبته ممازحاً: وماذا حدث هذه المرة؟ هل ماتت امرأة أخرى أم وجدتم متفجرات في حقيبة ما؟ قال لا، هذه المرة كان حادثاً موسيقياً أليماً، فقد سقط بيانو (plyel) قديم من الشحن وتحطم، يقال إن فريدريك شوبان كان يعزف عليه في آخر عمره، وكان من المفترض أن يعرض للبيع في مزاد علني في بياريتز.

قلت غير مصدق: يا رجل! أنا أتيت خصوصاً إلى فرنسا كي أحضر هذا المزاد وأشتري بيانو فريدريك، كان من اللازم عليكم أن تكونوا أكثر حذراً، رد مقاطعاً: لا أعلم، هذا ما حدث، وهذه أول مرة يقع حادث كهذا، ففي العادة يتخذ العمال أشد إجراءات العناية

بالأغراض الثمينة، إذن، قل ماذا ستفعل في هذه الرحلة التي انمحق هدفك منها تماماً؟ أجبته: «لا أعلم، أظنني سأزور بعض الأماكن ثم أرحل»، قال: أتعجب من شاب مثلك بلغ الثلاثين منذ فترة قصيرة ولا يهتم بالنساء أو المرح في باريس، فكل العرب الذين يأتون إلى هنا، يكون هدفهم إما الجنس وإما القمار وإما المرح فقط! أما أنت فهذه ثالث مرة تزورنا وكل زياراتك تكون لمجرد الاطلاع على الآثار فقط. قلت: أراك تعرف عرباً كثراً كي تحكم بهذه السرعة علينا.

ـ أنا عربي وعلى أية حال يكفيك عزوبية. أنصحك ألّا تعود خالي الوفاض من النساء في هذه الرحلة إذن، فأجبته بالقول: يا صديقي لم يحن موعد الحب بعد، ولم يسبق أن رأيت تلك الفتاة التي أرسمها في مخيلتي، ثم قال: حسناً انتظر هنا قليلاً وسأعود، وسرعان ما عاد محضراً معه بطاقة ذهبية وضعها بيدي فقلت له: ما هذه؟ فقال هذه تأشيرة لجوء عاطفي، لا تستخف بالأمر، هذه البطاقة لها مفعول قوي، ثم إن صديقك لم يخنه قوله من قبل، ثق بي وسترى ما الذي سيحدث، وبعدئذ ستشكرني جداً عليها.

لم أستطع تمالك نفسي من الضحك حينما قال إنها تأشيرة لجوء عاطفي، قلت له وأنا أبتسم: قل ما هذه؟ فأجاب: أعلم ولعك بالبيانو، وهذه بطاقة اشتراك للتعلم على البيانو من الدرجة الأولى حيث كل من هناك هم من أولاد الذوات والجميلات أيضاً، وحتماً ستجد هناك ملجأك العاطفي، قلت متسائلاً: ولم أعطيتني إياها أنا بالذات؟

قال: اعتبرها رسالة اعتذار من مطارنا عن حادثة البيانو يا صديقي.
ـ حسناً، شكراً جزيلاً أقله الآن، سأخرج من بياريتز متقناً البيانو.
ـ لكن هذا المعهد في باريس.
ـ ليس هناك مشكلة، ستكون جولة سياحية رائعة إذن، شكراً مرة أخرى.
ـ العفو، حسناً سيدي أتمنى لك رحلة رائعة هنا ولجوءاً عاطفياً أروع، إلى اللقاء.

كم أحبطني أمر ذلك البيانو الذي طالما رغبت في امتلاكه، رغم أنني لا أجيد العزف بعد إلّا أنني أعشق تلك الآلة الرقيقة وأعشق وقع ألحانها حتى ولو كانت عشوائية. ذهبت لأرى حطام البيانو قرب غرف الشحن. كان محطماً تماماً، بعكس تاريخه الذي سيبقى حتى لو اختفى هو. تأملت قطع خشبه المدمر فوقعت عيني على قطعة خشبية صغيرة منقوش عليها عبارة «always remember you will live، you will love and you will dance again» فسرقت تلك القطعة الصغيرة خلسة ووضعتها في حقيبتي.

خرجت من المطار مسرعاً حاملاً معي حقائبي وجريمة سرقة وبطاقة لجوء عاطفي كما يقول ذلك العامل.

من الصعب أن يحتمل رجل قضى عمره في فلسطين جو باريس البارد في ديسمبر، كانت الثلوج تنهمر وأنا تحت المطر الغزير أنتظر التاكسي كي يوصلني إلى بيت جدي الذي اشتراه حينما كان على علاقة

بفتاة فرنسية تزوج بها لاحقاً بعد النكبة. كم أحب هذا البيت الساحلي المطل على شاطئ بياريتز، وجهتي الأساسية.

بدأت بالضحك حينما تذكرت صراخ أمي وهي تقول لي: «ألبس جكيتك الجلد يما، الجو سكعة هناك» فأرد عليها «يما إنتي شو بعرفك ببياريتز هاي الفترة بتثلجش يما»، ويا ليتني سمعت كلام أمي بدلاً من أن تصطك أسناني على هذا النحو وأحاول عبثاً تدفئة يدي ببخار فمي.

ظهرت أخيراً سيارة صفراء متجهة نحوي، ها هو التاكسي أخيراً، أوقفته وأعطيته العنوان الذي أريد، كانت السيارة تسير ببطء بسبب سوء الأحوال الجوية وتراكم الضباب كالغيوم، استرقت النظر إلى المشاة الحزانى الذين يعتصرهم البرد وإلى العشاق الجالسين خلف نوافذ المقاهي الذين يحاولون محاربة برد الشتاء القارس بالقبلات الحارة وأكواب القهوة التي يضغطون عليها بأناملهم.

نظرت إلى الأطفال المشردين الممزقة ثيابهم دون مأوى، والذين لا ظل لهم سوى سقف السماء وتساءلت: كيف لمدينة بهذا الجمال أن تترك أبناءها تائهين في الشوارع، وكيف أنّ المارة يرمقونهم ثم يرحلون وكأنهم لم يروا أي شيء.

كم استصغرت نفسي حينما كان همي أن أستحوذ على بيانو فريدريك الذي قد يفوق سعره بالمزاد المليون، وغيري يبحث عن ظل يحتمي فيه ليلة واحدة فقط، أو كسرة خبز تخفف من جوعه.

طلبت من صاحب التاكسي أن يتوقف قليلاً عند أولئك الأطفال

المشردين، أعطيتهم ما كان بحوزتي من طعام وبعض الحلويات التي أعدتها لي أمي قبل أن أغادر، وفجأة التصقت بي طفلة شقراء صغيرة تقول لي وهي تبكي: خذني معك أرجوك.

ـ لكن إلى أين ستأتين معي ؟

ـ إلى بيتك، أنا أخشى النوم في هذا الشارع.

ـ حسناً عزيزتي، ما رأيك أن آخذك إلى ملجأ للأطفال؟ ستفرحين هناك.

-لا، الآنسات هناك سيضربنني، أرجوك سيدي أرجوك خذني معك، وسوف أرتب لك البيت وأحضر لك كل ما تحتاج إليه.

وقفت صامتاً أمامها لا أعلم ما الذي يجب عليّ فعله. فقد تسبب لي كثيراً من المشاكل إذا ما اصطحبتها معي.

تذكرت نظرات الأطفال المشردين في وطني، أولئك الذين سلبت منهم الحروب طفولتهم وأجبرتهم على البقاء على جوانب الطرقات، وأجبرتهم الحياة على أن يصبحوا باعة جوالين يبيعون بعض المحارم والعلكة لأصحاب السيارات، شعرت بشيء غريب تجاه هذه الطفلة يشدني نحوها، حدس ما يأمرني أن آخذها معي، لم أستطع مقاومة عينيها، طلبت منها أن تودع رفاقها كي تأتي معي.

جلست إلى جواري في التاكسي وسألتها:

ـ ما اسمك يا حلوة؟

ـ لا أعلم، لكن أصدقائي ينادونني بالشقراء».

ـ حسناً، إذن ما رأيك أن أعطيك اسماً؟

ـ حسناً، لكن شرط أن تجعلني أقيم عندك وأن تنام إلى جانبي كل ليلة، فأنا أخاف أن أنام وحدي.

ـ حسناً حبيبتي أعدك بذلك، ما رأيك أن أسميك لين؟

قالت وهي فرحة:

ـ نعم، نعم موافقة أنا لين، أحببت هذا الاسم.

ـ منذ متى أنت تجوبين الشوارع؟

ـ منذ الشتاء الماضي.

سنة كاملة دون أن يلتفت إلى هذه الطفلة الجميلة أحد! يا إلهي إلى أين وصلت بنا الأنانية والجشع! كيف لمجتمعات تنادي بالإنسانية لا تعتني بأطفالها ولا تنظر حتى إلى أحوالهم!

تموت الإنسانية حينما يموت طفل ملقى في الشارع من أثر البرد، وحدهم العراة من لا يشعرون في البرد، أولئك الذين يمكثون تحت المكيفات ويشاهدون التلفاز بهدوء وتدمع أعينهم جراء مشهد كلب نفق في الشارع جوعاً، ولا تدمع عيونهم حيال طفل يطلب غطاء؛ فئة غيرة مبالية هذه، فإذا ما اشتد المطر أو تساقطت الثلوج يكونون في فرح ورقص دائم، أما أولئك المكبلون بغطاء السماء فهم من ينزل المطر عليهم غضبه ويهدم خيمهم المنصوبة بين الطرقات في الأرض، فرفقاً بنا يا مدّعي الإنسانية.

توقف سائق التاكسي أمام البيت وأعطيته الأجرة البالغة خمسة

وثلاثين دولاراً لأنني لم أكن أحمل أي مبلغ باليورو، وطلبت من لين أن تستعد للنزول لأننا وصلنا إلى البيت.

أنزلت الحقائب من السيارة ثم دخلنا البيت معاً، ذلك البيت الذي لم يدخله أي شخص منذ أكثر من سنتين. وقفت لين أمام المنزل مذهولة والابتسامة ترتسم على شفتيها قائلة:

ـ هذا هو المنزل؟

ـ نعم.

ـ كم هو جميل! سأعيش هنا دوماً أليس كذلك؟

ـ إن سمعت كلامي فسوف تبقين، هيا لندخل الآن.

كان الغبار يغطي كل أثاثه، ويبدو أن هناك عملاً كثيراً ينتظرني الآن، دون سؤال رددت لين: فلننظف المنزل أنا وأنت ثم سأختار غرفة لي كي أستطيع أن ألعب أنا وأصدقائي فيها، لكنني جائعة الآن أريد أن آكل هل لديك بعض الطعام؟

ـ لا، لكن إن شئت يا عزيزتي سنذهب إذن إلى السوق أولاً ونحضر بعض الطعام ثم ننظف البيت، موافقة؟

ـ نعم بالطبع.

ماذا تريدين أن نأكل؟ قالت بأنّ آخر عشاء تناولته مع أمي قبل أن يلتهم الحريق بيتنا كان اغتي، كم كانت هي بارعة في إعداد هذه الأكلة، كنت أطلبها منها دوماً، ومنذ أن رحلت وأبي إلى الجنة لم آكل أي شيء سوى بعض الفتات الذي يلقيه المارة نحونا إلى جانب الطريق، قلت:

ـ اغتي؟

ـ نعم، ألا تعرفها؟

ـ لا، قولي لي ما هي؟

ـ إنها مثل المعكرونة.

ـ تقصدين سباغتي أليس كذلك؟

ـ أوه نعم صحيح، نسيت اسمها.

ـ هل لم يتبق أي أحد من إخوتك؟

ـ لا، أنا الطفلة الوحيدة لهما.

ـ هل أنت متأكدة أن والديك قد توفيا؟

ـ لا، هما لم يموتا بل رحلا إلى الجنة، هكذا قالت لي الممرضة قبل أن أهرب من المستشفى.

ـ ولم هربت؟

ـ سمعتهم يقولون إنهم سوف يخرجون أبي إلى مكان ما، ولذلك هربت كي أراه.

ـ وهل رآك والدك حينذاك؟

ـ لا، لم يخرجوه، رغم أنني انتظرت ساعتين قبل أن أهرب، صديقي أنا جائعة جداً هيا.

كم هي بريئة تلك الطفلة، لم أتمالك نفسي حين قالت لي هذا الكلام احتضنتها بدفء وقلت لها والدموع تطفو من عيني: سنتناول السباغتي كل ليلة إذا شئت، أعدك بذلك، ثم قالت: هل نستطيع أن

نخبئ القليل منه لماما ريثما تعود من الجنة؟ قلت لها: لين حبيبتي أمك لن تعود إلى الأرض، إنها في مكان أفضل وستكون فرحة إذا كنت بخير يا لين، قالت: حسناً سأجعل أمي سعيدة.

ـ هيا بنا إذن، سنأكل في المطعم، لا أريد أن نأكل في البيت، فهو متسخ كثيراً.

جلست لين أمامي وأنا ضائع بجمال عينيها الزرقاوين المليئتين بالحزن والبراءة، كم هو صعب أن يجد الطفل نفسه فجأة مشرداً بلا مأوى، تجاهلت كل شيء وكان كل تفكيري معلقاً بلين، ظل النادل يناديني:

ـ يا سيد ما طلباتك؟ يا سيد؟ لو سمحت؟

ـ أوه عفواً اعذرني لم أنتبه، طبقا سباغتي لو سمحت.

ـ حسناً، خمس دقائق فقط.

قالت لين: لم تقل لي ما اسمك؟ أجبتها أنا أدعى خالد، قالت مرتبكة: إذن أنت لست فرنسياً! قلت لها نعم أنا لست فرنسياً أنا عربي، قالت تلك الطفلة: «نحن نخاف من العرب، فهم دائماً يحاولون قتلنا، إنهم لا يحبوننا ويكرهون أن يرونا سعداء». أجبتها مصدوماً منها: هل ترين أنني أكرهك أو أريد إيذاءك؟ قالت: لا أنت صديقي العزيز، رددت بالقول: وأنا عربي أيضاً، لذلك لا تصغي إلى تلك الأكاذيب، نحن لسنا قتلة ولا نكره الحياة، نحن أشد الناس حباً للأطفال.

لم أدر كيف لطفلة صغيرة أن تتكلم كلاماً كهذا، يعلمونها الكره ولا يكلفون أنفسهم أن يأخذوها حتى إلى منازلهم.

اتجهت نحونا فتاة سمراء الشعر بنية العينين فائقة الجمال أخالها عربية مرتدية ملابس خاصة بعمال المطعم تقول: أهلا بكم بجاسمين ميغاج، هل تريدون طلباً آخر؟

ـ عفواً سيدتي هل من الممكن أن تقولي ما اسم المطعم ثانية؟

أجابت مبتسمة:

ـ jasmine mirage monsieur

يا لروعة هذه المصادفة! كم مرة قرأت قصة مطعم سراب الياسمين وها أنا جالس داخله، سألتها متلهفاً:

ـ وأين تلك الياسمينة القديمة؟

ـ لقد ذبلت مؤخراً بعد وفاة صاحب المطعم.

ـ جوزيف؟

ـ أتعرفه!!!

ـ قرأت عنه ذات مرة وقرأت عن قصة حبه مع ياسمين، أريد أن أسالك: هل هناك حقاً قهوة حرام كان يصنعها أم هو مجرد كلام متناقل بين الناس؟

ـ نعم، وهي التي كانت سر نجاح هذا المطعم، متأسفة الآن، عليّ الذهاب لمتابعة العمل، هل ترغبان في شيء؟

لا شكراً. أخذني الذهول بعيداً عمّا كان يدور في رأسي، ورغم ذلك الجمال الأخاذ لتلك النادلة إلّا أن وقع اسم المطعم سلب مني كل تفكيري، انتابني هاجس الكتابة التي تخليت عنها منذ زمن طويل،

وشعرت برغبة ملحة بأن أكتب شيئاً ما، طلبت سريعاً من تلك النادلة أن تحضر لي ورقة وقلماً فكتبت عليها: «بين السراب والياسمين جوزيف ما زال عالقاً في مكان ما تفوح ريح وروده أينما حل وأينما ارتحل تطغى على روائح العالم كله وتبعثر وروده كل لغات العالم العاشقة وكأنها تقول كل هذا سراب، سراب، سراب، لا لغة تعلو فوق لغتي أنا الياسمينة البيضاء أنا القهوة الحرام أنا الخيانة أنا الحب أنا الموت أنا ياسمينة السراب».

هذا كل ما كان في رأسي من رماد كلمات أرمم فيها بقايا من سراب الياسمين، فبين روعة قصة هذا المطعم ونادلة مشبعة بالجمال العربي ضاعت مني الكلمات وتبعثرت مني الحروف كما يتبعثر كوب قهوة على المنضدة، فما النفع من وضع الوعاء أسفل المنضدة كي تلتقط بعضاً من قهوتك؟ لم يوقظني من تضارب الأفكار والأحاسيس سوى صراخ لين وهي تقول:أنا أشعر بالنعاس يا خالد خذني إلى المنزل أرجوك أريد أن أنام.

ـ حسناً عزيزتي.

توقفت أمام المطعم قليلاً أتفكر في جمال اسمه وأتذكر نفسي قبل سنتين من الآن وأنا أتخيل نفسي بطلاً بدلاً من جوزيف في هذه القصة التي أحببتها جداً، ثم ذهبنا إلى المنزل وقمنا بترتيبه سريعاً.

استلقت لين على صدري وأنا أداعب شعرها الذهبي المخصّل، وأفكر في الحدث الأروع الذي حدث معي في هذا اليوم. لم أنم طوال

الليل، وضعت مقطوعة بصوت خافت لفريدريك شوبان وبقيت يقظاً على إيقاع ألحانه، تلك التي تكون تارة سريعة وتارة بطيئة، تارة عنيفة غضبة وتارة هادئة رومانسية، تارة فرحة وتارة حزينة، يا لروعتك يا شوبان ، دوماً يذكرني في ألحانه أن الحياة مهما تكن فرحاً فيها إلّا أنها تصر على أن تحزنك، ليس لأنها تكرهك، بل لأنها تريد أن تمتحن صبرك قليلاً أو من الممكن أنها تريد أن تداعبك فقط، لذا افرح حين تشعر بالحزن واضحك كما لو قال لك أحد ما نكتة، وكأنها تقول: جاملني في هذا الموقف يا أخي حتى لو كان مزاحي ثقيلاً أحياناً.

لم أنم ليلتئذ أكثر من ثلاث ساعات، استيقظت في تمام السادسة وكانت الأمطار تتساقط بغزارة، أعددت قهوتي وجلست قرب النافذة أتلصص على أصوات المطر وأرافقها بصوت فيروزي يقول: «بيتي الصغير بكندا ما بيعرف طريقو حدا قرميده مغطى بالتلج كل المرج» تلك الأغنية فيها كل ما تحتويه الغربة من معاني الاشتياق والوحدة، تماماً كما أنا الآن، لا أحد يعرفني هنا.

قاطعت تفكيري لين حين استيقظت، كانت تبدو كالملاك المولود تواً، أعددت لها كأساً من الحليب ثم فكرت أن آخذها معي إلى ذلك المعهد الذي دلني عليه عامل المطار.

ـ عزيزتي هل تحبين البيانو ؟

ـ نعم، كثيراً

ـ ما رأيك بالذهاب معي إلى معهد خاص بالبيانو، لكن عديني بأنك لن تسببي لي المشاكل هناك.

ـ حسناً، أعدك بذلك.

تذكرت ما قاله ذلك العامل بأن الموجودين هناك كلهم أولاد ذوات، فقررت أن أشتري بذلة مناسبة وفستاناً للين، ذهبنا إلى السوق واشترينا الملابس وأحضرنا بعض الباسك الفرنسي فطوراً للصباح، كنت تباغتينني وتنسلين من بين يدي كلما كلمت الباعة، غضبت حينئذ منك وصرخت بوجهك «إن فعلتها مرة أخرى سأعيدك من حيث أخذتك». نزلت دمعة من عينيك لم أستطع مقاومتها وأجبرتني على الاعتذار منك. «هيا بنا، لم يبق هناك وقت علينا الذهاب إلى باريس الآن».

تعجبت حين دخلنا المعهد أهو مركز موسيقي أم قصر ملكي! كل ما فيه مصنوع من الذهب وخشب السنديان وبلاط وأعمدة من رخام، سقفه العالي المليء بالرسوم كل ما فيه ملكي بامتياز، كان مليئاً بالأدوات الموسيقية الفاخرة، وقفنا ما يقارب الخمس دقائق قرب الباب ننتظر من يدلنا على المكان إلى أن جاء موظف هناك يطلب مني بطاقتي بعد أن رحب بي وقال بعدئذ: اذهب إلى قسم البيانو عن يسارك هناك.

ـ حسناً، شكراً لك.

خالد؟ أليست تلك هي النادلة التي كانت في المطعم أمس؟

ـ لا يا لين، نحن في مكان لا يتردد إليه سوى من هو من الطبقة الغنية في هذا المجتمع، وتلك نادلة مسكينة تتعب مقابل قليل من النقود.

ـ صدقني إنها هي، هل أستطع الذهاب إليها؟

ـ لا، قلت لك أن تبقي إلى جانبي لا نريد المتاعب.

ـ حسناً كما تريد لكن صدقني إنها هي.

ذهبت صوب البيانو برفقة الشخص الذي سيتولى تعليمي، بدأ يعرّفني بالدو والري وغيرها، وراح يقص عليّ بعض القصص عن الأشخاص الذين رغم صعوبة وضعهم، إلّا أنهم تابعوا تعلمهم على هذه الآلة وأصبحوا من أكبر المشاهير كبيتهوفن، الذي كان بداية مجبراً على العزف بأمر من والده وغيره، ثم طلبت من ذلك العازف أن يعزف لي مقطوعة فعزف مقطوعة تسمى (river flows in you) لعازف كوري ضعت مع روعة ألحانه، في وجه تلك الشابة التي قالت لين إنها النادلة، وفجأة وجدت لين تجلس في جوارها، توقف الأستاذ وقال: حسناً إذن يكفيك اليوم عد غداً.

ذهبت مسرعاً صوب لين متخوفاً من أن تكون قد تسببت حقاً لي بالمتاعب

ـ ألم أقل لك أن تبقي في جواري؟

ـ الآن فقط تركتك، ثم إنني كما قلت من قبل: إنها هي نفسها.

ـ أنت هي النادلة التي تعمل في المطعم؟

ـ نعم يا.. أنا هي.

ـ آسف على الإزعاج الذي سببته لين.

ـ اسمك لين إذن، لا، لا تقلق يا سيدي، لم تسبب لي أي إزعاج بل العكس، لقد فرحت بلقائها جداً.

ـ أنا متأسفة، أرجوك سامحني.

ـ لو غضبت منك الآنسة لكنت عاقبتك لكنني سامحتك هذه المرة لكن في المرة المقبلة عليك سماع ما أقوله لئلا أغضب منك.

ـ حاضر.

ـ حاضر يا مخادعة ! لنرَ.

قالت لين: خالد قبل أن نرحل هل تلتقط لي صورة مع صديقتي الجديدة؟

فقلت لتلك الشابة أرجو ألّا تمانعي، أخرجت الكاميرا ووقفت ناظراً من خلف عدستها إلى ضحكة تلك الفتاة، ضحكة متسللة من ثغرها رسمت حدود وطن لا حدود له وأحيت شعباً لا بشر فيه، وأعادت العرش الذهبي إلى مملكة مهجورة، أعادت الجنون وأرغمتني على النظر إلى الجمال، أعادت النبض إلى القلب، «تبسمي أكثر لو سمحت، تبسمي أكثر».

التقطت لهما صورتين، واحدة تجمعها بلين وأخرى التقطتها لها وحدها خلسة دون أن تدري، أخذت لين لنخرج من المعهد وقلت لها بصوت خافت

ـ لين، ما اسم صديقتك هذه؟

أدارت لين وجهها نحو الفتاة وقالت لها بصوت ممازح: إنه يسألني عن اسمك.

ابتسمت تلك الفتاة وقالت: أنا رنين.

أحرجتني لين جداً حينئذ، فقد كان من غير اللائق الاستفسار عن اسمها خلسة، كان يجب أن أعرّفها بنفسي في البداية بدلاً من أن أتقدم نحوها صارخاً بوجه لين، وفي محاولة لتدارك الإحراج قلت لها أنا أدعى خالد، تشرفنا أنا ولين بمعرفتك، إلى اللقاء.

كانت الساعة حين وصلت إلى بياريتز الثامنة والنصف موعد القهوة الأروع، كان الطقس آخذاً بالتحسن فجلست على الشرفة ووجدت نفسي منغمساً في رواية تدعى الكبرياء والتحامل، لا أعلم لمَ أصابني الهوس في الصفحة الخامسة والأربعين منها وارتأيت تصويرها إلى جانب كأس القهوة السوداء وعبوة السجائر، كم أحب صور المثقفين هذه، أو صور من يدعون أنهم مثقفون.

وقعت عيني صدفة على الصورة التي التقطتها لرنين خلسة، وأنا أشاهد الصور كانت تنظر إلى هذه الصورة ببراءة تجاه لين حتى أنها فاقتها براءة. ولشدة ضياعي في جمالها، تراءت لي أمامي وشعرها ينساب كشلال قربي، صرخت فجأة: يا لجمالها !!!!

اتجهت نحوي لين تزف إلي خبر معرفتها بعنوان رنين، وأن هذه الأخيرة طلبت منها أن تزورها حين تحين الفرصة. سألتها أين تسكن؟ فقالت لين: «نسيت، لكنني أذكر أنها قالت إنها تسكن في منزل في بياريتز قرب الشاطئ، نسيت أين».

في بياريتز!! وقرب الشاطئ!! إذن هي حتماً في أحد هذه البيوت التي في جواري، قلت لها «أمتأكدة أنها قالت إنها تسكن هنا؟»، «نعم

يا خالد متأكدة». قطعت الشك باليقين، حتماً إذن هي ليست فقيرة كما تصورت لكن ما سبب عملها نادلة في مطعم إذن!!

ـ خالد أرجوك دعني أزورها، فقد قالت لي أيضاً إنها ستغادر في يناير.

يا لثقل مزاح الحياة معي!، دوماً تذكرني بصديق قديم كان يخبرني بضع النكات وحينما أضحك يقول لي: (طب اخرس). هكذا يمازحني هو وهكذا تمازحني الحياة، فبعدما تضحكني تقوم بصفعي، فهل يعقل أن يكون شهر واحد كافياً لأقضي بعض الوقت لأرى ذلك الوجه الحسن؟؟ لا، أنا لا أريد الحب ولا أريد التعمق في علاقة معها، كل ما في الأمر أنني أحب النظر إلى إبداع الخالق وتجليه في هذا الوجه، أنا كما قال درويش: «لا أريد من الحب سوى البداية».

فكرت بطريقة سلسة كي ألتقي رنين سريعاً، قلت للين:

ـ ليس من اللائق أن أذهب إلى هناك وهي حتى لا تعرفني وليس من اللائق أن أتركك عندها وأرحل، لذا فما رأيك أن تقولي لها غداً في المعهد أن تأتي لشرب الشاي واللعب معك هنا؟

ـ فكرة رائعة يا خالد.

ـ لكن إياك أن تقولي لها إنني صاحب الفكرة.

ـ حسناً.. ...

مضت ساعاتنا الخمس قبل النوم دون أي حدث يذكر، كانت ساعات سلمية بامتياز لم ينزع السلمية عنها سوى هاتف من أبي يقول

لي إن وضع جدتي الصحي آخذ بالتدهور وقد نقلوها إلى المستشفى، حزنت عليها جداً وصليت من أجلها.

ضحكت على حبيبتي العجوز تلك التي تبرع دائماً في إفساد أي مشروع لي دون أن تدري، مرة حين طلبت مني عدم مغادرتها إلى أن أتناول معها الغداء وكنت في الوقت نفسه مدعواً إلى وليمة سيحضرها وزير الثقافة لاختيار رواية هذا العام من بين رواياتنا نحن المبتدئين، وقد فاتني الموعد بسبب وليمتها التي كانت عبارة عن «شوربة عدس وحمص». وفي مرة أخرى حين نسيت أن تأخذ دواءها في الموعد المحدد وقد كنت على بعد مئة كيلو من البيت، فاضطررت أن أحضره لها حين كان من المقرر أن أكون على موعد مع فتاة تعرفت إليها من طريق الانترنت، ثم تبين أن عبوة الدواء كانت فارغة أصلاً. دعوت لها مرة أخرى ثم خلدنا إلى النوم أنا ولين، فأمامنا يوم طويل غداً، وسأستضيف تلك العازفة أو النادلة أو أياً كانت هي على كأس من الشاي مبرراً ذلك بطلب لين.

استيقظت على رنين الجرس من قبل ساعي البريد المزعج حاملاً لي طرداً ورسالة ويطلب مني أن أوقع على الاستلام، فتحت الرسالة وآثار النعاس تجتاح وجهي، كانت من صديق ظننت أنه مات بسبب السرطان حينما غادر الوطن لتلقي العلاج في باريس قبل ثمانية أعوام وانقطعت أخباره وأخبار كل عائلته، حتى ظننا نحن أصدقاؤه أنه قد مات وقمنا بفتح بيت للعزاء في بلدتنا، كتب في الرسالة: « كيف أمور

معهد الموسيقى معك؟ سمعت أنك سريع التعلم يا صديقي، بالطبع أنت لا تعرف من أنا رغم أنني التقيتك ثلاث مرات من قبل وحادثتك طويلاً، يبدو أنك نسيت شكلي بعد أن انتشر خبر إصابتي بالسرطان وموتي، هل تصدق إن قلت لك إن كل ما في الأمر أنني كنت مصاباً بشقيقة فقط وليس بسرطان كما قالوا في مستشفياتنا؟ لهذا السبب لم أرجع إلى الوطن لأن السرطان في وطننا شقيقة في باريس».

كان في الطرد كي يؤكد لي هويته صورة قديمة تجمعني به حين كنا في الصف الأول الابتدائي في مدرسة القرية، فرحت لهذا الخبر جداً حتى أنني سمعت صوت ياسر في أنفاس هذه الرسالة، لم أصدق نفسي، ظننتني في حلم فليس هناك أروع من عودة شخص أماته القلب إلى الحياة.

بدأت بعد هذه الفرحة أعد نفسي للصفعة التي سوف تهديها إليّ الحياة هذه المرة، قررت رد الصفعة التي ستأتي لا محالة بابتسامة وشكر، فلا بأس بصفعة صغيرة ترد ياسر إلى حياتي، أيقظت لين سريعاً كي نستعد للذهاب إلى المعهد، كان كل شيء من البداية مختلفاً ففضلت الحليب والـ(سيريلاك) على القهوة، واستعضت عن أغاني فيروز ببرنامج كرتوني شاهدناه أنا ولين، حتى أنني قررت أن لا أدخن هذا اليوم لئلا تنفر رنين من رائحة الموت العالقة بجسدي.

كل شيء في جسدي كان عابقاً برائحة الطفولة منذ بداية الصباح، منذ أن أعدت ياسر إلى ذاكرتي، إلى الصف الأول الابتدائي في الحياة،

إلى فترة الراحة التي تأتي بين الحصتين الثالثة والرابعة، تذكرت لحظة مجيء موعد خروج ياسر الأخير من منزله، كنا نهوى صيد العصافير، قبلته عند الباب بحرارة وكلي يقين بأنه لن يعود، بدأت العصافير تطوف حول منزله بشكل غريب، قلت له حينئذ ما رأيك أن نصطاد واحداً قبل ذهابك فقال: «لا يا خالد، دعها فإنها جاءت كي تودعني».

نزلت دمعة من عيني حين تذكرت ذلك الموقف وكأنها كانت تريد إيقاظي لأذهب إلى المعهد، ارتدينا ملابسنا أنا ولين وخرجنا في رحلتنا اليومية من بياريتز إلى باريس.

تذكرت وطني وأنا أنتظر وصول التاكسي، حيث يكون السائقون على أبواب سياراتهم يأكلهم الضجر ويقولون: «رام الله، الخليل، نابلس، آخر راكب على أريحا» أوقفت تاكسياً وصعدت ولين فيه، كان يبدو على السائق العجوز الملل وهو يردد بصوت خافت «إلى أين تتجهان؟»

- إلى باريس.

كل شيء مميز في وطني حتى سائق التاكسي الذي لا يبالي إن أشعل سيجارة ذات رائحة كريهة وسيارته ملأى بالبشر، ينسيك مسافة الطريق الطويلة بحديثه معك عن أولاده وزوجته التي لا تطبخ أحياناً، وعن غلاء المعيشة وارتفاع أسعار البنزين، وعن الحواجز بين الطرقات، وعن الطرق الوعرة وعن، وعن، فترى نفسك قطعت مسافة المائة ميل بخمس دقائق دون أن تشعر، بعكس السائق الذي خرجت

ولين معه مرتدياً بزة بيضاء وهو صامت طوال الوقت ومهموم، مكبل بأوامر الوزارة التي من الممكن حتى أن تكون وضعت حدوداً معينة لابتسامة السائقين، فلهذا تستغرق الطريق من بياريتز إلى باريس ساعات طويلة. فعلاً ما أجملك يا وطن!.

دخلنا المعهد في تمام العاشرة في الموعد تماماً، كان فارغاً على غير عادته، أخرجت بطاقتي من جيبي ودخلنا أنا ولين، لم يكن هناك سوى أربعة أشخاص أنا ولين ورنين والموسيقار طوني صاحب المعهد الذي كان يصرخ برنين قائلاً: «ألف مرة طلبت منك أن تقلمي أظفارك أو لا تعودي إلى المعهد، لن تستطيعي العزف مع هذه الأظفار الطويلة، عليك اليوم أن تختاري إما البيانو وإما أظفارك، أمامنا منافسات قريبة».

ذهبت لين نحوها واستقبلتها بحرارة واحتضنتها، تخلصت من خجلي وتوجهت إليها مصافحاً يدها الحريرية البيضاء، استرقت النظر إلى أظفارها لأرى ما الغريب فيها الذي يستوجب على رنين أن تقلمها.

فهمت رنين فوراً سبب استراقي النظر إلى أظفارها وقالت «يبدو أنك جديد هنا ولا تعرف أن عازف البيانو يجب أن تكون أظفاره مقلمة ليستطيع ملامسة أزرار البيانو، دائماً يعيد طوني لي الأسطوانة نفسها كل يوم»، قلت لها: «ولم لا تقلمينها إذن؟» قالت: «أنا لا أستطيع إمساك الأشياء دون أظفار إذ تفلت من يدي بسرعة»، فقلت لها: «لكن عليك أن تضحي بشيء كأظفارك لأجل هوايتك البيانو»، ثم تابعت «هي ليست هوايتي المفضلة لكنني أردت خوض التجربة فيها فقط».

ـ ومنذ متى وأنت تتعلمين العزف.

ـ باشرت بتعلمه في المرحلة الثانوية، ثم انقطعت عنه لظروف أجبرتني على ذلك، وها أنا عدت إليه مجدداً ويبدو أنني سأتركه مجدداً أيضاً.

ـ لكن لم ستتركينه؟

ـ لا أرى نفسي أتقدم بالعزف، إذ إنني ما استطعت أن أتقن شيئاً تماماً كما حالتي مع وزني، فمنذ فترة طويلة وأنا أضاعف وجبات طعامي كي أضاعف وزني أكثر لكن من دون جدوى.

ـ بالنسبة إلى وزنك فهذا ليس من شأني ثم إنك جميلة هكذا، أما بالنسبة إلى البيانو فأرى بك وجهاً خلق ليغمر الحياة إيقاعاً ولحناً، بالمناسبة لم يسبق أن خانتني نظرتي بأحد.

حاولت بعد ذلك تغيير الموضوع قائلة للين: «أمامنا وقت طويل لنمرح معاً يا حبيبتي أليس كذلك؟» فردت لين عليها «نعم بالطبع، لكن بعد أن نحتسي الشاي في منزلنا». شعرت حين قالت لها لين هذا الكلام بتسارع في نبضات القلب، ارتباك شديد وارتفاع بالأدرينالين، هكذا انتظرت إجابتها التي كانت بالرفض بداية، ثم قالت لين: «أرجوك أن تأتي ساعة واحدة فقط سنستمتع معاً صدقيني».

ـ هيا يا رنين، منذ مساء أمس ولين تعد غرفتها كي تأتي لزيارتها، حتى أنها طلبت مني أن أحضر بعض قطع حلوى الباسك لأجلك فلا ترديها خائبة.

ـ حسناً إذن سآتي لزيارتها هذا المساء، لكنني لا أستطيع المجيء الآن لانشغالي ببعض الأمور، أعطني عنوانك لو سمحت.

ـ حسناً اكتبي عندك br/n/18

ـ سأكون عندك يا لين في تمام السادسة والنصف، أما الآن اعذروني فعلي أن أتابع درس اليوم.

ـ وأنا أيضاً سأذهب لتلقي درسي.

كانت لين جالسة أمامنا على مقاعد المشاهدين في المسرح، كل ما أصدرناه أنا ورنين كان نشازاً، ومع ذلك يجامل كلانا الآخر قائلاً: «رائع» و«رائعة».

انتهى الدرس سريعاً وودعنا بعضنا بعضاً ثم طبعت رنين قبلة على وجنة لين، كم تمنيت تلك القبلة، كانت آخر قبلة لي قبل ثماني سنوات من الآن ومن بعدها لم تقبلني امرأة سوى أمي « نحن بانتظارك يا رنين لا تتأخري، وداعاً».

حل المساء سريعاً بعد انتظار ساعات طوال ملأى بالتفكير والترقب، قرع الجرس أخيراً هممت بفتحه سريعاً، كانت مرتدية كنزة صوفية خضراء وشحتها بمعطف فرو أسود، رحبت بها بحرارة وأدخلتها إلى المنزل بسرعة، فقد كان الجو في الخارج قارساً جداً ويبدو أن بياريتز على موعد قريب مع الثلج، انتزعت معطفها ببطء شديد ووضعته خلف الباب، ومع انتزاعها للمعطف كان انتزاعها لعقلي.

حضرت لين وتعانقتا معاً ثم قالت للين: «أمامنا ساعة واحدة فقط لأني سأذهب بعدها إلى عملي، إذن ماذا تحبين أن نفعل بها؟» قالت لها لين: «نحتسي الشاي أولاً ثم نلعب في غرفتي التي جهزها خالد لي قبل قليل».

ذهبت كي أعد الشاي ثم عدت سريعاً محضراً معي الباسك وأكواب الشاي الثلاثة، جلسنا بقرب مدفأة الحطب أمام النافذة نترقب الثلج الذي لم يهطل في بياريتز منذ ثلاث سنين. بدأت الحديث قائلاً:

ـ هناك سؤال يخطر في بالي دائماً عنك، كيف لك أن تكوني في معهد البيانو صاحب الاشتراك الأعلى سعراً وفي الوقت نفسه نادلة في مطعم؟

ـ أضف إلى ذلك عملي بجمعية الطفل اليتيم، كل ما في الأمر أنني لا أحب أن يتحمل أحد مسؤوليتي، أريد أن أصنع نفسي بنفسي دون مساعدة من أحد كي أقول بكل جرأة لأي شخص: أنا من كونت نفسي.

ـ إذن أنت لا تدرسين في الجامعة؟

ـ لا،أنا طالبة، أدرس القانون في جامعة السوربون وبعد بضعة شهور سأتخرج.

ـ جميل جداً، أحسدك على براعتك بتنظيم وقتك، فأنت طالبة وعاملة ومشرفة وعازفة في الوقت نفسه.

ـ أظن أنه قد حان دوري لسؤالك، قل لي ما السبب وراء سمرتك

العربية ودم أختك الفرنسي؟ هل أبوك ممن يهوى اصطياد النساء من عدة جنسيات؟

ضحكت جداً حين قالت لي ذلك وقلت لها والضحكة لا تفارقني: لا يا رنين لين ليست أختي، إنها هدية القدر، وجدتها في أحد الشوارع وقررت احتضانها وأخذها معي وها نحن الآن أعز الأصدقاء أليس كذلك يا لين؟

ـ صحيح،خالد أعز صديق بالنسبة إليّ، وهو كل ما لدي، ثم تابعت بسخرية: أظنك يا رنين أتيت كي تلعبي معي وليس كي تتكلمي مع خالد!

ـ أوه عزيزتي بالطبع جئت لأجلك هيا خذيني إلى غرفتك.

جاءني اتصال هاتفي من صوت مألوف قال لي: سأكون عندك بعد ساعة، أريد زيارتك.

قلت له لكن من أنت؟ رد قائلاً: اصبر ساعة وستعرف.

ذهبت أعد العشاء ثم خرجت رنين من الغرفة مودعة تقول: «عليّ الذهاب الآن إلى المطعم».

حاولت كما عادة العرب التمسك بها للعشاء لكن دون جدوى، ارتدت معطفها ثم همت بالخروج، بدأ الثلج يتساقط مع خروجها وكانت حبيباته تداعب شعرها الأسود ويبعثره الهواء تارة يميناً وتارة شمالاً، تبعتها بسرعة محضراً معي مظلة كي أعطيها إياها عل هذه المظلة تكون رشوة للقدر كي يسنح لها بالعودة إلى منزلي بحجة إرجاع المظلة يوماً ما، أعطيتها إياها وودعتها.

عدت مسرعاً إلى المنزل، كنت مبللاً تماماً، دخلت المطبخ بعدما استبدلت ملابسي، تباً لقد احترق العشاء تابعت قائلاً للين: «يبدو أننا لن نأكل سوى الباسك الليلة أو إن أردت سنأكل بعض البطاطا المتفحمة التي صنعتها لي ولك».

قالت لين: «لا أريد تناول العشاء، كانت وجبتي اليوم صديقتي رنين فبعد أن رأيتها وجلست معها لم أعد جائعة».

كان بودي التهام هذه الوجبة مع لين، لكنها رحلت سريعاً بعد أن تركت لي بعض المقبلات من ضحكات وبعض الأحاديث السريعة.

قرع باب المنزل مرة أخرى، شعرت بأن ذلك الطارق هو المتصل نفسه، فتحت له الباب فكان عامل المطار الذي أهدى إلي بطاقة اللجوء تلك، قلت له مصدوماً «أهو أنت المتصل؟».

ـ نعم، يبدو أن زيارتي لم تعجبك.

ـ لا ليس هذا ما أقصده بالطبع، أعجبتني تفضل بالدخول.

«شو مالك يا زلمة انت عنجد شكلك مش عارفني» هكذا بدأ كلامه معي فرددت عليه قائلاً «لا يا رجل أنا عارفك مش انت اللي بتشتغل بالمطار، وبعدين احكيلي من وينتا بتحكي عربي وعلهجتنا كمان؟». تبسم لي فرددت له بسمته بضحكة ثم قال لي: «طب اخرس» صدمت جداً من كلامه وقفت مذهولاً أمامه تلتهم وجهي الدموع وتعتصرني الذاكرة، تعيدني إلى الماضي البعيد، إنه ياسر حتماً هو ياسر.

ـ ياسر!!

ـ نعم يا خالد أنا ياسر، ياسر بشحمه ولحمه.

عانقته بشدة وأنا أبكي على كتفه قائلاً «يا إلهي كم اشتقت إليك لا أصدق أنك أمامي الآن، لكن ما الذي غيرك هكذا؟ كنت سميناً جداً أيام الطفولة وأراك الآن أنحف مني».

ـ سأقص عليك قصتي لكن أريد أولاً أن نحتسي القهوة معاً وعلى شرف سوادها نتقاتل.

قلت له ممازحاً: «قصدك تثقل دم، طبعاً سنحتسي القهوة أمامنا الليل بطوله، يا الله كم اشتقت إليك يا رجل»

كان دخول ياسر مجدداً إلى حياتي إعصاراً قلب كياني وأعادني طفلاً في عمر لين، هل لهذه اللحظة أن تكون أفضل؟ أعددت القهوة، ذهبنا عند المدفأة واتخذ من الأريكة التي جلست عليها رنين مقعداً له.

ـ يبدو أن هناك أحداً كان قبلي هنا، أظن أن بطاقة اللجوء التي أعطيتك إياها أتت ثمارها، هيا قل لي من هو الشخص؟ هل تملك صورة لها؟ جميلة هي صحيح؟ لا تقل لي إنها أطول منك، هيا حدثني عنها يا رجل.

ـ ما زلت كما أنت يا ياسر، كثير الأسئلة ومضجراً بعض الشيء، على أية حال لا يا صديقي إنها مجرد صديقة تعرفت إليها في المعهد.

ـ سامحك الله أنا مضجر؟

ـ بعض الشيء، هيا يا رجل أنا أمازحك فقط.

ـ حسناً، لا ترى فيها ملجأك العاطفي؟

ـ صدقاً لم أعد أدري أي شيء، كلمتها ثلاث مرات فقط وما زلت لا أدري إن كانت دهشتي بها التي لا تحتمل تسمّى حباً أو إعجاباً، أو ربما لأن هذه هي المرة الأولى التي أنجذب فيها إلى شخص متعدد التسميات، غني، فقير، عازف، نادل، مشرف، صلب، رقيق، طفل، ناضج.

لا أعلم لكن لا أظن أنها تصلح أن تكون ملجأ عاطفياً لي فلا ألمح من بين مقلتيها سوى دماري وجرف أمواج الجنون لي، لا أعلم صدقاً لا أعلم.... دعنا من هذا الموضوع وحدثني عنك.

ـ آخ! تريد أن أحدثك عني؟ اسمع إذن ما الذي حدث معي. أنا غادرت الوطن طفلاً صغيراً فاقد الأمل بالحياة، فكل من شخّص حالتي قال لي إنني أعاني سرطاناً يلتهم رأسي بسرعة كبيرة، فذهبت إلى باريس كي أتلقى أولى جلسات العلاج، كل شيء في المستشفى كان أبيض عدا الزهور الحمراء والزهرية، أسرة بيضاء، حيطان بيضاء، ملائكة الرحمة البيضاء، تتولى تجهيزي للفحص، وبعد الصور الإشعاعية والتحاليل التي تعرضت لها انتظرت أربعاً وعشرين ساعة كي يشخّصوا حالتي تماماً، ثم جاء الطبيب فرانك سباستيان نحونا متبسماً وتبدو على وجهه تعابير الراحة قائلاً لأبي: لا أعلم من قال لكم إن هذا الشاب يعاني السرطان، كل ما في الأمر أنه مصاب بالشقيقة وليس كما قلت لي حين جئت إلى هنا !!!.

شقيقة!! نعم شقيقة، تخيل يا ياسر مدى الضعف الذي يسود الطب في بلادنا ! لكنني لا ألوم الأطباء في وطننا، ربما معنى السرطان يختلف من مكان إلى آخر، وربما كانت رائحة الموت في بلادنا أقوى من رائحة الموت في باريس، ربما لأننا هناك في كل لحظة ننتظر الموت ليقرع باب أحد من أهلنا، إما بسبب رصاص الاحتلال، وإما لوعكة صحية، وإما كما في حالتي في أثر شقيقة شخّصت على أنها سرطان، أما الموت في باريس ففي أقصى حالاته يكون إما لكبر السن وإما لوعكة عاطفية ليس إلّا.

وبعد كل هذا قررت البقاء في باريس والاستقرار فيها، وفي محاولة مني لتجنيب نفسي الموت قمت باتباع حمية قاسية حتى ابتعد عني نصف وزني وتغير شكلي تماماً.

لم أكن أعلم أنه كان عليّ أن أدفع ثمن ذلك، أصاب سهم الموت أبي عوضاً عني، تمنيت حينئذ لو أصابني أنا بدلاً من أبي، وهكذا يا صديقي وجدت نفسي مضطراً للبحث عن وظيفة، وكنت آنذاك قد بلغت العشرين من عمري، عملت في مطعم أربع سنين ثم توظفت رسمياً في المطار، وها أنا الآن أمامك كما تراني يا خالد، يا إلهي كم أحن إلى أيام طفولتنا وأتمنى لو تعود منها فقط لحظة

ـ لحظة!!

ـ نعم لحظة، علينا ألّا نكون استغلاليين حين يهدي إلينا القدر فرصة كهذه كي نحتسي القهوة معاً أنا وأنت ونتحدث قليلاً، أنا شاكر

للرب على هذه المصادفة التي جمعتني بك، ولا أريد سواها، لكن إن كانت لنا جلسة أخرى قريباً فسأكون متشوقاً إليها جداً، أما الآن فعليّ الرحيل لقد خانني الوقت معك، استمتعت جداً بلقائك يا صديقي وسأراك في أقرب فرصة.

هكذا كان لقائي بالوافد الجديد القديم، قصيراً، مختزلاً، مختلاً، مجنوناً، سريعاً، رائعاً وكريهاً، كان به كل شيء، تضارب في الأفكار والأحاسيس، لكن أكثر ما أسعدني بهذا اللقاء أنه كان مختلطاً بريح الوطن.

لحظات قليلة وسرعان ما أحسست بالوحدة، وحدي مع لين نصارع البرد والثلج الذي غطى نوافذ المنزل، غامرت تلك الليلة باحتساء القهوة في هذا الوقت المتأخر فلم أجد رفيقاً أفضل ليشاركني في وحدتي، ولأنني رجل يعشق المغامرة ضاعفت من سواد القهوة، بل بدلت فنجانها الأبيض بقدح كبير، جالست هذا الكوب ساعتين أطالع سواده وأمواج الرغوة البنية التي قد تكشف لك قدرك كما يقول المنجمون.

لا أعلم كيف نالت مني الكتابة في هذه البلدة لأول مرة منذ أربع سنين، فوجدت نفسي ممسكاً بقلم أصارع بياض الورق فيه وكتبت أخيراً «ذلك الغائب الذي عفت عنه الذاكرة وسراديب القلب، برد عشقنا له واضمحل قطرة قطرة تماماً كما كأس القهوة هذه التي بردت فلم تعد صالحة للشرب الآن، فقهوة أمست بنكهة الماء حلال سكبها

على الياسمين، إلّا إذا أعيدت حرارتها إليها مجدداً». كلمات لم أفهمها أنا حتى، لكن برغم ذلك ما زالت في جيبي حتى الآن، تركت كوب قهوتي على حاله وخلدت إلى النوم ليس حباً به بل لاستعجال الشروق فقط.

بزغت الشمس أخيراً وبدأت السماء تتلوّن بحمرة وردية فقررت أن أخرج هذه المرة على عكس عادتي للمشي قليلاً إلى جانب الشاطئ، ورغم الثلوج كان الجو أشبه ما يكون ربيعاً، أعددت قهوتي الصباحية ووجدت نفسي أحتسيها في جوار الشاطئ. لن أنسى يوماً ذلك الشخص الذي كان مرتدياً معطفاً أحمر وقبعة حمراء، وكان جاثماً دون أي حركة أمام البحر، وكأنه ينتظر سفينة قادمة أو غريقاً قد يظهر من البحر، لم أر منه بداية أي شيء سوى ظهره، تابعت السير ثم أخذت من صخرة مقعداً لي، وأخرجت تلك الورقة من جيبي وبدأت أطالعها وأحاول عبثاً فك الرموز التي كتبتها دون جدوى، لم أع حينئذ أن ذلك الشخص يسترق النظر نحوي.

يا إلهي كم من التساؤلات خطرت في بالي! تعمقت جداً في التفكير حتى أنني ظننت أني قد انتحلت شخصية حكيم مسن بلغ ذروة الحكمة والتعقل؛ ما رغبت طوال عمري أن تلتهمني الحكمة يوماً ما ولذلك أشعلت سيجارة تضجر الحكيم الذي تسلل إلى داخلي، تلك اللفافات المميتة لا تستطيع أن تغادر شفتيّ أبداً وكأنها امرأة حرمت على شفتي ملامسة أي شيء سواها، سمعت فجأة صوتاً يناديني:

«أسعدت صباحاً يا خالد ما هذا النشاط؟». أدرت وجهي نحو صاحب الصوت، كان هو نفسه صاحب المعطف الأحمر، كان ذلك الشخص هو رنين.

صباح الخير رنين، دوماً أستيقظ في مثل هذا الوقت، يبدو أننا متشابهان بالنشاط إذن.

ـ أنا لم أنم منذ ليلة أمس.

ـ هل لك أن تطلعيني على السبب؟

ـ أحب أن أحتفظ بشؤوني الخاصة لنفسي.

ـ كما تريدين.

تنهدت بعمق وكأنها تحمل على ظهرها جبالاً من الهموم ثم قالت «هل ستسمعني حتى النهاية؟» قلت لها: «بالتأكيد»

ـ لم يستسلم تفكيري للنوم طوال أمس ولا أعلم ما هو السبب الرئيسي، كل ما في الأمر أنني مثقلة بالضجر ومحتقرة لصمتي الذي يبعد جميع الأصدقاء عني، أشعر أنني لا أجيد التكلم وإن تكلمت أغضب كل من حولي، لم أجد العزف بعد ولم يزد وزني ولو كيلو واحداً فقط! أشعر بحزن عميق جداً وأشعر أنني كمن ينتظر غائباً يئس الزمن نفسه من انتظاره، فهل تعرف معنى هذا الشعور يا خالد؟ أشعر بانتقاص واضطراب وكأن كل ما حولي هو محض سراب.

نزلت دمعة من عينها ثم تابعت «أشد أنواع الوجع أن لا تعرف

ماذا بك، لا يوجد هنا أحد يهتم بروحي، بياريتز لم تعد تطيق وجودي داخلها، لا أعلم أين سيقودني القدر هذه المرة لكن أظن أن موعد رحيلي عن هذه المدينة المعتمة قد اقترب.

أتعلم؟ أنا تلك الفتاة التي تخشى العلاقات المجهولة مصيرها، أخشى صداقة قد تغدر بي وأخاف الاقتراب من الحب لئلا يفر غفلة دون سابق إنذار، أنا لست بتلك الصلبة ولست بتلك الحرة، غارقة أنا في بحر خوفي المظلم الذي كلما حاولت الوصول إلى شاطئ النجاة تأتي موجة وتسحبني إلى قعر البحر مجدداً، أنا تلك الملأى بالأخطاء لا أجيد المشي مثل عارضات الأزياء ولا أتبع حمية غذائية خوفاً على تفاصيل جسمي، لست ملكة نفسي أنا بل حبيستها، هذا كل ما في الأمر».

كان في عينيك بعض الدموع، كم زادتك دموعك جمالاً حينذاك، أتعلمين؟ كفرت من بعد عينيك بكل ديانات الحب المجوسية البالية، كلها كانت حجارة على شكل عيون، أما عينك هذه فهي الوحيدة الحقيقية على هذا الكون، لم يسبق لقلبي أن رأى عيناً تشع دمعاً بهذا الشكل.

قلت دون أن أعي ما الذي أقوله لها: «رنين هناك أشياء حرم عليها الكلام، لوحة الموناليزا مثلاً أو مثل هذا الشاطئ، برج إيفل، طائر الدوري والنرجس والكاميليا وأنت أيضاً، من سلالة الناطقين بجمالهم أنت، يكفي لمن أمامك النظر إلى وجهك الملائكي هذا،

فلا يوجد كلام أبلغ من النظر إلى وجهك أو الابتسامة التي ترتسم على ثغرك حينما تداعبين لين، كفاك إيهاماً لنفسك بأن هناك شيئاً ما ينقصك، ولا تهتمي إن بعد عنك من يدعون أنهم أصدقاؤك، أولئك كلهم ممن يحبون تخريب الأماكن الجميلة والعبث بها ليس إلّا، هم جاؤوا ليدمروا فيك شيئاً ولم يأتوا كي يزيدوا حياتك فرحاً وسعادة.

لا أصدق أنك تنعتين بياريتز بالمعتمة لأجل هؤلاء الذين تتكلمين عنهم، في الواقع هم المعتمون وليس بياريتز صدقيني، إياك أن تنسبي وجعك يوماً ما إلى مكان أو إلى مدينة لأجل شخص ليس إلّا، هو القبيح والمعتم وليس المدينة ثم من قال لك إنه لا يوجد من يهتم بك؟ هل ترغبين أن أخبر لين بذلك؟ لين تهتم بك وتحبك والموسيقار الفظ يهتم بك ولولا ذلك فلم يكن ليبالي إن قلمت أظفارك أم لا».

كان بودي حينئذ أن أقول لها وأنا أيضاً إن ملكتني نفسك فسأكون الزاهد الورع المتصوف على رأس جبل مصلياً لعينيك صلاة الحب الأولى وأقرأ عليها دعاء العشق الأول والتمتع بصمتك المليء بالكلام فهلا اقتربت أكثر؟ لكنني بدلت هذه الجملة قائلاً «وها أنا هنا أكلمك أيضاً وأسألك ما بك فبم تفسرين هذا؟، ابتسمي واتركي نسائم البحر تداعب شعرك المخفي تحت القبعة هذه، ابتسمي للبحر وانثري له شعرك فالبحر يهوى الجميلات».

قاطعت كلامي بعدما ابتسمت ابتسامة ساحرة فيها كم رهيب من الأمل قائلة: هل أنت شاعر يا خالد؟

ـ لا، أنا مجرد روائي فاشل.

ـ لاحظت ذلك.

ـ لاحظت أنني فاشل؟

ـ لا ليس هذا ما أقصده، بل لاحظت أنك تجيد الرسم بالكلمات، أتعلم؟ كلامك أزال عني من الهم كثيراً، بالمناسبة قل لي ما هذا الكتاب الذي بيدك ! ؟

ـ إنه مخطوطة أعمل عليها منذ سنتين لكنني توقفت لأنني لا أعرف ما هي تتمة هذه القصة التي أكتبها.

ـ عم تتحدث مخطوطتك إذن؟

ـ عن المطعم الذي تعملين فيه.

ـ سراب الياسمين؟

ـ هو بعينه.

ـ هلا تقرأه لي إذن؟

ـ هل ستصغين إلي حتى نهاية ما كتبت؟

ـ طبعاً.

حسناً إذن، اجلسي إلى جانبي على هذه الصخرة، وبداية أنصتي إلى صوت موج البحر ثم انظري إلى السماء ثم تنهدي بعمق وبعدها قولي لي أنا مستعدة لجنونك.

فعلت تماماً ما طلبته منها ثم قالت لي:

ـ حسناً إذن أنا مستعدة الآن لجنونك.

«تلقت تلك الصفعة من الحياة مجدداً حين غادر الحفلة قبل أن يصل حتى إلى الشمعدان الجاثم في أول القاعة، هرعت خلفه تناديه، تصرخ نحوه، تبكيه، تمزق فستان الدانتيل خاصتها حين ارتطمت بالسياج، وقعت، أدميت، نادت، غادر طيفه سريعاً ثم عادت إلى الحفلة صرخت بأعلى صوتها وهي في قمة انهيارها، أوقفوا الموسيقى واخرجوا جميعاً، وبعد رحيلهم أطفأت كل الأضواء والشموع عدا شمعة واحدة، أشعلت سيجارة وضعتها في فمها لا أعي إن كانت شفتاها هما من تسحبان الدخان أم أن الدخان هو من يقتلع شفتيها من شدة احتراقها، مزقت ما تبقى من فستانها ثم جثمت على ركبتيها أمام الشمعة شبه ميتة وحدها، حتى دونه ودون أي صديق يواسيها ، وكأن كل ما كان حينئذ سراب». هذه هي المقدمة يا رنين هل تريدين مني المتابعة؟

ـ طبعاً، لقد قلت لك مسبقاً إنني لن أقاطعك حتى تنهي كل ما كتبت.

ـ حسناً، إذن سأبدأ الآن.

ـ انتظر، خذ سيجارة أولاً.

ـ حسناً، شكراً لك.

«كان دخوله إلى حياتها دون أي مقدمات تذكر، بسرعة البرق سرق منها كل شيء واقتحم قلبها واستوطنه بعدما ظن أنه قد طرد كل سكانه، أول مرة رآها كانت تحتسي قهوتها في مطعمه، حينئذ

أصر أن يذهب نحوها ويشاطرها القهوة بأي طريقة كانت، ومن على مفترق عينيها أعلن حربه وأمر مشاعره وأحاسيسه وكلامه بالاستعداد للمواجهة بعد أن أقسم ألّا تشرب قهوتها هذا المساء إلّا برفقته.

تقدم نحوها بمشيته المتعالية حاملاً معه كوباً إضافياً من القهوة بعد أن تذرع أنه من طقوس المطعم، أن يجلس المالك مع الزبون في أول زيارة له للمطعم ويشاركه في ما يشرب ويسأله رأيه في المطعم، ثم يهدي إلى ذلك الزبون قطفة من ياسمينته العتيقة المتشبثة بالنوافذ، كل ما فيها أسره، عيناها الكبيرتان، رموشها الخفيضة، ابتسامتها المحتشمة، وجهها الفاتن كله، حتى أصابع يدها الخالية من أي إشارة تدل على مشاطرة قلبها مع شخص آخر، لم تكن تضع من الحلي سوى عقد لا يليق به أن يوضع سواه من الحلي معه، أشعلت سيجارة بهدوء شديد يكتنفها ثم قالت له:

في قهوتكم شيء غريب، لا أعلم إن كانت غرابتها من غرابة هذا المكان أم لمكوّن خاص بكم تضعونه فيها.

ـ أتعني أن القهوة لم تعجبك سيدتي؟

ـ لا، بل على العكس أظنكم حتى ربحتم زبوناً يومياً دائماً لكم لشدة روعة مذاقها.

ـ هذا من دواعي سروري، أظنني إذن سأسقيك قهوة من نوع آخر يوماً ما، أنا من ابتكرتها ووضعت مقاديرها وأسميتها القهوة الحرام.

ـ القهوة الحرام؟

ـ نعم، حرام هي لأنها حرمت على كل الناس عدا قلة من الأشخاص اختارهم ليشربوها، لا عليك دعيها في موعدها حين يحين رحيقها عند قدوم ساعتها حين مجيء طقسها.

ـ يا إلهي هل تحتاج تلك القهوة إلى كل هذه المقدمات؟

ـ حين يأتي موعدها ستقررين بنفسك إن كانت تحتاج إلى هذه المقدمات أم لا.

ـ حسناً كما تشاء.

ـ اعذريني الآن سأذهب لأتابع عملي، بالمناسبة هناك خلفك على النافذة بضع خصل من الياسمين خذي منها ما تشائين فهذه هدية المطعم.

ـ حسناً سأفعل شكراً لك على حسن الضيافة».

بدأ الجو بالاضطراب هذه اللحظات وبدأ المطر يتساقط بغزارة على الشاطئ، أغلقت الكتاب سريعاً لئلا يبتل ثم ركضنا إلى منزلي معاً بعد أن ابتللنا تماماً في الطريق، أغلقت الباب سريعاً ثم أخذنا نجفف ثيابنا أمام مدفأة الحطب وحينئذ كان الثلج قد عاود الهطل مرة أخرى.

طلبت مني رنين أن أعد القهوة إن أمكن وأن أكمل لها القصة.

ذهبت إلى المطبخ ففوجئت بوجود لين فيه حيث كانت تعد الفطور.

ـ كنت ظننتك نائمة يا لين.

ـ استيقظت قبل قليل وأعددت الفطور لي ولك، مع رقائق الذرة.

ـ شكراً عزيزتي، أعدي طبقاً ثالثاً إذن فهناك ضيف في الخارج

ـ من؟

ـ اذهبي وألقي نظرة بنفسك.

ـ رنين، صباح الخير صديقتي اشتقت إليك جداً.

ـ وأنا أكثر حبيبتي هيا اقتربي أريد أن أقبلك.

ـ حسناً لكن بسرعة، أود أن أعد لكما الفطور.

ـ ما أروعك حبيبتي! أنا حقاً جائعة، خالد ما رأيك بأن نؤخر موعد القهوة قليلاً ونفطر مع لين أولاً؟، هيا عزيزتي لا أريد تعطيلك.

ـ ستتذوقين أشهى فطور.

ـ أنا متشوقة إلى ذلك.

لم تغب لين أكثر من خمس دقائق وإذ بها تعود ومعها الأطباق الثلاثة، تناولناها سريعاً وشكرناها على إنجازها العظيم هذا، كان الجو يزداد برودة أكثر فأكثر وقطرات الثلج تتنافس من سيصل الأرض أولاً، ذهبت لإحضار القهوة ثم جلسنا ثلاثتنا على البساط الأحمر بقرب المدفأة الخشبية العتيقة فقالت رنين:

ـ هيا تابع القراءة، لقد شوقتني إلى معرفة الأحداث.

ـ حسناً، إلى أين وصلت؟؟ نعم صحيح:

«استوقفتها رائحة الياسمين حين همت بالرحيل وكأنها أول مرة تشم مثل هذه الرائحة، دنا رأسها لتشم هذه الزهرة أكثر وتزحزح شعرها عن رقبتها كشلال أسود غير مساره فجأة، أغلقت عينيها، تبسمت،

تنهدت ومع هذه التصرفات العفوية كان انهيار مالك المطعم وتسللها من بين ثغرات قلبه وهو يراقب عن بعد.

ـ يا سيد كم الحساب؟ يا عم؟ أستاذ لو سمحت كم حسابي؟

ـ أوه، آسف لم ألحظ وجودك، حسابك أربعون ورقة.

ـ أربعون ورقة فقط؟ ما هذه الأسعار الخيالية؟ لقد مررت وزوجتي بالأمس على المطعم المقابل وطلبوا خمسمائة ورقة.

ـ اعذرني سيدي، أنا مشتت قليلاً حسابك أربعمائة ورقة وليس أربعين اعذرني أرجوك.

ـ لا عليك..

تبسمت له تلك الفتاة ثم غادرت المطعم، ومع مغادرتها ازداد جنونه سلبت منه تفكيره ووسمته لها فقط، كانت أكبر من فتاة تؤخذ لإقامة علاقة جنسية عابرة وأصغر من نحلة معلقة على تلك الياسمينة أو وردة توضع في جوار النافذة، أغلق مطعمه سريعاً وهو في قمة فرحه لتلك الهدية التي رماها القدر في طريقه ثم توجه نحو منزله في بياريتز، كانت الساعة إذ ذاك الواحدة بعد منتصف الليل، ورغم كل ما قد تسببه له القهوة من قلق وأرق إذا شربها في هذا الوقت إلّا أنه قامر على بقاء عينيه يقظتين في هذه الليلة ورغب بأن يحتسيها خارجاً قرب الشاطئ.

تلقى الصدمة سريعاً ولعن نزوله إلى الشاطئ ألف مرة بعدما وجد الفتاة نفسها مع شاب مستلقيين على الرمل، حاول إيجاد الأعذار لها ربما أخوها، صديقها، لا، لا يوجد هناك أي احتمال سوى أنه عشيقها،

رمى الكوب أرضاً وذهب نحو بيته سريعاً عائداً إلى مقر عزلته الدائم. توشح بغطاء وعاهد نفسه ألّا يفكر فيها ثانية ثم نام باكياً من شدة القهر.

كان انكسار ذلك الرجل سريعاً جداً، كانت أقصر فترة إعجاب، لم تتعدّ حتى الست ساعات، وحين استيقظ ذهب صباحاً كعادته ليفتح مطعمه، كل شيء على حاله وروتينه الممل ما زال كما هو داخل هذا المطعم، عجرفة الزبائن، طلباتهم المقرفة وكثرة استعمالهم لدورة المياه، كان يخالجه شعور بأن ثمة ما ينقصه، مضت الساعات الخمس الأولى وهو يترقب دخولها رغم أنه عاهد نفسه أن ينساها وبعد كل هذا الانتظار دخلت أخيراً لكن الحزن كان يداعب عينيها البراقتين من شدة احتباس الدموع فيهما، تعمد تجاهلها بداية لكنه لم يقو على تجاهل تلك الدمعة المتسللة من عينيها نحو فمها الصغير، ذهب صوبها قائلاً:

ـ آسف سيدتي على تطفلي، لكن يبدو أنك لست على ما يرام، هل أستطيع مساعدتك؟

ـ أنا أحتاج حقاً إلى من يجالسني لأنني أشعر بأنني سأنفجر بعد لحظات.

ـ كلي آذان صاغية.

ما همّ بالجلوس وإذ بذلك الرجل الذي رآها معه ليلة أمس يترجل من السيارة قادماً نحوهما قائلاً:

ـ هيا ياسمين تعالي إلى السيارة.

ـ أخبرتك أنني لا أريد، دعني وشأني.

ـ يبدو إذن أنك وجدت من يحتمل تصرفاتك الغليظة.

ـ هذا ليس من شأنك، اغرب عن وجهي.

فأقدم ذلك الشاب على صفعها أمام كل الزبائن مما أغضب المالك وقال:

ـ اخرج من مطعمي سريعاً، لا أريد أن أرى وجهك هنا مجدداً، كان ذلك الشاب آنذاك ثملاً جداً فانتشل سكينة كانت على الطاولة وسرعان ما سحب معظم من كان بالمطعم مسدساتهم وقاموا بتوجيهها نحوه، تبسم المالك ابتسامة شيطانية ثم قال للشاب:

ـ هيا اخرج يا عزيزي ولا تعد إلى هنا أبداً.

صدمت ياسمين من هذا الموقف المذهل كيف لشيء كهذا أن يحدث، هل يعقل أن هؤلاء الرجال وجدوا هنا محض مصادفة؟

ـ ما الذي يجري ومن هؤلاء الرجال وكيف حدث كل هذا؟ ما هو عملك؟ لقد شوشتني جداً، أنت مالك مطعم أم رئيس مافيا شيطانية دائمة الحضور في هذا المكان؟

ـ لا يا عزيزتي، لا تسيئي فهمي، كل هؤلاء هم أصدقائي في الاستخبارات العسكرية ووجودهم هنا في هذه اللحظات كان مصادفة لا أكثر صدقيني، أروها بطاقاتكم يا شباب علها تصدق.

ـ لا، لا داعي لهذا لكنني أريد معرفة القصة الحقيقية.

ـ يبدو أنك صعبة المراس يا ياسمين، حسناً سأخبرك بكل شيء، لكن لاحقاً

ـ أظن أن قطفة من ياسمينتك ستلهمني بعض الصبر.

ـ هي كلها لك خذي منها ما شئت.

ـ شكراً، بالمناسبة قل لي لم لا تضع اسمك على مدخل المطعم؟

ـ لا أظن أن اسمي بهذه الأهمية لدى الزبائن فهم مغرمون باسم المطعم وكل من يزور مطعمي أول ما يلفت انتباهه هو اسمه.

ـ للأسف أنا لا أجيد الفرنسية ولا أستطيع فهم هذه الأحرف، جئت إلى فرنسا منذ ثلاثة أيام.

ـ اسمه jasmine miráge أي سراب الياسمين.

ـ فعلاً اسم رائع وهو مطابق لحال المطعم من الداخل والياسمين المتسلل نحو النوافذ يكمل اسمه.

قاطع كلامها بهدوء شاعري وكأنه يحاول إيصال رسالة ما.

ـ أحب اسمك كثيراً يا ياسمين هو من أحب الأسماء إلى قلبي.

ـ هذا من لطفك يا سيدي، لكنك إلى الآن لم تخبرني ما اسمك ولم تخبرني سر القهوة الحرام.

ـ أدعى جوزيف، أما عن تلك القهوة فأظن أن موعدها اقترب كثيراً وهو يعتمد على سبب حزنك الذي لم تخبريني به بعد.

ـ سبب حزني ذلك الشاب، أحببته جداً ووهبت له كل ما أملك، لم يكن هكذا يوماً بل كان في قمة الحنان والعطف، أما الآن فكل ما يتقنه هو الصراخ وحتى الضرب.

دوماً أقول في قرارة نفسي لن أسامحه أبداً ثم سرعان ما أجد نفسي مرتمية في حضنه وكأن شيئاً لم يكن.

ـ ومنذ متى وأنت تحادثينه؟

ـ مذ وعيت على الدنيا، كان صديق طفولتي ثم صار عشيقي، ثم خطيبي، وبعد ذلك انفصلنا سنة ثم عدنا مجدداً.

ـ غريبة أنت ياسمين وبارعة في إخفاء الحزن عن وجهك.

ـ حزني أصم يا جوزيف، لا يوجد أحد يسمع دقاته لا أحد يفهمه، أتعلم؟ أنت أول شخص منذ زمن طويل يسألني ما بك..

رأى لدى تلك الفتاة حزناً شديداً جداً وحسد ذلك الشاب على حب ياسمين الكبير له، تمنى ولو للحظة أن يكون مكانه، ذهب إلى المطبخ دون أي كلمة يعد القهوة على يده ورسم على وجه القهوة برغوتها الياسمين ثم اتجه نحوها من جديد.

ـ هيا تعالي معي إلى شرفة المطعم.

ـ أظنه أن المكتوب عليها ممنوع الدخول.

ـ أنا المالك يا عزيزتي والقوانين خلقت لتخرق.

ـ هه، حسناً.

كانت هذه الشرفة هي منبت شجرة الياسمين الأصلي، أرضيتها ملأى بالياسمين المتساقط الذي يغطي بلاطها، فأينما تلتفت بوجهك لا ترى سوى الياسمين، فوقك أبيض وتحتك أصفر ورائحته مدججة بالسعادة والحزن أيضاً، لم يكن هناك سوى كرسيين يعودان إلى زمن الثورة الفرنسية، كلاسيكيات ورائحة التاريخ تنبثقان من خشبهما.

وفي وسط تلك الشرفة نافورة رخامية عتيقة تعزف بخرير مائها مع حفيف الياسمين سوناتا فاقت ألحان موتسارت روعة.

دخل وياسمين إلى تلك الشرفة فذهلت لجمال هذا المكان، قال لها تفضلي بالجلوس ثم أحضر أسطوانة موسيقى وأعطاها فنجان القهوة الذي أعده.

ـ هل تحبين الرقص ياسمين؟

ـ لا أرى فيه سعادة، ولن يزيدني الرقص إلّا وجعاً.

ـ الرقص لن يحقق السعادة لك لكنه بالتأكيد سينقص من وزنك، الرقص لن يزيل البؤس عنك لكنه كفيل بأن يحييك أكثر، هو للأقوياء فقط، فكوني قوية وارقصي على رماد ذاكرة من تخلى عنك يوماً، تمايلي على وقع جرحك حتى تجرحيه وتقتلي مسببه، فالطريقة المثلى كي تميتي حبيباً عابراً وتقضي على غروره أن ترقصي.

ـ لا أستطيع أن أنساه يا جوزيف، لقد تعبت جداً.

ـ إن كنت ستستسلمين لأول صدمة تتلقينها فأريد إخبارك أن ظني قد خاب بك كثيراً ولست بتلك المرأة التي ظننتها، يا صديقتي أنت من أوقعت نفسك في شركه وستستطيعين حتماً التخلص منه، أما إن بقيت على حالك هذه فلن يتضرر أحد سواك، أنت الخاسرة الوحيدة فابقي سعيدة وضحوكة فهذه هي الطريقة الفضلى لكسر ظالم، وكل ما عليك فعله هو عدم التفكير فيه، وأن لا تصغي كثيراً إلى كلام الأغاني والأفلام وإياك أن تصدقي مقولة «من مثله غير قابل للنسيان» فكلنا ننسى.

ـ آه أتمنى ذلك وسأحاول فعله، بالمناسبة أنظر ا حتى على القهوة مرسوم ياسمين، أنظر يا سيدي إلى هذه الرغوة.

نفخ في الفنجان ثم قال: أصبح الياسمين الآن سراباً.

تناولا أطراف الحديث ثلاث ساعات، استطاع أن يمتص خلالها كل حزنها موقتاً وهي امتصت كل ما في قلبه من مشاعر واستمالته نحوها دون أن تشعر.

ـ أتعلم، قلما أخالط الغرباء لكنني ارتحت لك جداً.

ـ وأنا أيضاً لم أدخل أحداً هنا منذ زمن طويل.

ـ ماذا تعني «هنا»؟

ـ أقصد الشرفة، لا عليك.

كان تحررها الغريب رغم دمها العربي أكثر ما جذب جوزيف نحوها، لم تكن تبالي بالمقاييس البالية في الحب ولم تعتبر كما بقية العشاق من طرازها بأن الحب يأتي بعد صراع طويل يجب أن يعانيه الرجل قبل أن يتمكن من الكلام معها، ربما السبب في ذلك خطيبها الذي حرمها الحب فأصبحت تتوسل إلى أي شخص ليحل مكانه، قالت:

ـ هل كلمتك يوماً عن براعتي في إعداد الطعام؟

ـ لا أريد كلاماً أريد أن أتذوق.

ـ ما رأيك إذن أن تزورني غداً لتتناول العشاء عندي؟

ـ هذا من دواعي سروري.

ـ حسناً اتفقنا، بالمناسبة أخال أن هذه القهوة هي القهوة الحرام!

ـ لا ليس بعد.

في الواقع بدأت أشك في قصة القهوة الحرام التي تكلمني عنها أظنها محض خيال.

ـ لا يا ياسمين ليست خيالاً، هي واقع لا يمكن إنكاره كما جمال وجهك لكنها قدمت آخر مرة لشخص قبل خمس سنين، كانت مباحة للجميع، كل من يأتي إلى المطعم كان يرغب في شربها رغم سعرها المرتفع، أتعلمين؟ كنت أجني من هذه القهوة فقط يومياً ما يقارب السبعمائة ورقة.

ـ سبعمائة ورقة يومياً!

ـ وأستطيع إعادة جني هذا المبلغ مجدداً بتغيير بسيط في لوحة المطعم.

ـ قل لي كيف إذن؟؟

ـ إن أخبرتك سيبطل عنها اسم القهوة الحرام وهذا ليس الموعد المناسب لإبطاله.

ـ أتعجب من رجل في الخمسين من عمره مثلك أن يعشق الصمت فمعظم مجايليك يعشقون الثرثرة.

ـ هههه، ومن قال لك إن عمري خمسون؟

ـ شيبتك تدل على ذلك، لكن لا تقلق فرغم الكبر الجمال والهيبة يطغيان على وجهك.

ـ لكنني لست خمسينياً، أنا في أواخر الثلاثين من عمري وهذا الشيب المفترس رأسي هو نتيجة لأسباب وراثية، انتظري سأريك صورة لي قبل خمس سنين.

ـ شعرك كله أسود ولا يوجد أي تجاعيد، لا أصدق أن هذه الصورة منذ خمس سنين فقط، كيف لعلامات الكبر أن تعتري وجهك بهذه السرعة؟

ـ قصة طويلة لا أظن أنك بحاجة إلى سماعها.

ـ لا عليك، قلها لي إن أردت.

ـ نحن عائلة يقتلها الحزن، يدمر كيانها ويقبل كل تفاصيل جسمها، يجعلنا نكبر بسرعة بعد كل حزن صغير، لكن الذي جرى معي كان فاجعة بكل المقاييس، فقد ضربني الحزن بكل ما أوتي من قوة.

ـ ما الذي جرى إذن؟

ـ كل ما في الأمر أن خطيبتي هيلينا توفيت منذ خمس سنوات فجأة وبعدها أنست بوحدتي وبقيت لنفسي فقط منعزلاً ومنغلقاً عن الجميع، كان موتها صدمة كبرى بالنسبة إلي.

ـ أوه أنا حقاً آسفة، لم يكن عليَّ سؤالك هذا السؤال.

ـ لا عليك فقد اعتدت الأمر.

حاولت تغيير الموضوع وبدأت تسأله عن المطعم وأحوال الزبائن والبيع ثم وقفت قائلة:

ـ اعذرني الآن عليَّ الذهاب، صديقاتي ينتظرنني في المنزل ولا تنسَ موعدنا غداً.

ـ طبعاً لن أنساه لكن زوديني برقم هاتفك كي أستطيع الاتصال بك. ـ تفضل هذا رقمي.

ـ شكراً، اعتني بنفسك.

كعاشق صغير بدا شكله حين أخذ ينظر إلى نغمات رقم هاتفها أكثر من ساعة وهو يشم تلك الورقة الممتلئة بعطرها، لم ينم طوال الليل وهو يفكر فيها. تراءت له روح هيلينا في ياسمين، شعر حينئذ أن الحب تسلل إلى قلبه من بعد خطيبته المتوفاة، أحتسى كأساً من النبيذ ثم وضع رأسه على الوسادة محدقاً إلى النافذة ينتظر شروق الشمس».

نظرت وأنا أروي القصة إلى لين، بدت مندمجة جداً ومتأثرة بالقصة رغم صغر سنها، قلت لها ممازحاً:

ـ هل أعجبك الوضع يا حبيبتي؟

ـ نعم، نعم تابع أحببت هذه القصة.

كانت رنين في هذه الأثناء تنظر نحوي بصمت دون أي كلمة واضعة كفها أسفل فمها مبتسمة، شدتني نظراتها تلك وحدقت إليها أنا أيضاً ثم ضحكت بخجل قائلة:

ـ ما بك؟ هيا أكمل.

ـ حسناً، أنصتي جيداً فهذا المقطع سيعجبك.

«صباح مدينة بياريتز الساحلية أجمل من أي صباح، مدينة النبلاء، تلك التي أصبح جوزيف واحداً منهم بعد أن كسب ثروة هائلة من ذلك المطعم، نهض من الفراش أخيراً، احتسى قهوته على عجل وقرر أن يكون في منتهى أناقته اليوم، ارتدى بزته الأرماني السوداء وربطة عنق زرقاء، ضحك من نفسه التي عاهدها مراراً ألّا يوقعها في الحب مجدداً،

ثم نزل من بيته متجهاً نحو المطعم، أعد كوب قهوة آخر وأحضر جريدة يقرأها.

جلس على الكرسي أمام المطعم حيث كان كل من يمر به يذهل من أناقته الفائقة، إلى أن مر ذلك الشاب غريمه في الحب الذي وقع صدفة أمام نظر جوزيف، نظر إليه ذلك الشاب باستخفاف ثم ابتسم ابتسامة وضيعة وأكمل سيره، لم يعره جوزيف أي اهتمام فلم يكن يرغب أن يعكر مزاجه أي شيء هذا اليوم.

وبعد أن أصبحت الساعة السادسة مساء قرر أن يكلم ياسمين، أخرج الرقم من جيبه

ـ مرحباً ياسمين، جوزيف يتكلم

ـ أهلاً جوزيف، أشرفت على إنهاء العشاء أمهلني ساعة.

ـ حسناً، لن أتأخر وبالمناسبة أسرعي فأنا جائع جداً.

قدر لهذا اليوم أن يكون يوماً للسقوط، يوماً لفك الحصار عن روحه المكبلة، يوماً لإعادة الشوق وإعادة شحن الحنين إلى كيانه الذي خرج للحياة من جديد، يوماً بياريتزياً أصيلاً، كما في أساطير هذه المدينة، كما في حجار منازلها القديمة وشرفاتها الكلاسيكية المطلة على البحر، تناجي الآدمي بأن اصعد إلي وانظر إلى بحري لأعلمك كيف تحب وكيف تعشق وكيف تصاب بسهام الهيام، انظر إلى عصافيري واسمع شدوها بعمق، ستجد لجوءك إن أصغيت، لن تحتاج

لتنظر أكثر إلى جمال هذه المدينة، فجمالها بإقفال عينيك، جمالها بهوائها البحري الذي ينقل إلى أنفك رائحة حلوى الباسك الخارجة تواً من الفرن، وإن أردت أن تقتل عشقاً فانظر إلى سمائها ليلاً وأحص النجوم إن استطعت.

قررت أن أذهب إلى منزل ياسمين سيراً على الأقدام، لفت نظري في الطريق متجر للعطور مزدحم بالناس، قررت أن أشتري لها زجاجة عطر وبعد أن رحبت بي صاحبة المتجر قالت لي: «أنت هنا لتشتري عطراً نسائياً وأظنه الموعد أليس كذلك يا سيد؟». صدمت منها كيف علمت بأمري دون أن أنطق أي كلمة بما أريد، كل ما قلته لها: نعم صحيح أريده لصديقة تعرفت إليها حديثاً فردت: حسناً، إذن خذ هذا، العطر لها فمعظم الجميلات يحببنه، قلت لها: لكن كيف علمت بكل هذا، وكيف علمت أنها جميلة وأنني أرغب في شراء عطر نسائي؟ فقالت لي: «أنت في بياريتز سيدي وهنا العيون وحدها التي تتكلم».

أخذت منها زجاجة العطر تلك وودعتها ثم تابعت سيري، وإذ ذاك بدأ المطر بالهطل، سارعت الخطى إلى أن وصلت إلى منزل ياسمين.

منزل بسيط محاط بالشجر، وأول ما يلفتك في منزلها كثرة الورود في فنائه ورائحته الرائعة وكأن منزلها قطعة من الجنة، قرعت الجرس ففتحت لي الباب مرتدية ملابس العمل البيتي وشعرها مربوط بأعلى رأسها فضحكت حين رأيت مظهرها هكذا وقلت لها:

ـ لا تقولي لي إنك ستستقبلينني هكذا، فردت «لا يا خفيف الظل

طبعاً لن أستقبلك هكذا لكنني انتهيت تواً من إعداد الطعام، تفضل بالدخول وانتظرني ريثما أبدل ملابسي».

وقفت أنظر إلى بيتها وأتجول فيه، منزل أشبه بمتحف مليء باللوحات والتماثيل، وفي الركن بيانو أسود مغطى بالغبار وبقربه صورة قديمة لطفلة أخالها ياسمين. أخذت أنظر إلى الصورة وإلى ضحكتها وشعرها البني الطويل فغافلتني ياسمين قائلة: «أأعجبتك الصورة؟» فقلت لها دون أن أنظر إليها: «نعم، جداً، من صغرك وأنت جميلة، رفعت رأسي ناظراً إليها، صدمت من جمالها الأخاذ من فستانها الأزرق وشعرها المنثور عليه المتسلل من بينه حلق أزرق طويل، كانت في قمة أنوثتها كما يجب على آلهة الحب أن تكون، كما أولئك الفتيات اللواتي نسمع عنهن في الأساطير، بل لشدة جمالها استرقت عن النرجس وصف شدة الجمال وأهدته إليها وأهدته إلى زهر الياسمين من بعدها.

«من أين لك كل هذا الجمال يا ياسمين؟».

لن أنسى يوماً ما رددته آنذاك «الجمال هبة من الله ولم أصنعه أنا كي أحدثك عنه، أما الليلة فسأريك أشياء هي من ستكلمك عني».

ذهبنا بعد هذا الكلام إلى المائدة، جلست أمامي واضعة كل أنواع المأكولات وأطيبها، لا أذكر أنني أكلت شيئاً حينئذ فلقد بقيت موجهاً كل حواسي نحوها وبقيت تحدثني مدة طويلة وأنا شارد بعيداً عن هذه المائدة تعتصرني شهوة لالتهامها، اقتربت مني واضعة يدها

على كتفي قائلة: «جوزيف ما بك؟ هل سمعت ما قلته لك؟» رددت عليها «عفواً! ماذا قلت؟ لم أسمعك جيدًا فلقد ضعت بجمال عينيك». احمرت وجنتاها بشدة وبعد أن تناولنا الطعام أخيراً سألتها عن سبب عدم الاهتمام بالبيانو وطلبت منها أن تخبرني قصة تهميشه كاملة فقالت:

ـ هذا البيانو خاص بأبي وكنت أعشق العزف معه ولم يسبق لي أن عزفت عليه وحدي أبداً، وبعد أن توفي حاولت العزف وحدي فلم أستطع، طلبت مرة من خطيبي أن يعزف معي لكنه رفض قائلاً: «أنا لا أحب هذه الترهات»، فقررت بعدها ألّا أعزف أبداً طالما لم أجد من يعزف معي.

ـ أتمنى لو أنني أستطيع العزف لساعدتك، هل تسمحين لي بتنظيفه؟

ـ لا أريد أن أتعبك.

ـ لا، لا يوجد هناك أي تعب، أعطني شيئاً ما لأنظف هذا البيانو..

ذهبت صوب البيانو أنظفه وأمسح عنه غباراً أخفى رونقه منذ زمن وكانت ياسمين في هذه اللحظات في المطبخ، فاغتنمت الفرصة وجلست على الكرسي معلناً حربي على هذه الأزرار التي أعلنت الحرب عليَّ في صغري حين كان أبي يعلمني قسراً العزف إلى أن غلبتها في مسابقة كانت قد أقيمت بباريس قبل زمن طويل، جاءت ياسمين نحوي فقلت لها: «حسناً إذن قولي لي ماذا ترغبين أن تسمعي؟» قالت

بدهشة: «لكنني ظننت أنك قلت إنك لا تجيد العزف»، نظرت إليها وقلت: «لا عليك أجيبيني فقط».

«أود أن أسمع شيئاً ما لديبوسي إن استطعت».

بدأت حينذاك بعزف مقطوعته الشهيرة (clair de lune) وأنا أتطلع نحوها موجهاً كل أنغامي سهاماً تطيح قلبها، ثم اقتربت إلى جانبي وجلست على الكرسي الآخر تعزف معي المقطوعة نفسها، كانت الفرحة ظاهرة على وجهها كما في قلبها واللحظات الأخيرة قبل الاعتراف كانت هي نفسها التي نعيشها الآن، وبعد أن انتهينا من العزف، قالت وعيناها ممتلئتان بالدموع: هذه كانت معزوفة أبي المفضلة، معزوفة ذلك الرجل الذي حلمت دوماً بأن أتزوج شخصاً مثله، بحنانه وعطفه وشيبته الخفيفة لكن رمى لي القدر ياسر بداية وأظن أنه رماك لي الآن.

وقعت كلمتها الأخيرة سهماً منغرزاً في قلبي، لا أعلم أيملأني فرحاً أم صدمة؟ ما الذي تقصده بهذه العبارة وهل تعني حقاً ما تقول؟ وضعت لجملتها هذه ألف تفسير محاولاً إيجاد واحد ينفي حبها لي وإذ صدمت بنتيجة كل تفسير، إنها تحبك!! سألتها إن كانت تعي ما تقول فكانت إجابتها بنعم.

وأتبعتها قائلة على شرف ألحان ديبوسي اصطدمت بك، وعلى كلير دي لون أغرمت بك تماماً، لا أعلم كيف، ولا أعلم السبب، لم أجد مبرراً لما شعرت به سوى أنني أحببتك يا جوزيف، قد تترجم هذا

التصرف بأنه فخ من فتاة لم يمض على معرفتك بها سوى يومين، لكنني بكل جوارحي أقول لك: أحبك وصدقني إذا ما قلت هذه الكلمة فأنا أعنيها، قلت في سريرتي وأنا أحببتك منذ أول زهرة ياسمينة تنفسك رحيقها.

وقفت بسرعة وقلت لها: هيا بنا سأطلعك على بعض الأسرار.

- إلى أين ؟

- إلى المطعم، هيا لم يتبق وقت.

سرت بها إلى تلك الشرفة، شرفة السراب، ثم ذهبت لإعداد كوبين من القهوة، أكثرت من زهر الياسمين حول الفنجان الفضي، وذهبت بسرعة نحوها، وضعت الكوبين على المنضدة قائلاً لها: راقصيني ياسمين، أنا لا أجد لغة أصف بها بما في نفسي أشد وقعاً من الرقص، دعي جسدك يتكلم هذه المرة ثم أطفأت الأنوار كلها.

كنت أنا جسدها وهي جسدي الموقت، كانت هي القنبلة التي زرعت في صميمي دون أن أدري متى ستنفجر وقلت لها أخيراً أنا الآن أحبك.

بعد كل هذه التخبطات والمشاعر المتتابعة، المتسارعة بخطاها أيقنت أنه لا مفر من كوب القهوة، عله يعيد إلى عقلي صفوه، جلسنا على الشرفة وياسمين في قمة سعادتها ترتشف الرشفة الأولى من كوب الحب الأول بيننا ثم قالت: أتعلم؟ لم أشرب يوماً قهوة كهذه قط أشعر بأشياء غريبة تتحرك داخلي.

«تلك هي القهوة الحرام يا ياسمين، قهوة العشاق، قهوة الحب الأزلي وقهوة المزاج الرائع كنت أنتظر منك أن تقولي كلمة كهذه، حين كنت واضعاً لافتة أمام المطعم مكتوب عليها «قهوة العشاق (الحرام)» كنت أجني كل تلك الأموال ظناً من الناس أن تلك قهوة من أرض آلهة الحب رغم أنها لم تكن مختلفة عن أي قهوة أخرى، إلّا أن الأمر يعتمد على العامل النفسي ليس إلّا، فحينما يكون العشاق متحابين بالطبع سيجدون بهذه القهوة شيئاً مختلفاً، لذة لا مثيل لها فيظنون أنها تختلف عن غيرها إن كانوا سعداء، وأنت الآن في قمة فرحك لذا هنيئاً لك القهوة الحرام، تلك هي يا سيدة النساء. قالت ممازحة وما الذي ستضيفه لي أنت إن كنت أنا سيدة النساء؟ فردد: لك، لا أخال أنني سأضيف شيئاً ولكن، سيزيد القمر نوراً وستخف درجة حرارة الشمس وسيتلاشى الاحتباس العاطفي عن سكان الكون، ستزيد القهوة من رونقها وستعبر نسائم العشق إلى كل غرفة في العالم، سينبت النرجس في الصيف وسيطيل الأوركيد من عمره، إن أحببتك سيرتفع عدد الحمام في الجو ويحل على كل سكان العالم سلام بعواطفهم، سيزداد حجر اللازورد بريقاً، دعك من هذا كله، أقله إن أحببتني فسأكون سيد الرجال فهل هذا كافٍ لك يا سيدة النساء؟.

راقصني مجدداً جوزيف.

الفصل الثاني

باغتني هاتف بعد أن اقتربت من شرفة النهاية كان أبي هو المتصل يخبرني أن جدتي تحتضر في هذه الأثناء، وقد طلبت منهم أن تراني قبل موتها، طلبت من رنين أن تعتني بلين وتركت لها مفتاح المنزل ووعدتهما بالعودة قريباً، توجهت إلى المطار سريعاً وحجزت في أول طائرة متجهة إلى الأردن، كان قد تبقى على موعد إقلاعها ساعة واحدة فقط، قررت أن أكلم أبي وأخبره بأنني قادم عل هذا الخبر قد يزيد من صمود جدتي قليلاً.

أذكر أنه قال لي إن الأطباء لا يتوقعون أبداً صمود جدتي أكثر من يوم واحد وقد أمهلوها حتى عصر غد بعد أن دخلت غرفة الإنعاش، لم يكن في خاطري في هذه الأثناء أي شيء سوى جدتي واستمررت في الدعاء لها إلى حين جاء موعد الإقلاع، وصلت إلى مطار الملكة علياء وسار كل شيء طبيعياً، ما زال هناك ست ساعات إذن، أظنني سأصل إلى المستشفى وهي على قيد الحياة، لا أنسى فضل الجنود الأردنيين الذين سارعوا إلى إنهاء إجراءاتي بعد أن شرحت لهم سبب زيارتي السريعة هذه وبفضلهم الآن أنا في أرض الوطن، تماماً عند الحاجز الإسرائيلي

الذي كان حاشداً بالجنود البولونيي الأصل، الملأى عروقهم بالحقد على العرب، ظننت بداية أنهم بشر مثلنا وقد يتعاطفون معي قليلاً إذا أخبرتهم سبب زيارتي المستعجلة، لكنهم استوقفوني أربع ساعات، أنا دوناً عن غيري بحجة التفتيش والاشتباه في الاسم والمواصفات، نظرت إلى الساعة، تباً لم يعد هناك سوى ساعة كي أصل إلى مستشفى بيت جالا وأنا ما زلت قابعاً على مشارف أريحا.

دار حوار بيني وبين الضابط الذي كان يرمقني بطرفه كل نصف ساعة ويقول لي انتظر قليلاً، ثم قال لي إنهم أخطأوا الشخص أنا لست ذلك الذي يبحثون عنه «نتمنى لك إقامة سعيدة». في الواقع كان يجول في خاطري أن أبصق عليه، فبعد تحقيق مرير استمر أربع ساعات يأتي ليقول لي نتمنى لك إقامة سعيدة!!. ذهبت لأستقل تاكسي لبيت جالا، طلبت من السائق أن ينطلق فجدتي تحتضر، قال لي انتظر إلى أن يمتلئ التاكسي أولاً، اضطررت أن أدفع له أجرة المقاعد كلها كي ينطلق، هذا السائق المفعم بمعاني الإنسانية والرحمة، اختلست النظر إلى ساعتي مرتعباً لعلمي أن الموت أمسى يسابقني أينا سيصل إلى جدتي أولاً!، استغرقت منا الطريق ساعة كاملة بسبب الأزمة الخانقة التي أحدثها حاجز طيار آخر، وحين وصلت إلى باب المستشفى هاتفني أبي قائلاً «خالد، لقد ماتت جدتك ماتت».

كان من المفترض أن أصل إلى هنا قبل ثلاث ساعات، كان من الممكن أن أكلمها وأن تتحسس شعري كما كانت تفعل قديماً، كان من

الممكن أن أخبرها عن قالب الحلوى الذي سرقته من ثلاجتها الملأى بالمواد التموينية العفنة أيضاً، وأن أخبرها بما كتبته عنها ذات مرة حين كنت أدلك قدمها بغية أن تعطيني بعض النقود وأعادتني بخفيّ حنين، كل هذا كان ممكناً لكن الضابط الذي تمنى لي إقامة سعيدة دمر لي كل الإمكانات وتركني في واقع مرير غبت عنه طويلاً، واقع وطني.

دخلت المستشفى بسرعة مضطرباً وفي داخلي شيء من الجنون، دموعي تغرق عيني، أصرخ بالأطباء: «جدتي لم تمت، لم تمت، أنتم قتلتموها» كان بإمكانكم تأجيل موعد نزع الأجهزة، لم فعلتم هذا؟ لم تمت جدتي. ثم سقطت على الأرض ألعن الأجهزة وألعن الأطباء وألعن ذلك الضابط وألعن الاحتلال، ثم قلت: «إنا لله وإنا إليه راجعون» هذا كل ما أذكره قبل أن يغشى عليّ.

أسعفتني ممرضة سمراء سمينة، وأرغمتني على تناول مهدئ وبعد أن عدت إلى رشدي توجهت لألقى فاجعتي، توجهت لأنظر إلى جسد جدتي الذي فارقته الروح، نظرت إلى عيني أبي اللتين تحبسان الدموع قسراً، وإلى عمتي المنهارة من البكاء، وإلى أبنائها الصغار الذين يبكون على بكائها، لم يكن باستطاعتي البكاء أكثر، أخذت أهدئ من روع أهلي قائلاً: هذا قضاء وقدر، ادعوا لها بالرحمة عوضاً عن البكاء، البكاء لن يعيدها أبداً بل قد يزيدها بكاؤكم وجعاً.

اقتربت منها أكثر فأكثر وهي ملقاة على السرير الأبيض أتحسس يدها الباردة المتصلبة وأنظر إلى جفنيها اللذين لن يقدر لهما أن يفتحا

من جديد، قبلت رأسها واحتضنتها وعادت إليّ الدموع مرة أخرى، أبعدني طاقم الأطباء قسراً عنها وبدأوا بتحضيرها كي نأخذها، جلست في سيارة الإسعاف قرب جثتها، تارة أبكي وتارة أسترجع ذكرى لي معها فأبتسم، كان في استقبالنا أمام البيت معظم أهالي القرية الذين جاؤوا يواسوننا وعلى رأسهم امرأة منقبة حضرت خصوصاً كي تغسل جدتي.

كانت هذه الساعات من أصعب ساعاتي، أنا من حملت جدتي على كتفي وأنا من جهزت لها القبر وأهلت التراب عليها، أنا من دفنتها أمام جمع غفير من الناس، أتعي معنى أن تدفن من تحب بيديك!! ذلك الشعور المرير الذي يجبرك أن تتعلق بالروح فقط وتلقي الجسد تحت التراب وأنت متأكد بأنك لن تراه مجدداً، ثم بدأ الشيخ على رأس قبرها يعظ الناس ويتلو علينا بعض الآيات من القرآن الكريم وبعدها عاد الجميع إلى زوجاتهم وأبنائهم وعملهم وكأن شيئاً لم يكن.

لا أدري أهو نفاق وحزن ساعة أم أن الحياة تطلب معاودة فتح أبواب السعادة والفرح لها من جديد، عدت إلى المنزل مع أهلي نواسي بعضنا بعضاً على هذه الفاجعة، كلمت رنين كي أخبرها بوفاة جدتي وبكيت لها كأنني لم أبك من قبل، لم أشعر بضعفي سابقاً كما شعرت به وأنا أقول لها: «جدتي ماتت يا رنين».

انقضت أيام العزاء الثلاثة سريعاً وأخبرت أمي عن لين التي التقطتها من الشارع وعن رنين الفتاة العربية التي التقيتها وأحببتها في

بياريتز، قلت لها إنني سأعود إلى فرنسا، أمكث فيها ثلاثة أشهر إضافية لأن لدي بعض الأعمال هناك ولأنني لا أطيق أن أرى جندياً مغتصباً يطلب مني هويتي في قريتي ويصلبني مع بقية الشبان على الحائط خاضعين للذل والإهانة، وحتى الضرب غالباً، تعمدت ألّا أخبر أحداً عن ياسر الذي تغلب على الموت بناء على طلبه، خرجت أتمشى في شوارع أبوديس مقارناً إياها بشوارع بياريتز التي لا يعرفني فيها أحد.

بعكس شوارع أبوديس، تلك التي كلما مشيت فيها خطوة يباغتني شخص ملقياً سلامه عليَّ، ويطبع قبلاته على وجنتي مهنئاً بوصوليَ بسلام كم سأفتقدك يا أبوديس، لكنني سأعود قريباً.

هيأت أمتعتي للعودة إلى فرنسا غداً، وأقام لي بعض الأصدقاء عشاء دسماً على الطريقة الديسية، والبعض منهم أحضر لي الملابس والعطور والأحذية وغيرها، لكن أكثر هدية أعجبتني هي هدية صديق أبي المحامي مقدسي الهوية علي مرار، كانت هديته حفنة من تراب المسجد الأقصى.

هذا المسجد الذي يتعرض للتهويد والعذاب في كل لحظة، شعرت أنه بإهدائه هذا التراب إلي أهدى فلسطين كلها، أهداها إليّ بكامل أجيالها ونكباتها وأفراحها وأتراحها ثم قال لي: «أعتن بهذه التربة جيداً ولا تهدرها عبثاً، عدني بذلك». قبلت رأسه المليء بالشيب ووعدته بأن لا يضيع تراب الأقصى سدى وهو معي، ثم تابع «عدني بأنك ستضعها إلى جانب وسادتك كل ليلة وتستنشقها كل صباح

وأن تتحسسها حينما تسمع الأخبار وأن لا تتركها يوماً، وأن تعود إلى فلسطين وهي معك مهما ساءت عليك الأمور، عدني بأنه مهما حيك من مؤامرات لنزعها منك لن تتركها ولن تترك تراب الأقصى يسقط عن عينيك أبداً».

قبل أن يرحل من المنزل قلت: «أعدك بقداسة دم الشهداء ألّا أفرط في هذا التراب». فكرت في مغزى هديته هذه طوال الليل دون أن أجد أي هدف منها، فلست بذلك الثوري ولا السياسي الذي يطمح أن يخلص وطنه من الاحتلال، لست بغاندي ولا جيفارا ولا عبد القادر الحسيني.

خلدت إلى النوم سريعاً وفي صباح اليوم التالي كانت أمي تسألني عما أرغب أن آكل فقلت لها: «قطعة باسك وكوب قهوة» قالت لي أمي من أين لنا بالباسك هنا يا ولدي؟ نسيت أنني ما زلت في أبوديس فقلت لها لا عليك أريد أن أتناول الزيت والزعتر وكأس شاي ويا حبذا لو كان عندنا بعض خبز الطابون البلدي.

ذهبت أمي إلى جارتنا المعمرة تطلب منها أن تعيرها رغيفاً من الطابون الذي صنعته تواً وأحضرته لي، تناولت الفطور سريعاً وودعت أهلي وألقيت نظرة أخيرة على أبوديس وداعاً يا بلدتي.

توجهت إلى جسر أريحا، كان الضابط نفسه حينذاك على الجسر، لم أرغب في محادثته قط، اكتفيت بقولي له «شكراً على تمنيك رحلة سعيدة لي فقد ماتت جدتي وأنا راحل الآن». فقال لي: «لا تعد إذن».

وصلت إلى مطار الملكة علياء سريعاً، صعدت إلى الطائرة مودعاً وطني ومودعاً بلاد العرب جميعها، كان إلى جانبي على المقعد رجل لم أر لجماله مثيلاً قط مرتدياً بزة سوداء يغزو الشيب رأسه، ظل معظم الرحلة صامتاً يطالع كتاباً قديماً، لم أستطع مقاومة صمته فقلت له: « إلى أين متوجه يا سيد؟» فقال لي «بياريتز»، فقلت له محاولاً إطالة الحوار معه: «وأنا أيضاً ذاهب إلى بياريتز»رد عليّ بغضب «هل تعيرني صمتك إلى حين أنهي الكتاب؟» فقلت له: «حسناً أنا آسف».

يا لغروره! بدا لي أنه متصنع كبير يريد أن يظهر لي أنه مثقف وشخص مهم، لم أبال به كثيراً بعد ذلك، أخرجت ذرات التراب وبدأت أغمس يدي فيها وأنظر إليها بعمق وتمعن، فاجأه تصرفي وقال: «تراب؟؟ تذهب إلى فرنسا حاملاً معك حفنة تراب؟؟!» فقلت له: «بل حاملاً معي وطناً».

ـ ماذا تعني بذلك؟

ـ لن تفهم إذا ما قلت السبب،على أية حال أنا فلسطيني.

ـ أهذه المرة الأولى التي تزور فيها فرنسا؟

ـ لا بل السادسة حسب ما أعتقد.

ـ أأعجبتك؟

ـ في الواقع، بداية كانت زياراتي لأشتري وأطلع على بعض الأشياء الأثرية، لكن في الرحلة الأخيرة حدث أن التقيت شخصاً ظننته مات منذ ثمان سنين، ووجدت طفلة في السادسة من عمرها مرمية على

أحد شوارع باريس فأخذتها معي إلى المنزل بعد أن توسلت إلي ذلك، باغتني الحب في فرنسا إلى أن أصبحت أعشق هذه الدولة.

ـ هل بلغت السلطات بأنك تبنيت طفلة؟

ـ لا، لم أفعل بعد لأنني لا أعرف حتى الآن إذا ما كنت سأبقيها عندي أكثر أو أسلمها إلى ملجأ ما.

ـ هل أنت أحمق؟ كيف لك أن تأخذ طفلة دون أن تعرفها؟ قد تلاحقك الشرطة وتزج بك في السجن بتهمة الاختطاف.

ـ لا يهمني ذلك، لقد أحببت تلك الطفلة كثيراً، ثم إذا ما عرفوا أنني عربي لن يسمحوا لها بالبقاء عندي أكثر وسيأخذونها مني.

ـ أنصحك بأن تسلمها إلى إحدى دور الأيتام هذا سيكون أفضل.

ـ قلت من قبل إنني فكرت مراراً أن أسلمها وتخوفت كثيراً مما قد تسببه لي من مشاكل، لكن حينما أنظر إلى عينيها الزرقاويين أتراجع فوراً.

ـ كم قلت لي عمرها؟

ـ ست سنين، مسكينة هي تعشق السباغيتي لأنها آخر وجبة تناولتها مع والديها قبل أن يتوفيا.

ـ السباغيتي!!!

ـ نعم، لمَ تتعجب؟

ـ لا، لا شيء لكن أعلم أن الأطفال يحبون الحلوى وليس الطعام الدسم.

بدا على وجهه الارتياح ثم قال لي: لقد أعجبتني جداً فنحن الفرنسيين حتى لا نجرؤ على أن نأخذ طفلة إلى منازلنا دون إذن السلطات في الواقع.

أنتم أفضل منا كثيراً تحققت من ذلك تماماً بعد حديثي معك أرى بك مثال الإنسان الرحيم يا صديقي، بالمناسبة ما اسمك؟

ـ أنا أدعى خالد وأنت؟

ـ إن كان لنا لقاء لاحقاً سأخبرك باسمي أما الآن فهيا اربط حزامك أظن أن الطائرة ستهبط.

بعد أن هبطت الطائرة ونزلنا سرعان ما اختفى ذلك الرجل، إذ لم أجده بأي مكان في المطار، كان هناك ياسر باستقبالي، احتضنته بشدة وقلت له إن جدتي توفيت وقد عدت تواً من الوطن، ووعدني أن يأتي ليزورني غداً في المنزل كي أخبره القليل عما رأيت في الوطن، ثم توجهت نحو التاكسي ليقلني إلى بياريتز. يا إلهي ما هذه الدنيا العجيبة! بالأمس في الوطن واليوم في فرنسا ومن ذا الذي يعلم غير الله أين سأكون غداً؟

وصلت إلى المنزل سريعاً كانت رنين مع لين على الشرفة بانتظاري دخلت المنزل بهدوء كأنني لأول مرة أدخله. عانقت لين وسلمت على رنين وثم جلست معهما أخبرهما عن رحلتي وعن ذلك الضابط الذي كان سبباً في تأخيري وفوّت عليّ فرصة لقاء جدتي، تعجبت رنين كثيراً وقالت لي مستحيل أن يعاملك ضابط إسرائيلي هكذا.

أمي تذهب كثيراً إلى فلسطين وحين تخرج لهم الجنسية الأميركية يدخلونها على الفور، سألتها إن كانت أمها أميركية فقالت لا فلسطينية كأبي هي لكنها تحمل الجنسية الأميركية وأنا أيضاً، لكنني قررت الابتعاد عنهم والرحيل إلى فرنسا، فقلت لها هذا احتلال يا رنين وإسرائيل لا تفرق بين عربي وأميركي صدقيني.

شعرت أنها لم تقتنع بهذا الكلام، فبعد كل ما رأته عبر وسائل الإعلام عن إنسانية إسرائيل ولطفها لن يستطيع شاب مثلي أن ينقل إليها الصورة الحقيقية عن مجريات الأمور. فقلت لها: «لا عليك، سيأتي يوم وسيرى العالم كله الحقيقة» فقالت لي: أعلم أننا شعب مظلوم ولكن الإعلام العربي يبالغ قليلاً في وصف الأحداث، فليس من المعقول أن تدمر غزة تماماً وليس من المعقول أن يباد فيها ما يزيد على ألفي شخص في خمسين يوماً، وليس من المعقول أن يشعل المواطنون الإسرائيليون النار في جثة الطفل محمد أبو خضير بهذه الطريقة التي وصفت في الإعلام.

«أتعنين أنك لا تصدقين قصة الضابط تلك؟»

ـ لا أعلم في الواقع أظنك تضخم الأمر قليلاً.

ـ شكراً يا رنين على تكذيبك لي، كان من الأولى أن تواسيني وليس أن تكذبيني.

ـ أوه، آسفة إن أغضبتك لكن هذا ما يقوله الجميع في أميركا وفرنسا وفي كل مكان .

ـ أهذا يعني أن تصدقيهم.

ـ هذا ما يقال في كل وسائل الإعلام بمعظم أنحاء العالم وليس من المعقول أنهم كلهم يكذبون.

ـ ووسائل الإعلام هذه لمن تخضع ومن يمولها ويدعمها ويضغط عليها؟

ـ الإعلام حر هنا وليس كما في الدول العربية.

ـ إسرائيل تقف خلف كل شبكات الإعلام يا رنين، على كل حال أنا متعب من السفر وأريد أن أرتاح. تستطيعين الرحيل. صدمت من رنين جداً دون أن ألومها لكن تعجبت من قلب الحقائق على هذا الشكل الشيطاني. أيعقل أن الفلسطيني هو الظالم وإسرائيل هي المسكينة التي كل همها أن تعيش بسلام؟ وكيف استطاعت إسرائيل السيطرة على شبكات الإعلام هذه كلها حتى استطاعت أن تقنع الفلسطيني نفسه أنه إرهابي؟ !.

احتضنت لين ونمت في جوارها أداعب خصل شعرها الذهبية وأفكر في كل ما يجري من حولي، أفكر في جدتي وبأمي والوطن والمحامي الذي أعطاني التراب وياسر ورنين والمسافر الغامض ولين التي ظهرت في حياتي دون سابق إنذار. كانت مخيلتي عاصفة بكل هذه الأفكار التي تحولت على حين غرة إلى صداع قوي يطرحني نائماً سبع عشرة ساعة.

وفي ظهيرة اليوم التالي، جاء ياسر طالباً مني أن أحدثه عما رأيت

من جديد في الوطن، قلت له: «حسناً إذن اسمع: تعرضت للتوقيف من ضابط يهودي فوت عليَّ فرصة لقاء جدتي، هذا بداية وأريد أن أخبرك أن شوارع أبوديس رصفت وعبدت أخيراً وهناك حالة انفتاح بشكل كبير على بقية المدن بفضل الجامعة، ولا تقلق، ما زال الناس طيبين على سجيتهم، أهل بلدتنا لطيف طبعهم يا ياسر وسيسرون جداً لو علموا أنك ما زلت حياً، أنا أتعجب لم لا تدعني أمهد لهم ذلك الخبر؟

ـ لا يا خالد، دعك مني، حدثني المزيد عن أبوديس.

ـ أبو أحمد ذلك الرجل الذي عهدنا أنه فقير أمسى يملك معظم عمارات أبوديس الاستثمارية، ومعسكر الاحتلال ما زال مكانه في الجبل وكل يوم هناك تظاهرة احتجاج على أفعالهم الشائنة بحق مقدساتنا.

ـ ليس هذا ما أريدك أن تحدثني عنه يا خالد، قل لي أي شيء عن خلود.

ـ خلود؟؟ في الواقع زارتني كي تسلم عليّ وتواسيني وعلى ما يبدو إنها كانت حاملاً يا صديقي.

ـ حامل؟؟ هي متزوجة إذن؟

ـ نعم، تزوجت منذ ثمانية أشهر.

ـ لكنني أحبها، كيف لها أن تفعل ذلك؟

ـ أنت ميت يا ياسر في قاموس القرية، ولا وجود لك، كان من الأجدر أن تخبر خلود بأنك ما زلت حياً، كانت تذكرك دوماً أمامي

سابقاً وتبكي لموتك، وأنت هنا في المطار تداعب القدر وتقتلها كل ليلة.

عليك أن تدفع ضريبة بقائك حياً يا صديقي، وأظن أن زواج خلود هو الضريبة، أعلم أنها ضربة قاسية أن يمسي حب كان لك لغيرك، لكن أعانك الله ادع لها بالخير، فهي امرأة متزوجة الآن وستصبح أماً لطفل ولا يمكنك أن تلومها على فعل اقترفته أنت أساساً، انسها يا ياسر وصدقني أنك ستحب وتحيا وترقص من جديد.

ـ ومن قال هذا؟

ـ لا أعلم، لكن انتظر سأهدي إليك شيئاً سرقته منكم أساساً، هذه قطعة خشبية من البيانو المهشم أخذتها لحظة وصولي إلى المطار، اقرأ ما عليها

ـ always remember you will live you will love and you will dance again.

ـ اعتبرها هدية مني لك وتذكر هذه العبارات جيداً وانتظر الحب مجدداً، فما من حب رحل إلّا ليحل محله أفضل منه.

ـ لكن قلبي ما زال يريد خلود.

ـ لا، قلبك لم يكن يريدها يوماً، أنت توهم نفسك أنك تريدها ومازلت ترغب فيها في جوارك وإلّا لما انتظرت ثماني سنين ولم تخبرها بأنك حي؟ أنت نسيتها مع لحظة شفائك من سرطان الوطن، لا ترجع جزءاً من السرطان إلى جسمك كي لا يتفشى فيك من جديد

يا ياسر، كن وفياً لها هذه المرة ولا تقلب كيان حياتها من جديد، وكما قلت لك إن كنت تحبها فادع لها بالسعادة.

ـ ومن الذي تزوجها؟

ـ ياسين الرامي.

ـ عرفت بأنه هو فقد كان يحبها حباً جماً وأظنه سيسعدها.

ـ إذن أنت تعلم بأنها ستكون بخير معه، لذلك دعك منهما الآن وادع لهما بالسعادة فقط، ياسر جاء دورك لتحيا، إلى متى ستبقى مختبئاً في ظل الموت؟

ـ لا أعلم إن كنت حقاً حياً أو ميتاً معلقاً بين سماء الحياة وبطن الموت، على كل حال دع الأمر للزمن، أظنني سأعود يوماً ما إلى أبوديس ربما السنة القادمة أو التي تليها لا أعلم، عليّ الذهاب الآن أراك في وقت لاحق خالد.

مؤلم حالك يا صديقي، كيف لك أن تصبر أكثر؟ كثيراً ما كنت أحسدك على برودك هذا وعدم اهتمامك بأي شيء، لكنني كدت أبكي لما سمعته مني قبل قليل، أرجو الله أن يهدي إليك الحب الذي تستحق وأن يعوضك عن سني الموت تلك التي قاسيتها وحدك في الغربة دون أي صديق أو قريب.

أمضيت طوال اليوم أفكر في معهد البيانو والرجوع إليه أم لا، تلك الهواية التي عشقت أن أمتلكها يوماً ما، توثب أمامي خياران إما أن أمضي بقية حياتي بلا هوية عازفاً أو كاتباً حداداً على جدتي وعلى

وطني المسلوب، وإما أخرج من تحت الركام جبلاً معروف الهوية لا يمكن تجاهله، وبالخيار الثاني فقط وبعد النجاح ستخاطب جدتي الله بفخر قائلة هذا هو حفيدي. اتخذت القرار الثاني بالطبع وتوجهت صبيحة اليوم التالي إلى المعهد، كان في داخلي طاقة لم أشعر بها من قبل، وكأنني خلقت كي تداعب أناملي البيانو والقلم، وهناك التقيت رنين ولم تكن لي رغبة أن أتكلم معها بعدما كذبتني وتجاهلت مأساتي التي هي مأساتها في الأصل بحجة أن الإعلام لا يكذب.

اقتربت مني أكثر فأكثر وقالت: «أراك في المعهد يا خالد لم لا تتقيد بالإعلام العربي وتعلن مأساتك على كل ملاهي الدنيا حداداً؟» فخاطبتها «الحداد في القلب يا رنين وليس على الجميع رؤية مأساتي كي يقولوا مسكين هذا الرجل ولا يدري ماذا يفعل، بعكسك أنت التي تريدين التخلي عن العزف بسبب طول أظفارك وهنا يكمن الفرق بيني وبينك يا آنسة، أتعلمين؟ لا عليك ارحلي فقط».

لا أعلم ما الذي غير رنين تجاهي فأصبحت تحادثني وكأنني محض كاذب وهذا ما اضطرني إلى طلب الرحيل منها، ومن ثم تابعت مراراً وتكراراً العزف على البيانو طوال شهر إلى أن أتقنته تماماً، وفي الشهر نفسه لم يكن بيني وبين رنين سوى رد السلام احتراماً لما كان بيننا من صداقة قوية أو حب قوي. في الواقع لا أعلم ماذا كانت علاقتي برنين إلى الآن ومع ذلك بقيت تأخذ لين إلى منزلها كل يومين.

جاءتني لين ذات ليلة قائلة: «رنين سقطت عن الدرج وهي تنزف

ولا يوجد أحد يساعدها فهرعت صوب منزلها. كانت ملقاة على الأرض والدم ينزف من رأسها بغزارة فحملتها سريعاً وأخذتها إلى المستشفى، كان وضعها حرجاً جداً وبعد ساعتين ونصف الساعة خرج الطبيب من غرفة العمليات قائلاً « لقد أصبحت في وضع جيد الآن تستطيعون الدخول».

هرعت نحو الغرفة فرحاً جداً أقبل رأسها، حمداً لله على سلامتك يا رنين، أنا متأسف إذا ما أغضبتك يوماً، أرجوك أن تسامحيني. بقي وجهها على حاله عابساً وكأنها لا ترغب في وجودي، قالت لها لين: «خالد هو من أحضرك إلى هنا، تمنيت لو رأيته حينما أخبرته بالحادثة وحينما كان ينتظر الطبيب وهو يجري لك العملية، كان يبكي كالأطفال يا رنين هيا سامحيه». فابتسمت رنين وأمسكت بذراعي قائلة وأنا أيضاً متأسفة يا خالد.

وقالت لين: «حسناً إذن بعدما تصالحتما أخيراً قل لي متى ستكمل لنا قصة ياسمين وجوزيف؟»، سأكملها مساء اليوم حين تخرج رنين من المستشفى وسأخبرها لكما في المطعم الذي تعمل فيه رنين، سنتناول العشاء ثم نتابع القصة موافقتان؟ «حسناً موافقتان أليس كذلك يا رنين؟»

ـ بالطبع موافقة.

طلبت من رنين أن تبيت في منزلي، وليلتئذ فتحت الحاسوب على أخبار فلسطين عمداً بقربها، كان يتحدث المذيع وهو يبكي عن

قتل مائتي شخص في غزة جراء القنابل العنقودية التي كانت تلقي بها طائرات الاحتلال، وقع نظر رنين على مشاهد لأشلاء الأطفال الملقاة على الأرض، كان المشهد مروعاً جداً، يد هنا ورجل هناك ورأس دمية إلى جنبه رأس طفل أيضاً وكل ما في المنطقة كان مدمراً.

ـ أرأيت يا رنين؟ هذه هي الحقيقة.

ـ يا إلهي! ما هذا؟ إنني لم أر طوال عمري مشاهد كهذه على التلفاز، أقسم بأنني لم أكن أعلم ذلك.

ـ هذا مشهد بسيط جداً مما يحدث. ستدمع عيناك إن رأيت أطفالاً في شهورهم الأولى والرصاص يخترق أجسادهم، هل سمعت يوماً عن إيمان حجو التي تلقت رصاصة في بطنها واستشهدت؟ عمرها لم يتجاوز الأشهر فهل هذه الطفلة إرهابية؟

ـ لا أجد أي كلام يا خالد، صدقني أشعر بالاختناق، أرجوك أطفئ الحاسوب.

شعرت بأن القناع المخادع للإعلام بدأ ينجلي عن ناظري رنين، لقد صدقتني وبكت جراء تلك المشاهد كما لم تبك من قبل، سرقها النوم سريعاً تلك الليلة. وفي ظهيرة اليوم التالي جاءت لين تتوسل كي أكمل لهما القصة، ذهبنا إلى المطعم ثلاثتنا في تمام السابعة مساء، كان كعادته مكتظاً بالزبائن وكانت في جوارنا إلى الطاولة امرأة تجلس وحيدة تداعب خصل شعرها، ورغم أنها تفوقني سناً إلّا أنني لم أجد مثيلاً بجمالها بأي أنثى مضت.

لا أعلم ما الذي شدني إليها وجعلني لا أزيح ناظري عنها، قالت لي رنين ممتلئة بالغيرة: اذهب وكلمها إن أردت، فأجبتها قائلاً: لا تفهمي الموضوع بالطريقة الخاطئة، كل ما في الأمر أن بها شيئاً لافتاً لا أعلم ما هو، دعينا منها سأكمل لكما القصة إلى أين وصلنا؟ نعم تذكرت «مضت ليلتهما هذه بسرعة فائقة لشدة جمالها، لا شك أنها كانت أسعد لحظات حياتهما، شعر جوزيف أخيراً بأنه وجد من يعوضه عن خطيبته المتوفاة، وجد بها ملجأه العاطفي وسعادته فضلاً عن الحب والحياة. في نهاية الليلة أخبرته بأنها ستعود الخميس إلى بلدتها بعض الوقت كي ترى أهلها ومن ثم تعود، وأنها تعزم على إقامة حفلة وداع لها وطلبت منه أن يحضر فقال لها رغم أنني سأشتاق إليك جداً بعد الرحيل، إلّا أنه لا مفر من رؤيتك لأهلك، سأكون أول الحاضرين ياسمين، وأعدك أنها ستكون أجمل ليلة في حياتك، أما الآن فعلينا أن نرحل فالساعة أصبحت الثالثة فجراً وعليّ أن أستيقظ باكراً كي أفتح المطعم، ما رأيك أن تبيتي الليلة في منزلي؟

ـ لا، أرجو أن توصلني إلى منزلي وحسب.

ـ حسناً كما تشائين.

ـ بالمناسبة، لا أظن أنني سأراك غداً لأنني سأكون مشغولة بشراء بعض الهدايا لأهلي، هل أستطيع محادثتك عبر الهاتف؟

ـ نعم طبعاً، سنبقى على تواصل غداً.

وعلى حين غفلة، وقبل أن تترجل ياسمين من السيارة، سرق منها

قبلة ثم ودعها وذهب إلى بيته شارد الذهن مختل القوى. كل ما يشغل باله ياسمين ورحيلها بعد غد، وكما سرق القبلة من ياسمين سرق النوم ياسمين منه سريعاً ونام.

في صباح اليوم التالي استيقظ على هاتف من فتاة تقول له «جوزيف احذر أن تعود ياسمين إلى خطيبها السابق فهي ما زالت تحبه ولم يتغير في قلبها شيء تجاهه»، فصرخ بها قائلاً: «من أنت؟» قالت: «أنا مجرد فاعلة خير وأريد....». لم يتحمل أن يسمع منها أكثر فأقفل سماعة الهاتف ولم يرغب بأن يعكر صفو مزاج ياسمين لئلا يثير حزنها في آخر أيامها هنا في بياريتز ثم طلب من كاثرين أن تحضر إلى منزله.

كاثرين، أستاذة علم النفس المتميزة في جامعة السوربون وعرابة جوزيف ومستشارته بكل شيء، أراد أن يحدثها قليلاً عن ياسمين، وحين قدمت أخبرها بكل شيء، كيف التقاها وكيف أحبها وأنها سترحل اليوم إلى وطنها وأنه يريد أن يهدي إليها شيئاً ما فقالت له: «جوزيف صديقي بداية لقد فرحت جداً أنك أخيراً أزلت عن وجهك قناع التعاسة الذي ألبستك إياه ذكرياتك القديمة، لكن إياك أن تبحر كثيراً في الحب فيأخذك موجه بعيداً جداً إلى مكان لا تستطيع احتماله، عليك أن تكون حذراً فالحب يأتينا دوماً بفرصتين وفرصتك الأولى قد استنفدتها، فإياك أن تستنفد الثانية أيضاً، لا تقع كثيراً في الحب ولا تبعد حد الجفاف، كل ما أريد أن أقوله لك كن حذراً يا صديقي، أما بالنسبة إلى الهدية فما رأيك بخاتم من اختياري؟».

ـ وهل هناك ذوق يفوق ذوقك كاثرين؟ هيا بنا.

اختارا الخاتم ثم ذهب وكاثرين إلى المطعم كي يستريحا قليلاً.

ـ كاثرين، ماذا تريدين أن تشربي؟

ـ القهوة الحرام.

ـ ههه، مجدداً؟؟ أما زلت تذكرينها؟

ـ وهل للذكريات الجميلة أن تنسى؟ جوزيف أتذكر حينما التقيتك أول مرة؟

ـ نعم بالطبع، كان هذا قبل خمسة عشر عاماً، حين كنت قادماً من ستراسبورغ إلى بوردو والتقيتك هناك، كان عمري خمسة وعشرين عاماً ولم أكن أملك أي مبلغ من المال، التقيتك في القطار وكنت تطالعين رواية لوليتا على ما أذكر فأخذت أقرأها معك خلسة إلى أن انتبهت لي.

أظنك حينئذ ابتسمت وقرأت بصوت عال عليّ بعضاً من أجزاء هذه الرواية، طلبت منك أن تساعديني للعثور على منزل في بوردو بثمن زهيد سأعطيه للمالك بعد شهر من إقامتي ريثما أعمل قليلاً في أحد الأماكن، عرضت عليّ أن أستأجر منزل أخيك المهاجر، كانت علاقتي بك رسمية جداً حتى بعد أن سددت لك المبلغ وغيرت وجهتي نحو بياريتز هروباً من الفقر، صدمت كثيراً حينما رأيتك تقطنين في منزل جوار مطعمي الذي افتتحته بعد أن أرسل لي والدي القليل من المال كي أفتتح مشروعاً ما إلى أن أصبح من أفخم المطاعم في

المنطقة، أصبحت بعد ذلك كل صباح تأتين لتطالعي بعض الكتب وتشربي القهوة، القهوة الحرام وها أنت أمامي الآن بعد خمسة عشر عاماً وما زلت صديقتي الرائعة كما كنت.

على أية حال سأعد لك القهوة الحرام انتظريني قليلاً، بعد خمس دقائق عاد ومعه القهوة يسأل كاثرين عن رأيها فيما يلبس غداً لحفلة الوداع، فقالت له «ارتد البزة نفسها التي لبستها يوم خطبتك، هي الأجمل وحان الموعد كي تزيل عن هذه البذلة بقايا الذكريات العالقة بها».

اختاري لي غير هذه البذلة رجاء، فلا أريد أن تضيع عني ريح هيلينا أيضاً.

ـ جوزيف، الذكريات مكانها القلب فقط، هو جوفها وملاذها الآمن الذي سيحفظها لك ما حييت، لا تعلق هيلين بعطر أو ببذلة، بل اغسل عنها كل الذكريات وغير عطرك الذي أحبته يوماً ما، وأبق ذكراها داخل قلبك ولا تقلق فستكون في قبرها سعيدة إن حييت أنت، لا أظنها ستحزن وهي تحت ترابها إن رأتك فرحاً ومتزوجاً وعندك من الأطفال ما يكفي لفتح حضانة، هي لا تريد لك الحزن فلِمَ تريده لنفسك أنت! ولا تذكر هيلينا أمام ياسمين لأنها ستفور غضباً، اسألني أنا عن أمور الفتيات هذه يا صديقي.

ـ سأفكر في الموضوع يا كاثرين، وممكن أن ألبسها وشكراً لك على نصيحتك، ما رأيك أن نكلم ياسمين عبر الهاتف كي تتعرفي إليها؟

ـ موافقة، لكن أنا من سيبدأ الحديث أعطني الرقم.

ـ حسناً، هاك هو اطلبيها.

ـ أوه أهلاً جوزيف أنا الآن في المنزل.

ـ أهلاً ياسمين، أنا كاثرين ولست جوزيف.

ـ كاثرين! من كاثرين؟

ـ أنا صديقة جوزيف المقربة، من الغريب أنه لم يحدثك عني من قبل.

ـ هل هناك شيء ما جرى لجوزيف؟ أرجوك أخبريني.

لا يا عزيزتي لا تقلقي ها هو في جواري، لكنني طلبت منه أن أكلمك وأتعرف إليك يا صديقتي، أظن أننا سنصبح أصدقاء بعد أن تتزوجي أليس كذلك؟ رددت ياسمين بخجل.

ـ أظن ذلك فكل أصدقاء جوزيف هم أصدقائي. . .

حسناً إذن يا رنين سيغلق المطعم الآن، سنتابع ما تبقى من القصة غداً في الموعد نفسه، أما الآن فعلى كل منا الرحيل إلى منزله. قبل أن نخرج من المطعم وقع نظري على تلك المرأة التي كانت تصرخ عبر الهاتف بصوت عال «jasmine»، هرعت رنين نحوها تسألها «هل من خطب يا آنسة؟» فردت والابتسامة ترتسم على شفتيها لا، لا عزيزتي شكراً» ثم رحلنا إلى المنزل على أمل اللقاء في الموعد نفسه غداً، قررت أن أهاتف ياسر كي أطمئن إلى حالته، كان صوته متعباً جداً والحزن يعلو كلمته، مسكين هو، فبعد الحب الأحمق البعيد لخلود

سمع مني أنها تزوجت، وهي حامل الآن فمن الصعب أن تفقد شيئاً هو في الأساس ملكك. لم أجد أي طريقة كي أواسي ياسر، قلبه لا يريد مواساتي، قلبه يريد خلود ولا شيء سواها.

طلبت منه أن يحاول النوم وتذرعت بأن عليّ أن أذهب كي أجهز السرير للين، كانت الساعة الثانية عشرة بعد منتصف الليل حين أطفأت بياريتز علي الأضواء قسراً وخلدت إلى النوم.

أشرقت الشمس على قلبي بفضل هاتف من ياسر من جديد، يقول لي إنه سيعود إلى الوطن أخيراً فلم يعد يطيق صبراً أن يبقى ميتاً على رف ذكريات القرية، لم يكن صوته عبر الهاتف منهاراً أو حزيناً، بل بدا لي متفائلاً وقوياً، قال إنه يريد أن يمكث في الوطن شهراً كاملاً ومن ثم سيقرر إذا ما كان سيبقى في القرية أم يعود إلى فرنسا.

طلبت منه أن يزورني الليلة كي أخبره بلجوئي العاطفي الذي أهداه إلي، كانت الساعة التاسعة حين انتهيت من مكالمته عبر الهاتف، أيقظت لين كي تذهب معي إلى المعهد لنتابع دروس البيانو التي وصلت بها إلى مراحل متقدمة أخيراً وبات النشاز يبتعد أكثر فأكثر عن أناملي، كانت رنين في المكان نفسه حين وصلنا تعزف على البيانو، فكانت صدمتي وفرحتي في الوقت نفسه، فأخيراً قررت أن تعود إلى العزف حتى لو تطلب منها الأمر قص أظفارها.

ركضت نحوها مبتسماً «أخيراً فعلتها يا رنين، ما السبب وراء ذلك؟» فأجابت بأنها ستتحدى الإعلام بالفن الناعم وستصدر من آلتها

تلك كل معاني الإنسانية وستنمي نفسها كي تشتهر وتجمع التبرعات لفلسطين، تعجبت أكثر فأكثر منها، فبالأمس القريب لم تصدقني حين أخبرتها بما يجري من ظلم في أرضنا، بل قالت إن اسرائيل دولة تعاملنا بفائق الاحترام، وحين سألتها عن السبب الذي غير رأيها قالت «بالأمس زارتني صديقاتي في وقت متأخر من الليل، كنّ في فلسطين وأخبرنني بعض الأشياء التي كادت تبكيني، أرجوك حدثني عن وطني يا خالد وأتمنى عليك أن تظهر لي صورة الحقيقة، حدثني عن الضحايا الأوروبيين قبل الفلسطينيين حدثني عن رايتشل كوري وعن توم هرندل، حدثني عن محمد أبو خضير وعن ضحايا غزة وعن كنيسة القيامة والمسجد الأقصى» سعدت جداً حين طلبت مني أن أخبرها الحقيقة. كان قد تبقى على وصول الموسيقار طوني إلى المعهد ساعة واحدة فباشرت بالحديث قائلاً «رايتشل كوري كانت فتاة مثلك لا تعلم عين الحقيقة وتظن كما كنت تظنين أنت تماماً أن إسرائيل مسالمة وحين زارت فلسطين رأت المشاهد المريرة من قتل وهدم وظلم واعتقال فقتلت بدم بارد دهساً بالجرافة ذهاباً وإياباً في رفح وتذرع الاسرائيليون بأنهم لم يروها وانتهى أمرها سريعاً ولم تستطع أن تعود بروحها كي تخبر أصدقاءها الحقيقة. عادت بجسدها فقط.

وتوم هرندل قتل عمداً من قبل جندي وهو يدافع عن أطفال صغار وسط إطلاق نار كثيف ولم يحرك العالم ساكناً.

أما محمد أبو خضير الطفل الذي كان متوجهاً لصلاة الفجر في رمضان حيث بلغ الأذان ولم يبلغ المسجد فقد كان بانتظاره قطيع من

المستوطنين اليهود فألقوا به بسيارتهم وتوجهوا إلى مشارف قريته وانهالوا عليه بالضرب ينهشون لحمه كالكلاب الضالة وليس هذا ما حدث له فقط بل أرغموه على شرب البنزين وأشعلوا النار به حياً.

هل يستطيع عقل بشري تصور هذا المشهد؟ هل تستطيعين تصور نظرة أمه إلى ابنها على شاشات التلفاز فحماً وليس بشراً؟ أتعلمين أنها رفضت رؤية جثته كي تحافظ على صورته القديمة في مخيلتها؟ أتعلمين كم مرة في اليوم يزورها طيفه ليلاً قائلاً لها: «أنا ذاهب لصلاة الفجر يا أمي وسأدعو لك»!!

ـ نحن مكروهون يا رنين وكل العالم يتعمد تجاهلنا لماذا؟ لا أعرف لكن ألم نكن أطفالاً مثلهم يوماً وبشراً نضحك ونبكي ونفرح ونحزن؟ هل للإنسانية شروط كي تكون إنساناً؟ لهذه الأسباب يتغاضى الإعلام عن حقيقتنا ويريد أن يبقي على صورتنا كإرهابيين راسخة في جميع العقول، أنت نفسك يا رنين قولي لي كم مرة شعرت بالاحتقار أو بالاهانة حين يعلم أحد أنك عربية؟ لين نفسها حين علمت أنني عربي خافت وارتبكت وقالت لي إنهم يخافون منا».

ـ غير الموضوع فقد جاء الموسيقار إنه من أشد الحاقدين على العرب.

ـ ظننته يحبك ويحترمك.

ـ يتظاهر بذلك، توخ الحذر منه وإياك أن تتكلم بمثل هذا الكلام أمامه، أوه حسناً إذن يا خالد متى ستكمل لنا القصة؟.

أقبل نحونا الأستاذ طوني قائلاً: «المعهد مكان للعزف وليس القصص، هيا أمامنا اليوم عمل كبير نقوم به فقد قررت وزارة الثقافة أن تستضيف في هذا المعهد مسابقة لعزف البيانو من شتى أنحاء العالم مطلع الشهر القادم، ولهذا سأقرر إما أن أختارك أنت يا رنين وإما أختار خالد حيث أرى أنكما أفضل اثنين عندي في المعهد، واحد منكما سيمثلنا». بدأنا نعزف كل منا على مقطوعة مختلفة وتلاعب مختلف بالألحان، كنت أفوق رنين كثيراً بالعزف على هذه الآلة ما جعل طوني يختارني أنا، وفي نهاية الدرس قلت لرنين إن هناك صديقاً أود استضافته غداً في منزلي وأود أن أعرفك به، فقالت لا مانع لدي من ذلك.

خرجنا كي نمشي قليلاً في شوارع باريس ثلاثتنا. كانت هذه الليلة صاخبة كعادتها في كل ليلة رأس السنة، كان الهواء الباريسي محملاً للمرة الأولى برائحة النرجس المزروع في الممرات، هذه الريح التي إذا ما شممتها أصاب بهوس الحب والحسرة على عدم تملكي حبيباً يشاطرني الحياة.

كانت هذه المرة مختلفة تماماً، فالحب ها هو أمام عيني ويسير في جواري يحدثني ويشرب معي بعض العصير، ها هو الحب مرتدٍ معطف فرو طويلاً يداعبه المطر. قررت في هذه اللحظات أن أعترف للحب بحبي له وكل ما ناديته كي أخبره أقول له انس الأمر، دعنا نكمل الطريق ثم تمسكت بيد الحب وقلت له أحبك، فقالت لي كلمات لم

أفهمها بداية « أريدك قبل أن تعترف لي بحبك أن تتنبأ بالأرصاد الجوية وأن تكون على دراية بتقلبات المناخ، أريد منك أن تستشعر اقتراب المطر قبل أن يهطل مثلما تستشعر الحب، أريدك قبل أن يبرد الجو أن تهدي إلي معطفاً وإذا ما أمطرت تكون مظلتي»؛ لم أفهم مما قالته أي كلمة سوى أنها مصابة بالجنون أو ربما تريد تعقيدي أو.. أو...

ـ هل لك أن توضحي لي ما الذي تقصدينه بالتحديد؟

ـ أريد أن أسمع منك هذه الكلمة قبل أن تمطر بثوان قليلة.

ـ وكيف لي أن أعلم بذلك؟

ـ اتبع حدسك وستعرف، هذه الأيام معظمها ستكون ماطرة لذا استغل ذلك وبالمناسبة لن أقبل حبك إذا لم تنفذ لي شرطي.

ـ أي حدس هذا الذي سيجعلني أعلم بموعد هطل المطر بالتحديد؟ لا عليك أرجو منك أن تعطيني إيماءة أقله لأتشبث بحبك.

ـ لن أخبرك بأي شيء إلّا حينما تمطر وتكون قد نفذت شرطي.

أثارت رنين الغضب والفضول داخلي وأنا أحاول حل أحاجيها هذه وندمت قليلاً لأنني استعجلت الحب، وحين طلبت مني لين أن نذهب إلى المنزل صرخت في وجهها وكنت منفعلاً جداً لكن سرعان ما اعتذرت منها وأنا في البيت. هاتفت ياسر وقلت له أن لا ينسى موعدنا غداً ثم ذهبت إلى الفراش ووجدت تحت الوسادة حفنة التراب تلك التي أجبرتني على التفكر فيها وبسببها هي أيضاً طوال الليل، بدأت الألغاز تقتحم حياتي فما بين التراب والمطر قصتي كلها.

الفصل الثالث

وها قد أشرقت شمس السنة الجديدة، كل شيء فيها كسابقاتها لكن على غير عادتها لم تمطر ولم تثلج حتى الآن، لم يستدع صوتك الرقيق مطراً قليلاً كرهاً لك فيه فأنت ممن لا يحبون أنصاف الأشياء، تريدين ثلجاً ولا شيء سوى الثلج، تريدين مني عشقاً كاملاً دون أن أتفوه بأي كلمة، أقسمت حينذاك والكذب بارز في عينيك أنك ستغدقين عليّ بالحب إذا ما أثلجت هذه الليلة، لم يخطر ببالي ولو للحظة أنك كنت من خلفي تتقربين للرب بدعواتك كي لا تشتم الأرض رائحة الثلج وكي لا آتي أنا، مخادعة بامتياز، تريدينني وتتوسلين إلى القدر بأن لا يرميني قربك هذه الليلة، مجنونة تتوددين إلي بسرير مخيلتك وتبعدين كل البعد إذا ما اقترب خيالك أن يتجسد واقعاً، كل شيء ليلتئذ كان مبهماً، كنت تجيدين التلميح كثيراً يا أنت حتى جعلت ما ينطق به لساني ملامح كلام، والمطر الخجول الذي أخذ بالنزول الآن ملامح مطر.

بعد انقضاء سريع للساعات حضر ياسر إلى منزلي في تمام السابعة مساء كانت هذه هي الليلة الأخيرة له في فرنسا فسيعود إلى الوطن غداً

ولا يعلم كم سيقضي في رحابه، وما زلت رغم فرحي بقراره العودة حياً كما كان قبل ثمان سنين.

لا أعلم ما هو السبب لهذا القرار السريع، كان يبدو عليه الفرح والنشوة بل كان في قمة ثمله دون أن يشرب أي شيء وكانت رنين في هذه الأثناء في طريقها إلى منزلي، ولين ملقاة في حضن ياسر يلاعبها وأنا جالس قرب المدفأة أفكر في المطر لا أعلم إن كنت أفكر فيه فقط أم أنتظره بفارغ الصبر، أأنتظر المطر أم أنتظر موعداً غرامياً أم أنتظر الحب الذي لمحته بطرف عيني من النافذة يقرع جرس منزلي؟

توجهت لفتح الباب وبعد أن دخلت رنين قلت لياسر: «هذه هي نتيجة بطاقتك يا صديقي» فبدا على وجه رنين التعجب.

ـ عن أي بطاقة تتحدثون؟

ـ سأخبرك قبل أن تمطر بخمس ثوان يا رنين.

ـ هه، إذن تتبع أسلوبي في المراوغة!

ـ نعم أتبع أسلوبك في المراوغة، بالمناسبة حدثت ياسر عنك كثيراً وقلت له إنك ستعدين له عشاء على طريقة الوطن.

ـ طبعاً سأفعل وها أنا سأدخل ولين إلى المطبخ نعد لكم العشاء.

حدثني ياسر عن خلود مجدداً وقال لي إنه يرغب في رؤيتها فربما تحن وتعود إليه وإن لزم الأمر فربما يخطفها من زوجها إذا أرادت هي ذلك.

ـ وجنينها؟

ـ سيكبر وسيعيش في فرنسا.

ـ ووالد الجنين؟

ـ لا أعلم.

ياسر، دعك من القصص الخيالية والأسطورة التي كلنا نحب سماعها، نحن في مجتمع شرقي يقتل الحب دوماً ويرجح عليه الزواج، لا تدع حبك الوهمي لها يدمر حياتك وحياتها أيضاً.

ـ ليس وهمياً.

ـ بل هو كذلك، أنت توهم نفسك بأنك تحبها، استطعت العيش بدونها ثماني سنوات وحين علمت أنها تزوجت أصبحت تود العودة إليها، أنت كنت واضعها على رف الاحتمالات فقط. كنت تود أن تبقى كما هي لا متزوجة ودون عشيق ريثما تفكر حضرتك وتعود إليها من قبرك الوهمي من جديد، كفاك حماقة يا أخي أنت الآن توجه عينيك إلى امرأة متزوجة أتعي معنى ذلك؟ وربما تصطدم بها يوماً في الوطن لكنها لن تعرفك صدقني، لن تعرفك كما كنت أنا حين كنت أذهب إلى باريس مراراً وأسلم عليك دون علمي أنك ياسر.

ـ لا أعلم، أنا مرتبك قليلاً.

أقبلت رنين نحونا والصمت سائد بيننا حاملة معها طبقين مغطيين وضعتهما على الطاولة ولين خلفها تحمل بعض الأرغفة ثم قالت ها هو العشاء، رفعت الأغطية عن الطبقين، كان في أحدهما زيت وفي الطبق الآخر زعتر.

ـ زيت وزعتر يا رنين؟

ـ نعم زيت وزعتر فأنا أحبه جداً رغم بساطته، يكفي أنه من رائحة بلادنا أليس كذلك يا ياسر؟

ـ نعم إنه كذلك،آخر مرة أكلت فيها الزعتر قبل ثمان سنين، أتعلم يا خالد؟ هذا سيكون أفضل عشاء تناولته في فرنسا.

تناولنا العشاء ثم بدأ الجو بالاختلاف. كان ضوء القمر يسطع من بين الغيوم الكثيفة فهمست في أذن رنين «أحبك»، ضحكت ثم قالت لا تتعجل فهذه الغيوم التي تداعبك لن تمطر الآن، أصبت بإحباط شديد حين توسلت إلى السماء أن تقذف ولو قطرة ماء واحدة ليسجل لحبنا شهادة ميلاد دون أن تفعل، انتزعني من شرودي صديقي قائلاً بأنه سيرحل الآن ثم همس في أذني قائلاً: «هذه الفتاة تحبك».

احتضنته بشدة أتبعتها بدمعة ذرفت على كتفه فقال لي: «شو مالك يا زلمة تخافش أكيد رح نرجع نوكل زيت وزعتر مع بعض» يا ليته فهم أن الزيت والزعتر آخر ما قد أفكر فيه وأن مشكلتي تكمن في المطر، طلبت منه أن يكلمني حين يصل إلى الوطن كي يطمئنني عنه.

شعرت حين خرج من الباب بأن الوطن يتلخص به أو هو يتلخص بالوطن، فالمعاناة والسرطان الوهمي والحب من طرف واحد والغياب والموت أعراض وطن تعيس، أو أعراض صديقي الميت الحي، ثم ذهب الشق الآخر من الوطن إلى بيته بعد أن وعدته بإكمال القصة غداً لا محالة في المطعم فبقيت أنا في المنزل وحدي وفي جواري لين.

هاتفني طوني الموسيقار قائلاً إن موعد المسابقة قد تغير وأصبح نهار الغد في تمام العاشرة صباحاً، لم أنم طوال الليل وأنا أتدرب على البيانو.

ثم توجهت مع لين ورنين نحو المعهد، كان هناك خمسة عشر متسابقاً وكنت أنا صاحب الرقم أربعة عشر، كان الكل يعزف ببراعة وسلاسة مذهلة وحين جاء دوري جلست على المقعد، كنت مشتتاً جداً وخيل إلي بأنني لا أعرف حتى كيف أعزف، مل جميع الجالسين بداية، والكل كان يصرخ بوجهي وأنا مرتعش مرتبك ولا علم لدي بما أفعل، صرخ الموسيقار بوجهي «هيا فلتبدأ» تمالكت نفسي وبدأت أداعب الأزرار بأناملي دون أن أعرف ما الذي أعزفه بالتحديد.

بدا على وجه الحضور ارتياح شديد ورغبة في سماع المزيد، صفق لي كل من في القاعة بحرارة، وسألتني لجنة الحكام عن اسم هذه المعزوفة فهم لم يسمعوها من قبل، فقلت لهم إنه أنا من ابتدع المعزوفة وسأسميها «ستمطر» وربحت بفضل هذه المعزوفة المركز الثاني في الحفلة.

ذهبنا ثلاثتنا للاحتفال في المطعم وإكمال القصة، كان الصمت مخيماً بيننا فقاطعته رنين ونحن بالتاكسي مرددة «لم أسميتها ستمطر؟» فقلت لها: «ربما لأنني أصبحت أقدس المطر».

ـ ماذا تعني؟

ـ مع كل قطرة مطر تصيب عينيك، هناك أمل يصبو نحوك يهب

لك الحياة من جديد، وحده المطر الذي لا يطلب منك أن تنظري إليه هو الوحيد الذي سترينه حتى لو أغلقت عينيك، تشعرين به مصطحباً معه الرياح تداعب وجهك بصفعات خفيفة، المطر هو الحب لن تريه إلّا إذا أغلقت عينيك، هو السعادة تهب لك دموعاً وهمية فتبتسمين لها، وهذا ما جرى معي حينما كنت أعزف، شعرت به وأنا مغلق عيني فقدسته بمعزوفة سريعة.

دخلنا المطعم وبدأت أكمل لهم بقية ما كتبت «عمل جوزيف بنصيحة كاثرين وارتدى ما طلبته منه، كانت ياسمين في هذه الأثناء واقفة أمام خزانتها حائرة فيم تلبس، قررت أخيراً أن ترتدي فستان الدانتيل الأحمر خاصتها، ووضعت قليلاً من أحمر الشفاه وتركت شعرها الطويل ينساب كما هو متموجاً على ظهرها، فاقت بمظهرها هذا كل ما قد يتوقعه جوزيف واستقبلت في الحفلة استقبالاً ملكياً يليق بجمالها، ظنت حينئذ أن جوزيف سوف يكون أول الحضور إلّا أنها صدمت بوجود خطيبها السابق، اقترب منها بلطف وأخبرها بأن جوزيف لن يأتي فهو محتجز مع أصدقائه.

ـ ما الذي تفعله هنا؟ ماذا تريد مني؟ أخرج من حياتي واترك جوزيف وشأنه.

ـ ياسمين أنا أحبك وكل ما فعلته كان لأجلك، أيعقل أن تنسيني بهذه السرعة؟

ـ أنت الذي أوصلتنا إلى هذه النقطة.

ـ راقصيني ياسمين وأعدك بأن تكون هذه آخر مرة تريني فيها.

ـ لا، لن أفعل.

ـ هيا لا تحرجيني أمام الحضور، أعدك بأن أرحل.

أمسك بيدها وسحبها عنوة نحو حلبة الرقص، راقصها على أنغام هادئة وكان بريق عينيه يستحوذ عليها، وما إن انتهت الموسيقى حتى باشر بتقبيلها، تعنتت في البداية إلّا أنها عادت لتقبله هي الأخرى بدورها، دخل جوزيف القاعة في هذه الأثناء واجداً ياسمين تقبل ذلك الشاب أمام الجميع، ذهل من تصرفها هذا وانتابته الصدمة، بقي واقفاً صنماً كما هو في جوار الشمعدان، شعر بذل كبير وقرر مغادرة الحفلة، أدار ظهره بعد أن رأته ياسمين وشفتاها معلقتان بشفتي خطيبها، تلقت تلك الصفعة حين غادر الحفلة، هرعت خلفه تناديه تصرخ فيه، تبكيه تمزق فستانها بعد أن ارتطمت بالسياج، دميت، نادت، غادر طيفه وعادت بسرعة إلى الحفلة تصرخ بوجه الحضور «أوقفوا الموسيقى واخرجوا جميعاً، لا أريد أحداً هنا، وبعد أن خرجوا أطفأت كل الأضواء والشموع عدا شمعة واحدة، مزقت ما تبقى من فستانها ثم سقطت أرضاً على ركبتيها أمام الشمعة منهارة دون جوزيف ودون أي صديق يواسيها».

حسناً إذن، هذا كل ما أعرفه عن القصة، ما رأيك فيها يا رنين؟

ـ جميلة جداً وبالمناسبة أنا متأكدة أنك ستكملها يوماً ما.

اقتربت منا تلك المرأة أكثر فأكثر ألقت التحية علينا وبدأت تستفسر عن لين سائلة إيانا إذا هي ابنتنا؟ فقالت لها رنين نعم هي كذلك، بدا على وجهها الريبة ثم قالت لين لتلك المرأة: «لا إنهم أصدقائي». بدا عليها الخوف أكثر ثم رحلت، من هي تلك المرأة كي تسألنا أسئلة كهذه، وما شأنها بالأساس لكي تفعل ذلك، يبدو أنها أعجبت بجمال لين أو أنها تحاول الوصول إلي بطرق التفافية، فنظراتها تجاهي لا تفسر إلّا بالإعجاب. شردت بعيداً في تلك اللحظات ثم عدت إلى صحوتي على صوت رنين وهي تطلب مني أن أحاول إكمال القصة حتى ولو من مخيلتي، فأحداث كتلك لا تصلح لأن تكون رواية بقدر ما تصلح أن تكون أسطورة فوعدتها أن أحاول إكمالها.

تناولنا العشاء ثم خرجنا من المطعم ولم نكن نعلم بما ينتظرنا في الخارج. كانت الساعة العاشرة مساء حين استوقفتنا سيارة شرطة تطلب منا مرافقتهم. دار حوار بيني وبين الشرطي كي أعلم ما هو السبب فقال لي: هناك شكوى بخصوص جريمة اختطاف ضدك أنت وهذه الفتاة. ذهلت جداً من هول تلك الصدمة وحاولت أن أقنعه بأنني لم أختطفها لكن دون جدوى، فقد رفض أن يسمع أي كلمة مني، أجبرنا على أن ندخل السيارة عنوة وأخذنا إلى المركز حيث وضعني ورنين في غرفة ريثما يخرج الصباح كي يحققوا معنا ولا أعلم إلى أين أخذ لين. سألتني رنين إذ ذاك «أولم تأخذ إذناً من الشرطة كي ترعى لين طوال تلك الفترة؟» فقلت لها: لا.

ـ كيف أقدمت على فعل كهذا يا خالد؟ كان يجب أن تخبرهم بذلك.

ـ ظننت أن فعلاً طيباً كهذا سيشكرونني عليه وليس العكس، ثم إن هذا ما يحث عليه ديني، هل تقبلين أن تبقى فتاة عمرها خمس سنوات ملقاة في الشارع تحت المطر والثلوج دون أن ينظر إليها أحد؟

ـ حتى ولوكان ذلك، القانون يبقى قانوناً وها أنت ستعرضنا لمساءلة على جريمة اختطاف.

ـ لا نستطيع التملص منها أو تخفيفها؟

ـ لن نخرج قبل سنتين إن ثبت علينا ذلك.

يا للهول، أكلّ هذا لأنني اهتممت بطفلة صغيرة كان من الممكن أن أتركها وأنساها لحظة إخراج الحلوى من جيبي أول مرة؟ ما الذي أجبرني على أخذها، لكن ترى أين هي الآن؟ ومن الذي يسقيها الحليب هذه اللحظات؟

كان القلق والخوف يعتصران مخيلتي طوال الليلة، وفي الصباح جاءنا رجل يقودنا إلى غرف التحقيق. فوجئت هناك بوجود تلك المرأة التي كانت في المطعم واقفة إلى جانب المحقق وتقول لي: يا إرهابي أنت السبب في جعل والدها يجول العالم كله بحثاً عن ابنته، كيف لك قلب بأن تفعل هذا؟ أوه نسيت أنك عربي وبلا قلب فأنتم تفعلون هذا بنا دوماً، يا مجرمين تخطفون أطفالنا بغية الحصول على بعض المال، كان كلامها يجرح قلبي كالسكين ولم تتوان عن إهانتي وعروبتي، حتى

المحقق أصبح يناديني بكلمة «يا عربي» طلبت منهم رؤية لين فقالوا لي إنها مع والدها في الخارج ثم طلب مني المحقق أن أجلس على الكرسي.

ـ ما اسمك؟

ـ خالد.

ـ من أي بلد أنت؟

ـ فلسطين.

ـ بلد الإرهاب؟

ـ بل بلد السلام.

ـ كم عمرك؟

ـ ثلاثون.

ـ لم اختطفت تلك الفتاة؟

ـ لم أختطفها.

ـ كم كنت تريد من المال حين اختطفتها؟

ـ قلت لك إنني لم أختطفها.

ـ إذاً لم كانت معك طوال هذا الوقت؟ ما الذي كنت تقوم به؟

ـ عمل إنساني.

ـ أتعني إرهابياً؟

ـ قلت لك إنساني.

ـ نعم أعي ذلك، في ديانتك العمل الإنساني يعني عملاً إرهابياً.

ـ بل العكس.

ـ كيف ذلك؟

ـ دولكم تصنع الإرهاب وتبيدنا به ثم تصدر للعالم بأنها قامت بعمل للحفاظ على الإنسانية، أم نسيتم ما فعلتموه في أفغانستان والعراق والجزائر وتونس؟ أما نحن فإن أنقذنا رجلاً من عضة كلب تكاد تودي به، فقتلنا الكلب حفاظاً على حياة الرجل سيتصدر هذا الخبر كل صحفكم قائلين: «إرهابي عربي يقتل كلباً طيباً دون سبب» هكذا أنتم، ثم اذهب إن أردت واسأل لين كيف وصل خالد إليها.

ـ هل تطلب مني بأن آخذ شهادة من طفلة؟

ـ لن تعرف الحقيقة إلّا من تلك الطفلة.

ـ على كل حال يا أستاذ خالد لقد دخلنا منزلك لكننا لم نجد أي شيء لافت سوى كيس فيه تراب.

ـ وأين ذلك الكيس الآن؟

ـ إنه يخضع للتحليل حالياً.

ـ ومن الذي أعطاكم الإذن بالعبث به أريده فوراً.

ـ ولم أنت قلق من أجل تراب، هذا يعني شيئاً واحداً فقط، إنك تخطط لعمل إرهابي آخر.

ـ إياك وأن تنعتني بالإرهابي مرة أخرى وأريد التراب الآن.

ـ سأفكر في الموضوع وقد نرجعه إليك.

لن أنسى أنني خفت على التراب أكثر من أي شيء آخر، فهو

الوحيد الذي تبقى لي من ريح الوطن وأودعني إياه المحامي بعد أن قطعت عهداً على نفسي بألّا أفرط فيه، حتى التراب يجب أن يخضع للتحليل. لم أكن أعلم أننا خطرون إلى هذه الدرجة خارج بلادنا، ناديت رجلاً كان يحتسي قهوته خارج الزنزانة وينفث دخانه نحوي كي يستفزني وسألته إن كان يعلم شيئاً عن الفتاة التي كانت معي فقال لي إنها في الغرفة المجاورة يجري التحقيق معها.

شعرت بالذنب لكوني السبب في اعتقال رنين وقد تحرم من مستقبلها وتبقى في السجن سنتين لأجل فعلتي التي لم أكن أقصد من ورائها سوى حماية طفلة صغيرة، بقيت أسير ذهاباً وإياباً في الغرفة المظلمة كالمجنون وأنا أنتظر ذلك المحقق كي يعود، جاء بعد دقائق ومعه التراب.

كان يتقدم نحوي بابتسامة خبيثة كالتي كان يرمقني بها ذلك الضابط البولوني على الجسر. كان في نظراته شيء من التشابه جعلني أشعر أنني في سجن كنت فيه قبل ثلاثة أعوام بتهمة كانت محاولة قتل جندي، كان ذلك الجندي قد نزع عن امرأة حجابها وضربها أمام المارة في القدس دون أن يحرك أحد ساكناً فقمت بإبعاده عنها، وحكمت المحكمة عليّ في إثرها بالسجن سنة، كم من المشاهد تتكرر إذا ما كنت في غرف التحقيق؛ فكلها متشابهة مظلمة سوداء كمحققيها وملأى بالعيون رغم خلوها من أحد سواك، قال لي المحقق أتريد ترابك؟

ـ نعم.

ـ قل أولاً ما قصته؟

ـ إنه فلسطين وطني.

ـ إنه وطننا وليس وطنك، أقصد وطن الإسرائيليين.

ـ وطننا!! أنا ابتعدت عنكم لكي تتبعوني حتى هنا إلى فرنسا؟ في كل مكان أنتم؟

ـ كل العالم ملكنا وكل بقعة في الأرض وطننا.

ـ أنتم لا وطن لكم وسترحلون كما جئتم.

غضب المحقق وقام بنثر التراب على الأرض وقال هاك وطنك تحت قدمي، تجمعت الدموع حول عيني وكأنني رأيت الوطن يسقط مرة أخرى. تمالكت نفسي ثم بدأت ألملم التراب أو ما تبقى من وطن في المنفى، يا وطني لم أنت مكروه هكذا ولا يطيقون حتى ترابك، ما الذي فعلته كي ينثروك في غرفة تحقيق صغيرة ويدوسوك؟ قال لي المحقق: والد الطفلة يود رؤيتك فاستعد لتنال عقابك أيها المجرم العربي.

لم أعد أبالي أياً كان سيراني أو يحقق معي، لم أعد أهتم كم سأقضي في السجن وكم ستكون محكوميتي وماذا ستنشر الصحف الفرنسية عني، لم أعد أبالي بشيء، فياسر في الوطن ولين عادت إلى أهلها ورنين حاملة الجنسية الأميركية وأنا وحدي الفلسطيني في أرض الغربة.

سمعت صوت أمي داخلي حين ودعتني وهي تقول: «روح يما الله يرضى عليك ويبعتلك ولاد الحلال اللي يوقفوا معك، يما الغربة

صعبة وثكيلة بس فيها ولاد حلال يما اتخافش وتوكل على الله» والنعم بالله يا أمي، لم يمض أكثر من خمس دقائق حتى أتى والد لين وحده دون المحقق، أيعقل هذا! إنه هو، ما زلت أذكر بسمته الأنيقة وبزته السوداء قلت له بتعجب:

ـ أنت والدها؟؟

ـ خالد؟؟

ـ يا سيدي أنت تعلم أنني لم أخطفها.

ـ أعلم ذلك لا تقلق، سأتنازل عن المحضر وستخرج الآن يا صديقي، هل كانوا سيئي المعاملة معك؟

ـ لا، كانوا سيئي المعاملة مع الوطن فقط.

ـ التراب؟

ـ لقد نثروه على الأرض ولملمت ما بقي منه.

ـ أنا حقاً متأسف، انتظرني قليلاً هنا.

«توكل على الله يما» والنعم بالله «يما»

أي عالم صغير هذا يا أمي الذي جعل ذلك الرجل الذي التقيته في الطائرة والداً للين! أي مكافأة سماوية حصلت عليها يا أمي!.

ها أنا إذن خارج السجن ورنين ولين والوالد وتلك المرأة إلى جانبي، وقد اعتذرت لي على كلامها القاسي الذي قالته بحقي ثم تابعت «لولا ياسمين لما اكترثت لكنها ابنة صديقي الغالي الذي فقدها منذ سنة ونصف السنة».

ـ ياسمين!، اسمها ياسمين إذاً.

ـ نعم هذا صحيح.

احتضنها والدها بشدة ثم قال: «هيا سنذهب إلى مطعمي القديم وسنتناول العشاء هناك».

ـ أنت تملك مطعماً يا سيد؟

ـ نعم في بياريتز.

ـ رغم أنني أفضل مطعماً واحداً فقط في بياريتز لكنني لن أرفض ضيافتك.

كنا جميعاً في سيارته الفخمة وكل منا وجد ما يفقد، أنا وجدت رنين وياسمين وجدت أباها، قامت تلك المرأة بتشغيل أغنية تدعى «la vie en rose» تلك التي تعكس بين طياتها كل الأجواء الباريسية الهادئة ثم قال والد ياسمين:

ـ كاثرين، إيديث بياف مجدداً يا عزيزتي؟

ـ جوزيف لا تنس أن هذه الأغنية كانت شاهدة على كل جنوننا قديماً، لا تخن الأغنية يا صديقي.

ثم قالت ياسمين: «أبي أنت لديك الاسم نفسه الذي كتبه خالد في قصته».

ـ عن أي قصة تتحدث ياسمين يا خالد؟

ـ لا عليك يا صديقي قصة غير معروفة نهايتها على كل حال سأطلعك عليها لاحقاً، لكن قل لي ما اسم مطعمك؟ ولم لم تخبرني حين كنا في الطائرة أنك تملك مطعماً.

ـ اسمه «jasmine mirage» المطعم الأكثر شهرة في المدينة، ها قد وصلنا.

سراب الياسمين؟ جوزيف؟ كاثرين؟ وياسمين الصغيرة؟ والمخطوطة التي خطتها يدي وأنا في الوطن ها أنا الآن سأجلس معهم! أيعقل أن تخلق الطبيعة لنا صدفة كهذه؟ خيم الصمت وكذلك الفرح على قلبي، فياسمين هي وليدة قصة العشق التي كتبتها، ياسمين التي مكثت في بيتي ثلاثة أشهر أحدثها قصة هي بالأساس نتيجتها وهي نهايتها لم أكن أعي أن ياسمين هي طفلة هذا المطعم، وأن تاريخ الذي يجلس في جواري الآن إلى المائدة مرصع على كل جدران هذا المطعم، وفي الجهة المقابلة تجلس عرابة جوزيف التي كانت تماماً كما تخيلتها في صفحاتي.

قالت لي رنين: « ألم أقل لك إنك ستعرف تتمة الحكاية مهما طال الزمن، أنت في بياريتز يا عزيزي وليس في مدينة عربية تجيد دفن الأسرار».

ـ جوزيف أين الياسمينة العتيقة؟

ـ لقد ماتت بعد أن مرضت نتيجة دخان السجائر وغيره من الملوثات في المطعم.

لكن من الذي حدثك عنها؟

ـ يا سيدي أنا أكتبك.

ـ تكتبني؟

ـ نعم أكتب سراب الياسمين بكل كبوتك وجنونك وتطرفك وعشقك وجمالك وطيبتك وتسرعك وتهورك وغضبك، أكتب عن تلك الفتاة العربية التي أحببتها أنت، كتبت عن عرابتك كاثرين التي تجالسنا الآن.

ـ أوه، هل لك إذاً أن تطلعني على قصتي؟

ـ طبعاً هذا يسرني جداً لكنني لم أنته منها بعد.

ـ وما آخر ما تعلمه؟

ـ أعلم أنك رحلت من القاعة بعد أن وجدت خطيبها السابق يقبلها.

شعرت بأن هناك غصة في قلبه وأن الدموع توشك على أن تأكل عينيه. طأطأ رأسه ونزع نظارتيه عن عينيه فبدت على وجهه كل معالم الحزن والحنين، وضعت كاثرين يدها على ظهره وكأنها تواسيه بمصيبة فعلمت أن نهاية السراب لن تكون مختلفة كثيراً عن أي قصة حب أخرى، فكل قصص الحب مختلفة ببدايتها متشابهة في نهاياتها، فراق جنوني أياً كان سببه ونظن بعد يومين أننا شفينا منه ويعود ليعصف بذكرياتنا بعد سنوات ليعيد إلى قلبنا أناشيد كنا قد أنشدناها معاً، وضحكات تبادلنها وقبلات ورقصات وفراقاً اقتسمناه.

طلبت منه أن يخبرني بما حدث بعدها إن لم يكن يمانع فقال: «حدث بعدها أن ذبلت ياسمينتي» كان يبدو عليه أنه لا يرغب في استرجاع الذاكرة.

هي ملكه وحده قصته الخفية التي لا يعلم أحد ثناياها إلّا جوزيف. يا أيها الحب ما الذي فعلته بقلبه؟ كم من أنثى فارقته تحت عنوان اسمك؟ كم من دمعة ذرفها بسببك؟ ترى أين ياسمين الآن وفي أي بلد هي، وهل تذكره كما يذكرها أم أن الزيجات الشرقية سيطرت عليها وأخذها منه شاب عربي بناء على طلب أمه بعد أن شاهدتها تتمايل في زفاف أحد الأقارب فأعجبها تمايلها فرغبت بأن تكون زوجة لابنها، تراها كم من الأطفال لديها الآن؟ وهل كانت وفية وأسمت ابنها جوزيف كي يذكرها بكل ما مضى، أم أيضاً اختارت اسماً عربياً كاسم والد زوجها حفاظاً على إرثه المعنوي وكي لا ينقرض ذكره من الوجود.

كل شيء ليلتئذ كان مختلفاً ومربكاً وكل منا يسيطر عليه صمته ويخفي عن الآخر شيئاً ما. جوزيف يخفي حباً مضى وأنا أخفي عن رنين علاقة قديمة ما زالت معلقة بذاكرتي منذ الطفولة، وهي تخفي عني شيئاً لا أعلمه، علمت حينئذ أنني أشبه جوزيف تماماً وأن من كتبته بالسراب هو أنا متقمصاً إياه، قاطعت كاثرين صمتنا وسألتني كم سأمكث في بياريتز؟

ـ إقامتي هنا مفتوحة لا أعلم متى ستنتهي لكنني في كل يوم أرى شيئاً جديداً يجبرني أن أبقى فيها أكثر.

ـ أعجبتك المدينة إذن؟

ـ أعجبتني رنين.

شخص واحد قد يرغمك على عشق أرض غريبة ورنين هي سبب عشقي لبياريتز بكل أشخاصها وأماكنها، شخص واحد قد يمحو من مخيلتك ومن مناهج مدارسك حدود الأوطان التي كنا قد تعلمنا عنها في المدارس ويمسي هو وحده وطنك، يبدأ حدوده من قدمها مروراً بيدها وأنهار مقلتيها إلى رأسها، رنين أمام الشعب الفرنسي وعلى هذه الطاولة أجدد إعلان حبي لك وأعلنك وطناً يأبى النسيان.

ـ يا لحظك إذن يا رنين.

شعرت بشيء من الخجل، فأشد الأمور وضاعة هي أن تتحدث أمام شخص عن شيء فقده؛ كان جوزيف يريد البكاء في هذه الأثناء إذ لم يستطع تمالك نفسه فنزلت دمعته في كوب قهوته بحيث زادتها مرارة وزادته حزناً. خانته دموعه، خانت جبروته أمام الجميع وارتشف قهوته الملأى بدمعه.

قال: «أشرب هذه القهوة منذ خمس سنوات دون أن يتغير عليّ شيء، كل يوم تمتزج دموعي بالقهوة فترتسم في مخيلتي كل لحظاتنا السابقة. كنت قديماً أشرب معها القهوة الحرام وبعدها أمست قهوة الدموع جليستي الدائمة».

اعتذرت منه ثم قاطعني قائلاً «لا يا خالد لا تعتذر عن شيء أحببته يا صديقي أنا الوحيد الذي لا يستحق الاعتذار، اعتن برنين واحفظها بقلبك دوماً ومهما عصفت بكما الدنيا فلا تتسرع، فهي الآن إلى جانبك وربما لن تكون غداً»، ثم تابع «ولا تحزن يوماً فالحياة رغم مرارتها

جميلة قد تتعبك لكن لن تصل بك إلى حد الموت، ففي اللحظة التي تشعر أنك ستموت ستبعث لك أملاً جديداً وها هي أعادت لي ابنتي ياسمين».

اقتربت منه كاثرين وحضنته بشدة، كانت هي الوحيدة التي تعلم حجم المرارة التي تدمي قلب جوزيف وطلبت منه أن يعود إلى البيت ويأخذ طفلته معه ويمضي هذه الليلة بالضحك معها.

ودعنا جوزيف وكاثرين وقبلت حبيبتي الصغيرة التي اشتقت إليها منذ الآن ثم رحل كل منا إلى منزله. كانت الساعة العاشرة حين قرعت رنين باب منزلي.

ـ اشتقت إليك.

ـ وأنا أكثر، ادخلي.

كانت تجول في المنزل مرتبكة ثم قالت لي مرة أخرى: خالد اشتقت إليك. ثم اقتربت مني أكثر وزرعت بفمي بعض أنفاسها. قاطعتها سريعاً قائلاً:

ـ فلننتظر حتى تمطر.

ـ أنا أكره المطر هذه اللحظات، أريد الحب.

تشبثت بها مختطفاً شفتيها منها، كانت هذه هي القبلة الأولى في حياتي التي أرغب فيها بشدة، وهبتني رنين قبلة، وبقبلتها وهبت أنا الحياة، بدا على وجهها الخجل ثم قالت:

ـ هل قصص الحب كلها متشابهة؟

ـ نعم.

ـ إذن سنفترق؟

ـ إن أراد لنا القدر ذلك.

ـ نستطيع تحدي القدر؟

ـ إن أردت أنت ذلك.

ـ خالد أنا أحبك لا أريد أن تخلدني بكتاب، أريد أن تخلدني بحياتك، أريد أن أكون سرك الكبير وجنونك وملاذك الآمن.

سيطرت علينا قبلتنا وافترستنا شهوتنا. كانت عينا رنين تفيضان عشقاً، أشهد أنها امتلكتني هذه الليلة وسيرتني على هواها وزادت العشق بقلبي درجات حتى أمست الحياة عندي مفصلة على حدود جغرافيتها.

كان الشاهد الوحيد على ليلتنا جدران المنزل وبعض الشموع المضاءة. مارسنا الحب إذن على أنقاض ما تبقى من سراب الحب، كنا نقدم رشوة للقدر تجبره بإلزامنا بالبقاء معاً وأن لا يتحامق أكثر. كنا نصحح معاً أخطاء جوزيف، ولن أنسى حينما أضاءت رنين الأضواء وقالت: «ليس الآن» اعذرني خالد لا أستطيع فعلها الآن.

ـ سننتظر المطر مجدداً إذن؟

ـ لا لن ننتظره هو موجود وينتظرنا، ثق بكلامي أستطيع أن أبصر هذه اللحظات أمامي لكنه ينتظرنا في زمن آخر، زمن قريب.

ـ يا لك من مجنونة يا رنين!

ـ دعني أجن بك فأنت العاقل الوحيد الذي يحلو لي أن أجن على صدره.

مضت لحظاتنا الجنونية هذه وكأنها ثوان بسيطة أعادت لها عقارب الوقت شرعيتها ومللها بعد كوب من القهوة اقتسمناه معاً، فاجأني هاتف مباغت من الوطن، إنه ياسر يخبرني بأنه سيعود بعد أسبوع وأن في جعبته الكثير من الحكايا التي يريد أن يقصها عليّ.

طلبت منه أن يخبرني عبر الهاتف القليل مما جرى لكنه امتنع قائلاً «كلشي تمام يا خوي أنا بس حبيت خبرك إني مش مطول فهالبلاد وجاييك» كان في صوته شيء من الحزن المصبوغ بنكهة الفرح، لم أستطع معرفة إذا ما كانت هذه الحكايا التي يود أن يخبرني إياها مفرحة أم حزينة.

ـ حسناً إذن يا خالد أنا سأرحل الآن.

ـ ما زال الوقت باكراً.

ـ هناك الكثير من العمل عليّ إنجازه.

ـ حسناً إذن إلى اللقاء.

ـ إلى اللقاء.

ـ رنين؟

ـ نعم؟

ـ ستمطر. .

لم يسبق لي أن رأيتها بذلك الغموض الشهي الذي كان يكتنفها

تلك الليلة، صامتة حزينة كانت معجونة بشهوة غريبة، هي المرة الأولى التي تجعلني لا أفكر في ما هو أبعد من جسدها، شفاهها تلك التي قلبت الأحوال الجوية وجعلت السماء الصافية ملبدة بالغيوم، اشتدت الريح واقتلعت الشجيرات الصغيرة وكان قلبي يقتلع من جسدي حباً بهذه اللحظات، شعرت بوحدة قاسية، هذه هي المرة الأولى التي تغيب عني صديقتي الصغيرة ماذا تراها فاعلة الآن؟ تراها تعد لأبيها رقائق الذرة كما فعلت معي؟ أم تقذف بالوسائد إلى جانب النافذة؟ من الصعب جداً أن يخرج أحد من حياتك بهذه السهولة، كان منزلي مليئاً بها وهو الآن فارغ منها تماماً.

وحدي مع ظلال الجدران أنازع هذه المخطوطة اليائسة وأمسح بقايا قبلة علقت بشفتي، كم هو طويل ليلك يا بياريتز، ضيقة على صدري أصبحت، فبين أهازيج الفرح الظاهرة على سكانك تختبئ قصته وتتوارى عن أعينك، أحقاً يكون المكان سبباً في الوحدة والحزن أحياناً أم بسبب شخص رماه القدر تعسفاً في طريقنا في هذا المكان؟ كيف لمقعد أن يحمل كل هذا الكم من الذكريات، هل الذنب ذنب المقعد أم ذنب من تواطأ وجلس عليه بقربنا؟.

هاتف آخر من الوطن لكنه هذه المرة من النوع المميت، من النوع المدمر، إنه الموت على شكل صوت لم يخطر ببالي قط بأن تعود بي الدنيا مرة أخرى سنوات عديدة، المأساة الكبرى التي عانيت ضرباتها عادت بشكل طيب تطلب تجديد عقد انتهت مدته منذ أن كبرت

واختفت آثاره، منذ أن رحلت عن الوطن، الحب الأول كان يطلب رؤيتي مجدداً، الأنثى التي صقلت شخصيتي على ما سببته لي من حطام، كيف لها أن تستذكرني في هذه الأثناء بعد أن أزحتها عن مكتبة الذكريات وأحرقتها عادت كما هي الكتاب الأول بين رفوف المكتبة.

كيف لذلك الصوت الرقيق أن يعيدني إلى موطني بكلمة واحدة، أخرج فمه سهماً نحو أذني قائلاً «اشتقت إليك». جردتني هذه الكلمة من كل الكلام، لم يخطر ببالي يوماً أن تطلب هاتفي مجدداً ثم رددت مرة أخرى «خالد اشتقت إليك».

ـ يبدو أنك مخطئة في النمرة.

ـ لا أنا أكلم خالد وأعي من أكلم.

كنت أتمنى لو كنت في حلم أو كابوس صغير فأقله أعلم أن أجله سوف ينتهي حينما أستيقظ، بادرت إلى طرد الحنين الذي شاب كلماتي بداية وحجبت عنه سماعة الهاتف لئلا يتسرب إليها بعضه عن طريق إشاراته اللاسلكية التي تقطع حتى القارات كلها لتوصل رسالة إلى شخص ما، رفعت من حدة كلماتي كسيف بوجهها قائلاً: « لقد فات الأوان على كل شيء الآن، فجرحي منذ ثمان سنوات التأم وندباته اختفت تماماً منذ وجدت من يضع البلسم عليه».

ـ خالد لكنني ما زلت أحبك.

وأنا أحب قلباً أيضاً لكنه ليس قلبك، أحب امرأة ليست أنت أداعب شعراً ليس شعرك وأحبه أضعاف ما أحببت شعرك يوماً.

ـ خالد لقد استشهد أخي بعد رحيلك عن هنا قبل فترة.

ـ ماذا؟ استشهد أحمد؟

ـ اقتحموا بيتنا في تمام الثالثة فجراً وقتلوا أخي بكل دم بارد وزجوا بي في السجن طوال الشهر الماضي.

ـ إلى متى سيبقى هكذا حالنا، «الله يرحمك يا أحمد، شدي حيلك يا بنت الحلال وادعيلوا».

ـ أتذكر مرة حين سخرت منك وقتما قلت لي إن كل من يسكن فلسطين هم عبارة عن «شهداء مع وقف التنفيذ». لم أتصور صحة هذه العبارة إلّا حينما اخترقت الرصاصة صدر أخي فشعرت أنها اقتلعت حشاشتي قبل أن تصله وقبل أن يسقط أرضاً مدمى.

ـ «هديل بعرفك أقوى من هيك شو نسيت كم مرة وقفتي بأول صف بكل التظاهرات والاحتجاجات نسيت أيام ما كنت تطلعي تخطبي بالناس وتواسي أهل الشهداء ما تبكي الله يخليك ريتنا نعدمهم اللي نزلوا دموعك، صلي على النبي وترحمي عليه».

شعرت بأسى شديد على ذاكرتي السابقة التي أسمعها لأول مرة تبكي بحرقة، بدأت أواسي فيها معزياً نفسي بموت أحمد صديقي الأكثر حباً للحياة والأكثر جرأة وإقداماً على الموت، كان هو صلباً حين اختراق الرصاص جسده أنا متأكد من ذلك، هو لم يخش ولو مرة جندياً يصوب بندقيته نحوه، كان دائماً يقبل عليهم فاتحاً أزرار قميصه قائلاً للجندي الذي أمامه: « إذا أنت زلمة طخني».

نلتها يا أحمد وصلابتك نالت من أختك وجبرت عليها الحزن الدائم، آخر شيء قالته قبل أن يرحل صوتها «سامحني يا خالد هذا هو الشيء الوحيد الذي أريده منك». كانت كلماتها تلك انتصاراً مصبوغاً بطعم الأسى عليها، فقد كانت ضريبة مسامحتها استشهاد أخيها سامحتك يا هديل فليشهد قلبي أني غفرت لك.

عفوت بقوة عن قرار الحقد بحقك بقدر ما أحببت رنين ولولاها لما انطفأت ناري، كم من الأشياء تغيرت وتغيرت أنا معها. فمنذ سنة واحدة فقط لم أتصور نفسي أن أكون هنا في بلد غير بلدي مدة طويلة ولم يخطر ببالي قط أن أقع فريسة للحب مجدداً، كم من الأشخاص رحلوا إلى الأبد وكم من الأشخاص سيذكرون بكل مكان حتى بعد موتهم، وكم من الأشخاص سيسقطون من عين التاريخ وسيحرقون في مزابله، أعي تماماً يا أحمد أنك لست منهم كما لم تكن يوماً أنت الوليد الطائش وأنت الشهيد الكبير.

خطر ببالي أن أنزل إلى الشاطئ هذا الصباح، هاتفت رنين طالباً منها النزول وأعددت كوبين من القهوة. كان الجو أشبه ما يكون ببداية الصيف سألتها

ـ هل فكرت يوماً في العودة إلى الوطن؟

ـ أخاف أن أفكر فيه كثيراً.

ـ ولم؟

ـ لأنني إن فكرت في ذلك فلا أظن أنني سأبقى هنا يوماً إضافياً.

ـ أتحبينه؟

ـ بعد أن عرفتك.

ـ إذن ربما سنعود يوماً معاً إلى هناك.

ـ كل بقعة في الأرض وطني إن كنت فيها معي.

كان برغبتي حينئذ أن أخبرها بذلك الهاتف المفاجئ وأتلو لها كل ما جرى لي وأخبرها بسبب جشعي وطمعي في إفراغ كل مشاعري على ورق أحمله دوماً. لم أشعر من قبل بهذا التضارب المخيف داخلي، ولم أدر كيف لهاتف سريع أن يوقظ داخلي شعلة ويعيدها من الرماد إلى النار مجدداً، بدوت شارداً حينئذ طوال الوقت، تشبثت بيدها وكأنني كنت أخاف أن تهرب مني أو كأنني خائف من أن يحل حب مكان عشق، نظرت إلى عينيها مخاطباً إياها: «حدثيني عن ماضيك»، فقالت: «لا أعرف عنه شيئاً فقد اختفى منذ وجدتك».

ـ أكان لك ماضٍ إذاً؟

ـ ومن منا بلا ماضٍ؟

ـ أكان سعيداً؟

ـ لكنه رحل.

ـ أكان طيباً؟

ـ لقد مات.

ـ أتحبينه؟

ـ كنت.

ـ والآن؟

ـ أحبك أنت ولا شيء سواك.

ـ كما أحببته؟

ـ بل أكثر.

ـ ولم؟

ـ لأنك إلى جانبي الآن، ما كل هذه الأسئلة؟ هل هناك شيء خالد؟

ـ أود أن أحبك أكثر، هذا كل ما في الأمر.

كيف لي أن أخبرها بما في داخلي أكثر من ذلك، أود أن أحبها أكثر ولكن هناك قلباً عشقته يوماً يبكي الآن بعد رحيل الجميع عنه.

ـ خالد ألم تشتق إلى صديقتنا؟

ـ أي صديقة؟

ـ لين أقصد ياسمين، أود رؤيتها حقاً.

ـ دعينا نؤجلها إلى الغد فأخال أن ياسر سيصل الليلة إلى هنا.

ـ أوه أنا مشتاقة إليه أيضاً.

ـ أريد أن أعود إلى المنزل الآن هل سنلتقي الليلة؟

ـ خالد؟ ما بك هل هناك خطب ما؟

ـ لا، لا شيء، أنتظرك الليلة.

عدت إلى المنزل الذي أصبح خالياً تماماً من الأصوات الطفولية داخله، خالياً بقدر ما يجعلني لا أقلق إن كسرت لين صحناً آخر، كان

الضجر يصطادني بكل خطوة داخله ويوقعني قتيلاً بذكرى معلقة قديمة والاحتمالات تعتصرني بسبب هاتف سريع.

ربما ما زالت تحبني ولم تكن تقصد أن تجرحني حين قالت أمام الجميع: ارحل من هنا ولا ترني وجهك فلم أعد أطيق النظر إليه بعد اليوم، وربما أصابتها وعكة حنين وكانت تحتاج إلى الكلام مع شخص لديه آثار من عطر أخيها، وربما الموج المتلاطم لهمومها أوصلها إلى شاطئ حبها الأول، ومن المحتمل أنها جاءت فقط كي تبكي أمام شخص أمسى غريباً كي لا تخونها دموعها أمام من حولها فاستعانت بنمرة دولية أوصلتها إلي، لم عدت من جديد يا هديل ؟.

لم أكن بوعيي حينما ارتطمت بالرقم الذي هاتفتني به مكلماً لها مختلقاً الأعذار لحديثي معها مفتتحاً كلامي بـ «كيف حالك الآن؟» ومنهياً كلامي معها بـ «لم عدت إلى ذاكرتي بعد كل هذه السنين، ألم تعي يوماً بأن الكاميليا تحتاج إلى عناية دائمة وإن غبت عنها ستذبل؟».

لم تركت الورد يذبل يا أنت وعدت لتسقيه بعد أن لم يرقك المغيب عنه أكثر، أتساءل كم وردة اعتنيت بها بعد وردتي وكم من رحيق زهرة راقك من بعدي ووضعتها بلسماً على شفتيك واكتشفت أنها لم تكن وروداً منذ البداية بل كانت شوكاً؟ هل أخبرك أحدهم كم من دمعة ذرفت يوم رحيلك عني؟ كم من الأشخاص قد بلغوك أنني احترقت في اليوم الواحد خمساً وعشرين ساعة بسبب كلامك القاسي ذلك؟».

قاطعت كلامي حينما شعرت بحشرجة تغتال كلماتي ودموع تلتهب عتاباً به من الحب قليل قائلة: «خالد تمهل ولا تتسرع بأقوالك تلك، لم أقترب من وردة بعدك قط ولم يفترسني حب من قبل، كنت أرغب في ترتيب حياتي في تلك الأيام ليس أكثر، سامحني على ما نطق لساني وعلى ما فعلته بك.

نستطيع أن نبني حباً من جديد إن أراد قلبك ذلك، طفولتنا الشقية ما زلت أرمقها في كل ليلة وأصلي بأدعيتك التي أهديتها إلي يوماً كي تعود لنا تلك الحياة، ناديت باسمك في كل ليلة وتوسلت إلى ياسمينتك كي تعيدك جالساً أمامي تطالعني كما كنت منذ زمن، رويت بدمعي الأرض حتى أنبتت منها ورداً أسود حزناً على غيابك وحداداً عليك، وكرست كل وقتي للوطن علِّي أنساك لكنني مع كل حجر وطلقة رصاصة كنت أراك موجهاً حجارتك إلي مطهراً خطاياي بحقك فهلاً أتيت؟

هلا أتيت كي تعيدني تلك الطفلة في جوارك على أرجوحتكم العتيقة؟».

أقفلت السماعة بعد ذلك دون أي كلمة إضافية، ربما صدمة الكلمات تلك هي ما أجبرني على إغلاقها، وربما ارتباطي برنين هو ما جعلني أفعل ذلك، كانت الدموع تفترس وجهي حينئذ متآمرة عليّ بكل الذكريات القديمة والأمكنة.

رمقت الساعة، كانت في تمام السابعة مساء، ذهبت كي أغسل وجهي مما علق به من دموع وترسب فيه من شوائب الحنين، غيرت

ملابسي وأعددت كوب قهوة جالساً أمام مدفأة الحطب منتظراً لقاء ياسر ومتهرباً من حرارة قلبي بحرارة تلك المدفأة كي لا يشعر أحد بأنني كنت على اتصال بالماضي قبل قليل، لحظات قليلة وسيمتلئ المنزل بالضحك والبكاء والجمعة التي اشتقت إليها جداً.

فتحت الباب بسرعة وكان ببسمته المعتادة مستقبلاً وجهي، احتضنته بشدة وكأنني للمرة الأولى أراه «ياسر اشتقت لك يا زلمة وين هالغيبة والله الحياة بدونك هون بتخزي يا صاحبي» أبعدني عنه قائلاً: «شو يا زلمة استنى لفوت عالقليلة بعدين اشتاقلي قد ما بدك، تحممت من المطر يا عمي».

حسناً تفضل بالدخول يا صديقي.

بدأ ياسر كعادته يثرثر دون توقف عن كل شيء وكنت أنا حاضراً معه بجسدي دون أن أكون قد انتبهت أو سمعت أي كلمة قالها، كنت أغلق عيني بين الحين والآخر من شدة التعب، أمسك بيدي ثم ردد:

ـ خالد ماذا بك؟

ـ عاد حب قديم يسري في داخلي.

ـ ماذا تعني؟

ـ أتذكر هديل؟

ـ هديل شقيقة أحمد؟

ـ نعم.

ـ هي نفسها التي كلمتني.

ـ وكيف ذلك؟

ـ حدثتني منذ مدة باكية ومن تلك اللحظة إلى الآن وأنا أفكر فيها، كلمتها قبل قليل.

ـ ورنين؟

ـ سبب هلاكي هو رنين، هي السبب في تخبطي هذا.

ـ هل قلت لرنين ما الذي جرى؟

ـ لا، لم أستطع.

ـ أيهما تحب أكثر رنين أم هديل؟

ـ بالطبع رنين لكن حدث أن استيقظ الماضي داخلي ليعيد هديل إلى تفكيري.

ـ خالد، كنت آتيك دوماً مشتكياً وأراني اليوم أنا طبيبك، ما الذي يجري لك؟ أتراك تحب قلبين مختلفين في وقت واحد حقاً؟ راجع بيانات ذاكرتك جيداً، أنا متأكد من وجود خلل ما قد أصابك، أكرر عليك يا صديقي ما قلته لي ذات يوم» أنت توهم نفسك بأنك تحبها، تذكر أن علاقتك بها كانت من أحلك لحظات حياتك، أنا لم أكن أعرف تفاصيلها ولكن هكذا حدثتني عيناك ولا أعرف أين تعرفت إليها ولكن أياً يكن أنت غرست داخل قلبي عقيدة تقول «من تبعد عنه أكثر من سنة وتأكل وتشرب وتضحك دونه فأنت حي رغماً عنه وهو عابر طريق في ذاكرتك»، ألست من قال لي هذا الكلام؟

ـ لا أعلم يا صديقي، لا أعلم.

ـ ما الذي لا تعلمه؟ من الذي بقي معك الآن وأتاك بكل لحظاته وأحواله؟ من التي بقيت إلى جانبك وشاركتها في منزلك؟ من التي أغدقت عليك العشق كما لم يفعل قبلها أحد قط؟ ألّا تستحق هذه المرأة أن تخلدها وتبقي عليها الأنثى الوحيدة داخل أسوار قلبك؟

ـ أتقصد رنين؟

ـ نعم رنين، لجوؤك العاطفي.

ـ يا صديقي أنت لا تشعر بالذي يحدث لي، بداية كان همي أن أعلم ما سبب اتصالها ذلك ثم حدث ما حدث.

ـ ألست أنت من قلت لي بأنه إذا قرع باب ذاكرتك الماضي التعيس يوماً فلا تفتح له الباب لأنه بالتأكيد لم يأت كي يخبرك بشيء جديد؟ ألست أنت من قلت لي بأن أعيش اللحظة وكأنني وليدها؟ أن أعيش السعادة وكأنني سأفقدها غداً؟ فلم فتحت له الباب يا خالد؟

ـ بل جاءت، قالت لي إنها لا تزال تحبني.

ـ حقاً؟

ـ نعم.

ـ إذن عد إلى أبوديس وارتم في أحضانها واترك رنين تكتوي بنار فرقتك كما فعلت معك تلك، أقول لك اذهب عندها واهجر رنين وحين تفتقدها بعد عدة سنين عد وكلمها لكن تأكد أنها ستكون قد نسيتك تماماً حينئذ، ما ذنبها كي تجعلها تحترق؟

ـ اصمت، اصمت يبدو أن رنين قد أتت.

دخلت يا رنين ولا أدري أين أذهب بوجهي المقيت هذا منك خجلاً بقدر ما آتيتني حباً، ها أنت أمامي إذاً في خضم المؤامرة الخاسرة التي كان قلبي بصدد عقدها.

تدخلين كما كل مرة لافتة انتباه كل حجر ولوحة وشمعة في منزلي، وتتقدمين نحو ياسر حاملة معك باقة نرجس تقدمينها له وتهدين إليه معها ابتسامتك الأخاذة قائلة له: «اشتقنا إليك يا ياسر». كان وجهي يقطر وجعاً كلما رمقتك، اقتربت مني ببطء شديد ووضعت على وجنتي قبلة حينذاك.

كانت ليلتنا هذه باردة بكل المقاييس وخالية من أي ضحكة، وربما أنا الوحيد الذي كنت لا أضحك بينكما أحاول الهرب منكما بحجة المرض، قاطع صمتي ياسر قائلاً: «لقد عرفتني خلود يا صديقي، كان هذا في القدس حين شاء القطار أن يحييني لها، وجدتها وكأنني للمرة الأولى أراها وفي جانبها رضيعها، لكن على كل حال لا تقلق، فقد كان كلامنا عادياً جداً وتأكدت أنني شفيت منها وسأبدأ حياة جديدة وخصوصاً أن كل القرية قد علمت بأنني لم أمت يوماً».

ـ جميل إذاً يا صديقي.

ـ خالد سأرحل الآن يبدو أنك حقاً متعب، أكلمك في وقت لاحق.

ـ حسناً.

تركني عمداً ليبقيني وحدي أواجه تينك العينين اللتين تصدحان حباً لي وبالي مشغول بغيرهما، تركني مع فتاة كركبتني بأنوثتها منذ اللقاء الأول لنا وها أنا لا أحترم صك الوفاء لأنوثة من نوع كهذا.

كنت أشعر رغم أنني ضاجعت سماعة الهاتف أن بتلك المضاجعة خيانة كبرى لا تغتفر، ورغم أنني لم أطلب من هديل سوى أن تخبرني لم فعلت ذلك بي، كنت كمن يتخذ من زاوية المنزل ملجأ لي كي أتجنب ضربات والدي لكنني لم أكن أعلم أنها الزاوية التي سأتلقى فيها أقسى الضربات وها أنا أحشر نفسي في الزاوية المقابلة لك أتلقى السهام والسياط من عينيك البريئتين، فهل ستبقين لي حباً إن أخبرتك بكل شيء؟ أم أن كبر أنوثتك سيلقي عليك تعاليمه وستبتعدين أكثر؟ أذكر أنك اقتربت من صمتي أكثر محتضنة جسداً امتلأ وجعاً مخاطبة إياه «اشتقت إليك» كانت هذه الكلمة هي السهم القاتل.

لم أرغب في شيء أكثر من البكاء على صدرك، كنت أرغب أن أنصبك أمي بهذه اللحظات وأبكي فهل ستتفهمين إذا ما بكيت؟ هل ستغفرين للطفل الصغير هذا إتلافه للعبته؟ آخ لو تكونين أمي هذه اللحظات لأخبرُتك بكل شيء وأرحت نفسي لكنك لم تكوني سوى تلك الأنثى التي ترغب في المزيد من كأس حبي بكل لحظة ولا تريدين شيئاً سوى تملكك إياي فقط.

رغم هدوئك المضجر إلّا أنني كنت أقرأ في عينيك دوماً غيرة ملتهبة كلما وقعت عيني على شعر غير شعرك ومقلة غير مقلتك، لم

يحتمل أحد قبلي طفولة عينيك ولم يجرؤ أحد أن ينزع عنهما غطاء الطفولة غيري فلم فعلت ذلك يا رنين؟ لم صممت على جعلك لي فقط، فهل سأكون كالذين قلت لك عنهم إنهم يهوون إقحام الشوك بين الورود الجميلة وإتلاف كل ما هو أخضر أمامهم؟

كنت أظن حينئذ أن صمتي الآن سيزيدني غموضاً لكنني لم أكن أعلم أن ذلك الصمت هو من يفضحني أمامك، هل سأكون أنا هذه المرة ياسمين وأنت جوزيف الذي لا يغفر؟

ـ خالد مضى يومان على هذه الحال ما بالك؟

بالي بك.

ـ لا تكذب، لو كان بي لكنت قلت لي، لم أعهدك صامتاً كما الآن مضى على آخر ضحكة لك يومان فأين ذهبت تلك الضحكة؟

ـ هل لي منك بطلب؟

ـ ما هو؟

ـ هل ستتركينني يوماً؟

ـ ما هذا السؤال، طبعاً لا.

ـ مهما جرى؟

ـ حتى لو رأيت قلبك يتجه نحو امرأة أخرى فلن أتركك بل سأتشبث بك أكثر.

كان جوابك هذا مميتاً لي كأنك تشجعينني على الكلام أكثر أو أن صمتي قد فضحني أمامك وأخبرك بأن قلبي يدغدني نحو امرأة سابقة؟ اكتفيت حينئذ بأن قلت:

ـ أنا حقاً أحبك يا رنين.

ـ وأنا أحبك.

ـ قسماً بكل ما هو أهل للقسم به بأنني أحبك، سامحيني دوماً وابقي بقربي مهما فعلت.

ـ لكن لا تخني وإن جرى ذلك فاحجز لي موعداً مع العلم أقله، فلا أحب تلقي الطعنات بظهري.

ـ أليست كلها خيانة؟

ـ لا، من الممكن أن أغفر لك لمسة يد أو كلاماً عابراً مع غيري لكنني لن أغفر لك أبداً إذا ما جمعك سرير مع أي شخص.

كنت أود أن أسألك عما إذا كان الهاتف الليلي خيانة إلّا أنني سكت، سكت ولم أخبرك بأي شيء حينئذ هممت طالبة الرحيل وسألتني إذا ما كنت أرغب في شيء قبل أن ترحلي قلت «أريدك» حينئذ تبسمت ولم تقولي أي شيء، وعند الباب توسلت إليك أن تبقي لا أرغب بأن تتركيني هذه الليلة أرجوك.

هذه الليلة فقط ابقي إلى جانبي يا رنين، لا تتركي الأوهام تقتحمني أكثر، ابقي لتبقي الحقيقة الوحيدة أمامي هذه الليلة، لا أريد سرير الحب صدقيني يا رنين، كل ما أريده أن تبقي على يدك بيدي طوال الليل وأن نثمل من القهوة. حتى السكر، فكل ما في داخلي يؤهلني للسكر في هذه الأثناء، قلت بشهوة أنثوية: «هل تريد إغوائي يا رجل» لا، لا أريد إغواءك أنت أمي في هذه الأثناء وأحتاج إلى حضنك أكثر، أحتاج إلى

دفء صدرك عل وعكة البرد العاطفية تبتعد عني، رنين لا أريد منك هذه الليلة سوى يدك وكوب قهوة وبعض الكلام، نزلت دموعي من عيني وأنا أتوسل إليك أن تبقي، لا أعلم إن كنت قد ارتضيت البقاء حباً أو شفقة على كياني المنهار، قلت: «حسناً سأبقى، خبئ دموعك، كل هذا وتحبني وترغب أن أبقى يا حبيبي؟».

ـ جداً، لا أريد الابتعاد عنك أكثر.

ـ كنت مبتعداً إذن؟

ـ لا، لكنني أخشى على نفسي من الابتعاد، أريدك بكل لحظة في جواري.

ـ حسناً إذن انتظرني إلى أن أبدل ملابسي وسأعود.

ـ لا، أرجوك ابقي.

ـ ها هو منزلي في جوارك لن أطير، لا تقلق.

ـ إذن خذيني معك.

ـ خالد! كفاك مزاحاً، قلت لك إنني سأعود.

ـ وهل هذا وجه رجل يمزح؟

ـ خالد!

ـ حسناً سأنتظر.

حينما ذهبت يا رنين قررت الاعتراف بكل شيء، رحت واضعاً أمامي وسادة أجري معها حواراً كي أعرف ما الذي يجب عليّ قوله لك وكأنني أتدرب على بطولة ما، كنت أصرخ بأعلى صوتي «لقد خنتك

يا رنين» كررت قولها عشرات المرات وحين دخلت من الباب لم أقل سوى «أنا حبك يا رنين». لم أكذب بهذه الجملة قط لكنني جبنت أن أخبرك بتلك الخيانة، لم أجرؤ على قولها وابتلعت الحروف في جوفي رغم مرارتها، فضلت أن أموت مئات المرات على أن أجرح شعورك مرة واحدة فهل اذا ما قلت لك هذا ستسامحينني يا رنين؟ وكما أفعل في كل مرة أبتلع كل ما هو سيىء كي لا ألحظ الابتسامة على وجهك تأخذ بالاختفاء، طلبت منك أن تقتربي مني أكثر، أن تلتحمي بجسدي أكثر، ارتميت على صدرك والقهر يلتهمني كلما داعبت يدك شعري وكأنك بكل حركة من يدك تغسلينني من خطيئة ما، فهل يدك قادرة على غسل خطيئتي هذه؟.

انتشلتني من صدرك بعنف وأخذتني بالقوة معك نحو المرآة قائلة: «أهذا خالد الذي أعرفه؟ انظر إلى وجهك؟ أين ذهبت تلك الابتسامة، ما بك يا خالد، أخفتني عليك يا رجل».

وأنا كنت أخشى النظر إلى المرآة كي لا أبصر عينيك عن قرب فيفتضح أمري. نظرت إلى بيجامتي الزرقاء وإلى بيجامتك الوردية، نظرت إلى يدك ورجلك ورمقت عيني كل شيء في الغرفة إلّا عينيك، فالمرآة بارعة بكشف الحقائق بانعكاساتها الوهمية، تشبثت برأسي أكثر وضغطت عليه واضعة عيني أمام المرآة، كنت كطفل يصارع جسده كي لا يأخذ إبرة التطعيم وحينما أوصدت عليّ يديك خانتني دمعتي أمامك سقطت ومن بعدها بقيت صنماً أمام المرآة لا أحرك ساكناً، قلت حينئذ

«تبكي!» نظرت بعدها إلى عيني وبك شيء من الجنون قائلة: «لماذا تبكي؟» ثم انخرطت أنت في البكاء حزناً على بكائي، أخذت تبكين كمن فقد حبيباً له، أقسم لك يا رنين إنني لا أستحق هذه الدموع، أرجوك لا تقتليني أكثر، احتضنتك بشدة متمتماً «لا تبكي أرجوك توقفي حبيبتي أنت حبيبة قلبي أنت والله بحبك». كم كنت أحتاج إلى حضن كهذا يا رنين، هذا كل ما كنت أحتاج إليه، قلت:

ـ رنين أنا أحبك جداً.

ـ إذاً توقف عن البكاء.

ـ وأنت؟

ـ أنا أحبك وأبكي بسبب حبي لك.

ـ تبكين بسببي؟ لماذا؟

ـ لأنه لم يسبق لمخلوق أن عشق مثلي.

ـ حبيبي يا خالد، حبيبي يا خالد.

تسللت بسمة صغيرة من بين عيني ثم قلت: «سأخبرك بكل شيء» لكن أنت التي تمنعت عن السمع وقلت إنك ترغبين أن تبقي ليلتنا هذه صامتة. أنت التي قلت تريدين الاستماع إلى عينين فقط.

للمرة الأولى تطلبين مني القهوة وتشربينها معي، أكان بشربك للقهوة علامة أنك ستتماشين معي كلياً وسترضين بي كما أنا!

هل للقهوة علاقة بالحب حقاً؟ أنت السمراء التي لا تحبين بقربي سمراء سواك ترضين بالقهوة وتشربينها معي واللذة بارزة على فمك؟

كانت الساعة تستدرجنا إلى صباح آخر وتسرع من الوقت أكثر فأكثر إلى أن نمت يا عزيزتي، للمرة الأولى أراك نائمة، ما أجملك يا أنت وكم أنت شهية في نومك، استلقيت على الأريكة المقابلة وفي داخلي شيء من الراحة بعدما رتبت أموري قليلاً وأعدت لك شرعيتك في قلبي ونمت سريعاً حينذاك.

في الساعة العاشرة صباحاً جاءنا ثلاثة ضيوف، ثلاثة أصدقاء: كاثرين وجوزيف وياسمين كان بحوزتهم بعض من حلوى الباسك، جاءوا ليطمئنوا إلينا، كم كنت سعيداً حينما رأيت ياسمين، احتضنتها بشدة، آخ كم كنت مشتاقاً إلى هذه الصغيرة، همست بأذنها «رنين نائمة في الداخل اذهبي وأيقظيها». شعرت بالحياة تسري في عروقي حينما فتحت كاثرين النوافذ المطلة على البحر بعد يومين من الظلام المميت وطردت الدخان العالق في أجواء المنزل، كان منزلي حينئذ مفعماً بدخان السجائر، ففي اليومين المنصرمين دخنت ما يقارب المائة سيجارة، هكذا أنا، أعاقب نفسي بالنيكوتين كلما زاد غضبي أو قد آخذه ليريحني قليلاً، قليلاً وبعدها أعلم أنني سأموت، «كم اشتقت إليكم، ما رأيكم بقليل من القهوة؟».

ـ ستعد لنا القهوة يا خالد؟

ـ نعم سأفعل يا جوزيف.

قال مازحاً: ما هذه الوقاحة يا رجل تريد أن تعد القهوة وأنا موجود؟ دلني على المطبخ وابق هنا.

ـ حسناً، المطبخ عن يمينك، على كل حال لن أقبل بغير قهوتك الحرام.

كانت رنين في هذه الأثناء في الداخل مع ياسمين وأنا جالس وأمامي كاثرين ترمقني بغرابة، ابتسامة تخبرني من خلالها بأنها تعرف كل شيء، قررت أن أخبر كاثرين بكل ما جرى معي، اقتربت منها وقلت كل شيء لها، وضعت يدها على كتفي قائلة: «هون عليك يا خالد، إذا ما حدثك صوتك الداخلي بهذا الشكل فهذا يعني أنك لا تزال حياً وأنك تحبها بشدة، كل علاقات الحب يظهر من خلالها أضدادها فإما أن تحل المشكلة وإما أن تتركها للزمن ليفضحك بقسوة وينتهي كل شيء، أنا أحسدك على ما استطعت تحمله ورنين ستتفهم الأمر إذا ما أخبرتها بل إنها ستحبك أكثر، تجرأ ولا تخف». كانت كلمات كاثرين تلك مشابهة للكلمات التي حبستها في داخلي وجاءت لتكشف عني الخوف وتزيله، هذه المرة يا رنين سأجعل كل شيء جميلاً بعينيك وسأظهر لك ضعفي الشديد أمام أنوثتك الرقيقة، لا لن أخفي ما فعلت أكثر.

عاد جوزيف حاملاً معه القهوة وبقربه ابنته الصغيرة وأنت يا رنين، كنت بكل خطوة تخطينها نحوي تزيدينني لذة بالاعتراف، كنت حينئذ في قمة فرحك كما لم أرك من قبل، أخذت أعد الثواني كي يرحلوا سريعاً وألقى قدري المحتم، كانت جلستنا رغم جمال أشخاصها مملة، ما بالي أنا وطقس ستراسبورغ كي تتحدث عنه كاثرين؟ وما بالي

إذا ما كان جوزيف يخطط لشراء منزل جديد أو للسفر والاستقرار في مكان آخر! كل ما كان في خاطري هو أنت يا رنين ولا شيء سواك، لم يكن همي سراب الياسمين للمرة الأولى خشية مني أنني أعيشها الآن حقاً.

رحلوا أخيراً بعد ساعة ونصف الساعة وبقيت معك وحدك في المنزل، كنت كطفلة لا ترغب في شيء سوى اللعب تلقين عليّ الوسائد وتكشفين عن دلع أنوثتك الساحر، أنت التي عرقلت الحقيقة وأخرتها أكثر، كنت مع كل وسادة أتلقاها أزداد خوفاً من أن أخبرك، كنت أضعف من أن أجرح أنثى بطفولتك هذه، أخذت تداعبينني وكانت ضحكاتي تتعالى وأنا أتوسل إليك أن تصمتي كي لا توجعيني أكثر، افترستني ضحكاتك تلك وأمسيت أضحك معك دون أن أعرف سبب ضحككك ذلك، أذكر أنك قلت لي: «فكك من النكد يا زلمة وخلينا نضحك».

أخذت في خضم الضحكات أحصي الاحتمالات، ماذا لو أخبرتك الآن بكل شيء هل ستستمرين في الضحك أم سترحلين؟ أخذني خيالي إلى رحيلك وبدأت أتصور خروجك من الباب بعد كلامي هذه قائلة: «ابق معها إذن ولا تعد».

أتعلمين لو حدث هذا؟ فستكون هذه هي الضربة الأشد وجعاً على كاهلي، وكأن الدخان عاد ليملأ منزلي من جديد، حاولت أن أستوقفك حينئذ دون جدوى فقد كان عنادك يسيطر على بصرك، بدأت

بالصراخ في أنحاء المنزل وكانت هذه هي المرة الأولى التي أتلفظ بها بألفاظ كنت قد وعدت نفسي مسبقاً بأن لا يخرجها لساني من جوفي أبداً، كانت لدي رغبة ملحة في الشرب حد الثمالة فأخذت أشرب كأساً بعد كأس وأقطر دمعة بعد دمعة، موتاً بعد موت.

حاولت الاتصال بك كثيراً ولم يكن هناك رد سوى من المجيب الآلي، بدأت أعترف له وكأنك أمامي «والله لم أخنك، كان بإمكاني أن أخفي الذي جرى لي عنك صدقيني، لم أكن أعرف أنك ستتفهمين الموضوع هكذا، أرجوك أجيبيني» وبعد ساعتين أتأمل خلالهما رسالة منك تقولين لي فيها «لا تكلمني بعد اليوم» صرعت جداً من هول ما قرأت وكأنه قرار بتنفيذ الإعدام بحقي جزاء ما فعلت، كنت في مخيلتي كما أنت دوماً، متعسفة بقراراتك حينما تنتابك نوبات الغضب وتتعطشين إلى عذابي إذا ما أحزنتك يوماً.

ما زال هناك أمامي المزيد من الوقت كي أتوسل إليك، هاتفت رقمك عشرات المرات بعدما قرأت رسالتك، ذهبت إلى بيتك أصرخ كي تخرجي للقائي فخرج كل سكان الحي ولم تخرجي أنت، عدت إلى بيتي وفي داخلي شيء من الإهانة والحزن الشديد، عاودت اللجوء إلى الشرب أكثر وحينئذ وجدت نفسي مرتطماً مرة أخرى بهاتف هديل، لم يخطر ببالي شيء سوى هديل وكنت متأكداً أنها هي الوحيدة التي قد ألجأ إليها.

وددت أن أستمر في خيانتي الصغيرة طالما فعلت لي هذا، لا

أعلم ما السبب الذي جعلني أود بالحديث معها الليلة، ربما غيابك القاسي هذا، ربما الهرمونات الذكورية التي أجبرتني على حفظ ما تبقى من كرامتي بعد مئات المكالمات، ربما محاولة مني كي أستفز أنوثتك أكثر حينما ستعلمين في المرة المقبلة أنني عدت وكلمتها مجدداً، احتمالات كثيرة متأكد أنها كلها ليس لمصلحتك بل محاولة مني للعبث بمشاعرك قليلاً لكنني لم أكن أعلم أن محاولاتي هذه لم تكن سوى للتقرب إليك أكثر ومصارعة حبك أكثر.

أنت الوحيدة التي أتنبأ بخسارتي معها قبل حتى أن تبدأ اللعبة، خشيت أن أخبرك وصارعت عذابي يومين وما كانت هذه الأحاسيس بفعل الندم بل ليقيني بأنك سترحلين إذا ما علمت فيها، ورغم هذا كطفل صغير أخبرتك حينما جردتني قهوتي الخوف ويا ليتني بقيت ذلك الجبان لكنت إلى جانبي الآن أنت الوحيدة التي أخشى نفسي منها حينما تضعني على عتبات الاعتراف، تلك اللحظات حينما يزداد قلبي خفقاناً وتأخذ رجلاي بالاهتزاز من الخوف وكأنني في غرفة تحقيق.

قاطعت تخيلاتي العنيفة تلك وضحكاتك معها قائلاً: «أتعلمين ما الفرق بينك وبين المحققين، المحقق يضرب ويشتم ويعذب كي ينتزع اعترافاً أما أنت فتبتسمين فقط وتجبرينني على قول كل شيء حتى على نسبة أفعال لم أقم بها فقط».

ـ ماذا تقصد بقولك هذا؟

ـ هل قد تغفرين لي يوماً إذا ما أخطأت؟

ـ إذا أخبرتني.

ـ لقد خانتني يدي حينما ارتطمت بسماعة الهاتف طالبة رقم هديل.

ـ ومن تكون هديل؟

ـ حبيبتي السابقة، كلمتني منذ يومين تخبرني بأن شقيقها قد استشهد ثم عاودت الاتصال بها مجدداً.

ـ وما الذي قلته لها؟ لا تكذب.

ـ عاتبتها لم هجرت قلبي حينذاك لكنني أقسم لك إنني لم أكن بوعيي حينما كلمتها وكأنني كنت شخصاً آخر.

ـ ما زلت تحبها؟

ـ لو كنت أحبها لكنت هجرتك ورحلت.

ـ خالد أريد جواباً إما نعم وإما لا.

ـ لا أريد سواك.

ـ لكنك تحبها.

ـ أنت التي قلت لي لا تكذب، لا أريد الكذب عليك وأخبرك بأنني لا أحبها.

ـ إذن أنت هنا تضيع وقتك معي فقط ؟

ـ لا، لا تقولي هكذا، أنا أحب ذكراها وشبابي معها لكنني لا أرغب أن تبقى معي كما أرغب فيك أنت.

ـ أريد أن تبقي قلبك لواحدة فمن ستختار؟

ـ بالطبع أنت.

ـ هشش، لا تتعجل أنا سأرحل الآن، ابق وحدك قليلاً ريثما تقرر.

انتابتني الحيرة حينذاك من تصرفك البسيط الذي لم أجد له أي وصف سوى بأن بقاءك معي مرتبط بقراراتي أنا، إن طلبت منك الرحيل ستلبينه وإن طلبت منك البقاء فستبقين، بعد صراع مع الخيانة طوال يومين تمنحينني يوماً ثالثاً لأقرر بقاءك على رف الحب؟ أي امرأة أنت التي توكل إلى رجل بأن يتخذ قرارات نيابة عنها حتى ولو لم تصب في مصلحتها؟.

أتدرين؟ كنت أنتظر منك صفعة تمسحين بها ذنبي الصغير هذا أو رحيلاً سريعاً دون أي كلمة، دمعة أو صرخة بوجهي، لكنك وضعت كل الاحتمالات هذه جانباً وطلبت مني أن أقرر من التي أريد، أعجبتني حماقتك تلك حينئذ بقدر ما أوجعتني، سأطلق عليك من اليوم لقب المحقق فأنت ولدت لتكوني المحققة في أفعال ذاكرتي الشائنة رغم أنك تعرفين كل الأجوبة مسبقاً، تعرفين تماماً بأن الحب درجات متفاوتة، فإنْ كنت أحب تلك بقدر ما أحب النرجس فأنا أحبك بقدر التربة التي تنبته، إن كانت هي النور فأنت الشمس التي تهبين لها الإضاءة، إن كانت هي النفس فأنت الروح، أنت الحياة، أنت الحب أنت الجنون والخوف والجمال والطفولة، فكيف لك أن تفكري بأن قلبي قد يميل إلى غيرك.

أتساءل كم مرة يجب عليَّ أن أطلب منك ألّا تقارني نفسك بأية

امرأة، فأنت تعلمين أن القلب لا يخفق إلّا لوقع خطى أنوثتك والعين لا تبصر سوى براءتك وبسمتك التي ترتسم على شفتيك حينما أقول لك: «أحبك». آه على تلك الكلمة حينما تخرج من فمك، تقبضين على شفتيك حينما تنطقينها فتقبضين على روحي وتزجين بها داخل قلبك بين أسواره العالية فهل ما زلت تسألين من التي أريد؟ وهل تتصورين أنني أحمق كي أقطع عن نفسي إمدادات حروفك التي لا تنطق غيري؟ أي امرأة مجبولة باللامبالاة المفاجئة تلك؟ أقسم إنني في كل لحظة أزداد ولعاً بك، فبين طياتك أنت وحدك كلمت كل نساء الكون من منبر فمك، كلمت الحنون والقاسية والمجنونة والجميلة كلهن في قالب امرأة تدعى أنت، اللهم إني بلغت اللهم فاشهد.

أرسلت لك رسالة كتبت فيها «حمقاء أنت إن كنت تطلبين أن أخير نفسي بينكما، بالطبع أنا أحبك وحدك، لكن لي طلب صغير عندك إن عصفت تلك ببالي فعليك أن تخرجيها من سراديب تفكيري بطريقتك الخاصة»

استغرق منك الرد ساعة ونصف الساعة تركتني خلالهما أصارع نفسي بانتظار بعض الحروف لمعرفة موقفك الأخير مني، وحينما برز اسمك على شاشة هاتفي أخذت نبضات قلبي بالتسارع وانتابني خوف لن أجيد وصفه أبداً. كنت مثل من ينتظر نتيجة الثانوية العامة، أغلقت عيني حينما عرضت الرسالة للمرة الأولى ثم فتحتهما مرتبكاً، قرأت داخلها «خليك جمبي وعيب على اللي يذكرك فيها طرقي كتار أنت بس خليك معي ولا ترجع تخبي علي شي أنا بخوفش يا حبيبي».

ضحكت بأعلى صوتي قائلاً: «والله إنك مجنونة».

أغدقت عليَّ بعدها برسالة أخرى تقولين فيها: «قاعد بتحكي مجنونة هاي البنت صح؟ أنا مش مجنونة بس حبيت علمك ما تغلط مرة تانية هيك غلطة وعلى طريقتي على كل حال صدقني بحبك وحتى لو اخترتها كنت رح ضل معك مش بخاطرك، وهلا بدي نام تصبح على خير».

أسعدتني جداً بكلماتك المازحة تلك التي أعـادت جوقة الموسيقى الفرحة داخلي وبات قلبي يرقص فرحاً على وقع حروفك التي عادة ما يثمل منها العشاق بحديثهم، اختبأت تحت غطائي وحدي في المنزل إلّا أن صوتك القائل أحبك كان يدهمني كلما أشعر بالنعاس، يا أنت حتى ولو رحلت من بيتي ستبقين على أطيافك داخل بيتي لتكلمني حتى بعد أن تخلدي إلى النوم.

مجنونتي الصغيرة فلتشهدي بأنه لم يوصلني أحد إلى الجنون غيرك من قبل، معك تغير كل شيء، أنا من نبذت الحب طوال السنين الماضية تلك أراني العاشق الأول بهذا القرن، كيف لحب أن يكون مختبئاً في بطاقة دعوى لمعهد موسيقي وكيف لطفلة لم تبلغ من عمرها ست سنين بأن تفتح عيني على الحب؟ أتعلمين؟ مع كل صلاة أشكر الرب على دخول ياسر ولين حياتي فلولاهما لما عرفتك أنت.

الفصل الرابع

استيقظت للمرة الأولى وابتسامة الأمس ما زالت ترافقني، كان يوم القرارات الكبيرة، قررت أن لا أدخن هذا الصباح وأن أطرد نيكوتين الموت من جسدي مستعيضاً به بإدمان حبك، يا عزيزتي لا تحزني إن قارنتك يوماً بالنيكوتين فأنت السيجار الكوبي الوحيد الذي أدخنه، أنت الشيء الأوحد الذي لا أستطيع إكمال نهاري بدونه أبداً، أدمنتك إذن وبت اللصيقة بجسدي ودمي، الوردة التي لا يمضي نهاري دون استنشاق عبيرها، بك شيء من الوطن والأمومة والأنوثة التي اجتمعت لتكون صورتك أنت فما أجمل صورة كهذه.

هذه هي المرة الأولى في حياتي التي أحب فصل الصيف ربما لأن الفصول بقربك لم تعد تعنيني كثيراً فباتت السنة كلها أمامي فصلاً واحداً يدعى فصل الحب حيث يكون مناخه أحياناً ماطراً وأحياناً مجنوناً يتسلل فيه المطر وحرارة الشمس والرياح العاتية والورود الحمراء لتعزف لنا لحناً يجبرني على أن أراقصك قليلاً كي أمتص جنونك، أو كي تهبي لي بعضاً منه.

تمنيت حقاً مراقصتك هذا الصباح كان في داخلي وقع موسيقي

يجبرني على الرقص، خبأت طاقتي لليلتي هذه ودعوت ياسر للإفطار معي، كان قدومه سريعاً جداً ما لبثت أن رأيته على الباب يطرقه شخص مثل ياسر تحكمه معدته ولا يستطيع أن يخلف معها موعداً. كان أنفه يسبقه باحثاً عن ريح طعام دون جدوى «وين الأكل يا خالد صبحت ميت جوع وجاييك على لحم بطني» حسناً ادخل أولاً، ستأكل لا تقلق.

جلسنا نتناول الفطور معاً وبدت على وجهه ملامح الشبع أو شيء كذلك، صرخ في وجهي بعد أن اكتسب وجهه صبغة حمراء «الله لا يوطرزلك ناوي توقعني ميت الليلة؟ فلفل على الصبح؟» أخذنا الضحك بعيداً ثم قلت: «يا زلمة كل يجعل لا حدا حوش».

ـ يبدو أنك فرح هذا الصباح، ما الذي جرى معك من بعد رحيلي؟

ـ شكلك لا تعرف أن أخاك صريح ولا يخشى أن يتحدث بصدق؟

ـ يا رجل، لا تلمع نفسك أمامي أنا أعرفك جيداً، تريد أن تقنعني بأنك لم تكن خائفاً؟

ـ قليلاً، بعض الشيء لكنني قلت لرنين كل شيء ومضى كل شيء بخير.

ـ الحمد لله إذن.

هكذا أنا سعادتي كما حزني ترتسم على وجهي قبل أن أخبر بها أحداً، نعمة عليك حين تتكلم عليك ابتسامتك ونقمة إذا ما ثرثر حزنك قليلاً تماماً مثل كمنجات إسبانيا يفضح لحنها صاحبها أياً كان، أقر اليوم بأن وجهي آلة موسيقية تظهر ما في داخلي دون كلام ومن لحن تقاطيع وجهي أبرز حالتي.

اعتذرت لياسر لأنني لم أعره اهتماماً حينما حدثني عما جرى له مع خلود وطلبت منه أن يخبرني أكثر بما جرى معه في الوطن، فقد كنت حقاً بحاجة إلى سماع بعض الأخبار عن وطني، الذي تصر محطات التلفاز على أن لا تظهره بوجهه الحقيقي، ربما لا يرغبون في إظهارها خوفاً عليها من الحسد أو حفظاً للسلام العالمي كي لا تتأزم أمور العالم إذا ما ظهر صوت فلسطين ورفع عن معاناتها غطاء الهدوء. قال ياسر حينئذ بأن الوطن قد تغير كثيراً وما عاد هناك صوت ينادي بالتحرك من أجله حتى داخل الوطن، وإن خرج فهو شحيح، صوت تولت فوهات البنادق إسكاته.

شعرت بالدهشة حينما تابع قوله بأن الناس قد بـردوا وأن الاقتحامات الدورية للأقصى من قبل المستوطنين لم تعد تحرك مشاعر الناس كما السابق، وأن هذا المسجد ما عاد يقف إلّا على قدر بعض السنتمترات من الأرض والأنفاق من تحته تبتلعه ببطء.

تيقنت حينئذ من نظرية لمدرس في جامعة ما قالها لي قبل زمن من الآن، أن إسرائيل لم تعد قادرة على تصفية الشعب الفلسطيني بالرصاص والبارود فاستعاضت عنهما بسلاح أشد فتكاً وهو الإعلام. فقامت بتخدير الشعب جرعة فجرعة دون توقف عن أعمالها لكن ببطء شديد، قامت بتفرقة الفصائل والأحزاب فيما بينها وافتعال التفجيرات في مقارها كي يختلط الحابل بالنابل وكذلك الشعب بعضه ببعض، ومن ثم قامت بحصر عدد المصلين في المسجد الأقصى تارة ما فوق

الأربعين وبعدها ما فوق الخمسين والآن من هو دون الستين ممنوع عليه أن يدخل هذا المسجد. وحتى النساء قاموا بمنعهن إلى أن اعتاد شعبنا هذا الوضع ثم قاموا بإغلاقه دون أي تحركات تذكر.

لم أسأم من وطني قط لكنني تجرعت من القهر قدراً كبيراً يجعلني أغلق أذني كلما سمعت شيئاً عن فلسطين، التي حتى في نظر بعض العرب أصبحت معادية لا لشيء بل لأنها لم تطلب سوى السلام.

فرحت جداً حينما استطاع ياسر العثور على تردد قناة فلسطينية كانت حينئذ تعرض اجتماعاً لبعض الرؤساء يتشاورون في وضع فلسطين وأول ما خطر في بالي حينئذ قبل أن أغلق التلفاز بيت لإبراهيم طوقان يقول فيه: « في يدينا بقية من بلاد، فاستريحوا كي لا تضيع البقية» آه لو استرحتم منذ البداية لكان بقي لدينا أقل القليل من هذه البقية لنتوارثها بين أبنائنا، أما الآن فلقد أضعتم الإرث الصغير مقابل سلامة أحذيتكم. حدثني ياسر بعد هذه الأخبار المقيتة أنه التقى خلود داخل القطار دون أن يشعر بأي شيء تجاهها بعدما رأى طفلها إلى جانبها، سلم عليها وتبادلا الحديث معاً وانتهى كل شيء بسلام، بعدما علمت القرية بأن ابنها ما زال حياً والتقوه جميعاً مقبلين رأسه ومعتذرين له عن نسيانهم السريع لأمرهم.

أجمل ما قاله ياسر بأنه التقى أمي وأنها الوحيدة التي عرفته منذ أن وصل إلى القرية ودعته للعشاء في منزلي وأخبرني أنها مشتاقة إلى رؤيتنا معاً نلعب بالأراجيح كي تصرخ بوجهنا قائلة: «يا قرود لتوقعوا

مش ناقصنا فوق البلى بلى». هكذا هي أمي تستذكر أجمل اللحظات المشتركة بيننا وتنسى مشاكساتنا السابقة، كم اشتقت إليك يا صاحبة القلب الأبيض.

ـ أتذكر يا ياسر قديماً حينما تتبعنا تلك الفتاة الجميلة مغدقين عليها بعض أشعار الحب التي كنا نشتريها من صديق لنا في المدرسة كي نسمعها إلى بعض الفتيات؟

ـ لا، لكن أذكر يد والدك الضخمة التي نزلت على ظهورنا حينما اشتكته من تصرفاتنا، وكأنني تلقيت تلك الضربة بالأمس.

ـههه، آه على تلك الأيام، مائة ضربة من والدي على الظهر مستعد كي أدفعها ثمناً للعودة طفلاً.

ـ «تراك حنيت للمشاكسة يا ولد؟».

ـ لا، لا والله رح كون عاقل أي بس تزبط ونرجع يا زلمة.

انتهت جلستنا المفعمة بذكريات مشاكسة الماضي سريعاً وانصرف ياسر إلى منزله، خطر في بالي حينئذ أن أكمل قصة سراب الياسمين من وحي خيالي ريثما يحل الليل كي نذهب أنا ورنين إلى حفلة ما، دارت في بالي مئات الأحداث عما قد يكون سبب خروج ياسمين من حياته، كما بدا على وجهه حينما التقيته في المطعم، فكرت أن ألقي اللوم كله على ياسمين وأنسب إليها الخيانة المشفوعة بالقبلة التي أعطتها لخطيبها السابق أمام عيني جوزيف، لكن تساءلت إذا ما كان الحب يقبل التعاطي مع التصرفات الانفرادية؟ وهل لم يخطئ ذلك الرجل بحقها قط؟.

لم أكن لأدري أي طابع أعطي هذه القصة، فمهما بلغ تخيلي فلا أخاله قد يصل إلى تلك المأساة التي باغتته قبل زمن طويل، وما زال يتمنع عن إخباري بما جرى. ضعت بين عشرات التصورات التي لم تخرج على الورق الذي أمامي قط بعد أن يئست تماماً من إكمالها، هي قصة حب محرم على البشر معرفتها ربما غموضها هذا هو ما زادني شوقاً إلى معرفتها، لكن هناك قصصاً لم تكتمل بعد ولم تنته حتى الآن ودفن ما في داخلها من أمكنة وأزمنة كي لا يموت البشر وجعاً إذا ما عرفوها. وجع ماض لكنه ما زال حاضراً حتى هذه اللحظة يمشي مع خطوات جوزيف ويؤلمه مع كل وطأة قدم ويلحقه حتى وسادته على شكل دمع متسلل من بين عينيه، ربما لا أعلم بالضبط ما الذي تفعله في منزلك في هذه الأثناء، لكنني أعي تماماً شعور الوجع وما قد ينتج منه من صراعات داخلية وأزمات لا ترحل إلّا بعد فيض من الدمع.

بدأت السماء ترسم الغيوم بجوفها وكل ما في المدينة يتراقص من شدة الرياح، حتى البشر من خلف نافذتي أرى ثيابهم تتراقص غصباً عنهم، كم أحب جو هذا المكان، كأنه يزورني بعد كل وعكة تصفع جسدي يخبرني ببعض الحكايات التي لا تسمع، لا ترى بل تشعر فيها فقط. كان المطر هذه المرة يخبرني قصتي أنا، قصتي وحدي دون تطفل عليها من أشخاص آخرين ودون اختلاطها بأي حكايات سابقة، تحاكيني وأنا أصغي من خلف النافذة إلى صوت المطر، صوت المطر؟ نعم صوت المطر فالمطر يرى صوته ولا نراه، نشعر فيه دون أن نرمق

مجسمه الحي يلامس قلوبنا دونما أن يدخل فيها. كم يشبهك يا رنين، لامسك قلبي دون أن تلمسيه، آه لو تعلمين أن هذه القطرات تروي لي حكايتي معك وتبشرني بأنك ستبقين داخلها دوماً، جاءت تنبئ كوب قهوتي بأن مستقبله له اثنان سيتقاسمانه، فيا لحظ كوبي الذي سيقبل شفتيك أكثر مني، أتعلمين؟ عقدت تحدياً مع المستقبل بأن أشرب شفتيك أكثر مما تشربين أكواب ماء في اليوم الواحد ولو علمت بذلك لصمت تماماً بعدما ستقولين لي: «مجنون».

أجمل ما في هذا المساء هو شعوري بأنني بت أعرف بكل الكلمات والأفعال التي قد تتصرفين فيها، بت أفهم نظراتك سريعاً وأسبقك إلى ما ستقولين، كل من كانوا قبلي أطلقوا على مثل هذه الحالات اسم لعنات العشق، أما أنا فلا أستحسن لفظ اللعنة قربك حتى ولو كانت لعنة عشق، فهل لي بالخروج عن مسميات الأساطير وأسمي كل ما يحدث لي معك عشق العشق؟ فمن مثلك لا يكفيه عشق واحد ويظلم إذا ما قيل عن عشقه لعنة، فأنت العشق الذي يولد من عشق، الحياة التي تولد من حياة الأمل الذي ولد في هذا المكان البعيد عن مولدي، لذا فليشهد العالم أني الآن قد ولدت بعد مخاض مع الحياة دام ثلاثين عاماً، ها أنا بعامي الأول الآن وسأجهز نفسي للرقصة الأولى معك بعد ساعة.

بعثت برسالة هاتفية لك «مشغولة أنت»، رددت عليّ سريعاً «لا، ليش» كتبت «ببالي أرقص»، كنت متأكداً أنك ستردين عليّ بكلمة

واحدة كما التي أرسلتها لي تماماً «مجنون» توقعت رداً كهذا ونزلت من بيتي تحت خضم المطر بعد أن فتحت النافذة المطلة على البحر ووضعت عليها مشغل الموسيقى، ذهبت إلى بيتك مصطحباً إياك، كنت حينئذ مرتدية بيجامتك والمطر يتسارع بالنزول ويضرب البحر بلطف.

ـ الجو بارد يا مجنون ماذا تفعل؟

ـ أريد أن أرقص.

ـ هنا؟

ـ نعم هنا، استمعي إلى الموسيقى، فقد وضعتها قرب النافذة خصوصاً كي تصلنا بعض الألحان.

ـ أقسم بالله إنك بلا عقل.

ـ اصمتي يا كثيرة الكلام وارقصي معي تحت المطر.

أتساءل هل لليلة كهذه أن تنسى؟ رددت بصوت خافت ويداها على كتفي:

ـ أهذا هو العشق؟

ـ لا، بل هو أكبر من ذلك.

ـ ألم نصله بعد؟

ـ لا.

ـ وكيف هو؟

ـ حبيبتي، العشق لا يحكى هو أكبر من أن يوضع بين كلمات أو على رسم ما، العشق من أجمل مشاعرنا التي لن نستطيع أن نصفها،

العشق تماماً كالموسيقى الأجمل التي نسمعها صدفة مرة واحدة ولا نعرف اسمها ولا مؤلفها لكن إذا ما صادفتنا يوماً وسمعناها مجدداً فسنغلق أعيننا بصمت ونشرد من حدود أجسادنا فيها وسنمضي العمر نتمنى أن نسمعها مرة أخرى.

لم أكن أرغب بأن تكثري من الكلام معي، فكان في داخلي تلك اللحظات شيء من الصمت الناطق، مكان كهذا وبحضرتك لا يليق به الكلام، الصمت فقط هو ما يتلخص داخله كل العشق والمشاعر، فلتبقي صامتة يا حبيبتي ولا تفقديني لذة الكلام مع مقلتيك، لا تعري أسنانك مطلقاً وابقي كما أنت تغريني بغموضك الشهي، تحدثي بصمت دون أن تسمعك أذنك، أفصحي لها عن كل ما تشعرين به تجاهي، يأسرني سكونك المكلل بالحركة ويودي بي قتيل عشق كلامك الصامت هذا، فاتركيني أموت قليلاً.

بقينا تحت المطر نرقص حتى بعد أن ابتلت ثيابنا تماماً وكل من كانوا على النوافذ لا يتفوهون سوى بكلمة واحدة «Maniacs»، نعم مجانين إنهم محقون لأنهم لم يشعروا بروعة الجنون الذي انتابنا في تلك اللحظات ولم يتوحدوا مع المطر والموسيقى من قبل كما فعلنا الآن، ولو كان بمقدور رجال الحي كلهم أن يرقصوا معك لما ترددوا البتة دون النظر إذا ما كنت عربية أو غربية، فالجمال لا عرق له ولا انتماء، أتعلمين تلك الرغبة الملحة لدى الطفل في شراء لعبة ما فيأخذ بالبكاء أمام أمه كي تشتريها له؟ هذا هو ما كانوا يشعرون به.

أذكر أنني قطفت لك زهرة نرجس حينئذ وطلبت منك أن تحتفظي بها.

ـ هذه هي المرة الأولى التي أقطف فيها النرجس.

تعجبت مني جداً وبدت على وجهك علامات الاستغراب. تابعت حينئذ قائلاً بأن كل الورود مسموح قطفها في قاموسي إلّا النرجس، أنا إذا ما وجدت نرجسة أغدق عليها الماء والحب، أضعها إلى جانب نافذتي، وأشرب قهوتي الصباحية ناظراً إليها، وأجبرها على أن تتراقص على أنغام مقطوعة أحببتها فتمنحني عبيرها شاكرة، كوني النرجس يا رنين ولا تكوني غيره، كوني النرجس كي أكون لك التراب الذي ينبتك والماء الذي يحييك.

ذهبنا إلى المنزل معاً بعد أن سلب المطر منا النوم لنكمل سهرتنا تلك في أجواء دافئة كما طلبت، كم كنت شهية حينما أخذت بتحريك رأسك بسرعة كي تحرري شعرك من القطرات العالقة به، ثم ذهبت مبللة تجففين ملابسك أمام المدفأة كعصفور سقط في بحيرة وارتفع إلى أعلى نقطة بعد أن نفض نفسه كي يلتقي الشمس ويجفف ريشه.

أخذنا ننظر من خلف النافذة بعدما توقف المطر وحينئذ قلت لي: «حسنا إذن سأرحل الآن».

ـ لكنها ستمطر الآن.

ـ وماذا يعني هذا؟

ـ تعالي اقتربي مني عند النافذة.

ـ حسناً؟

ـ أحبك، انظري ها قد أمطرت كما طلبت مني، خالد لا ينسى شيئاً.

نظرت إلي حينئذ مبتسمة بعد أن طبعت قبلة سريعة على شفتي وقلت: «كنت أعلم أنه آن لها أن تمطر، آه وأخيراً رحلت عنا ملامح المطر تلك وجاء كما تريده».

ـ هل تودين الرقص مجدداً؟

ـ نعم.

ـ ماذا ترغبين بأن تسمعي؟

ـ أعطني لحناً يصلح بأن يراقص جسدي يا عزيزي، أريد أن أسمع مقطوعة تصلح لكل راقصي العالم، راقصني تانجو وسالسا و«شرقي»، أريد لحناً يوقعني بالحب معك أكثر، لحناً يكون الشاهد الأساسي على حبنا، أريد لحناً يكون الأشد عبثاً بدقات قلبي، أو دعك من كل هذا وراقصني من دون لحن.

ـ مجنونة أنت.

كانت شعلة الحب متوثبة في عينيك لحظتئذ وكأنني للمرة الأولى أخبرك بحبي، كررتها عليك مراراً فما الذي يختلف الآن أهو حصولي على شهادة منك بأنني أجيد التنبؤ بالأحوال الجوية؟ نظرتك إلي تلك كشفت لغز المطر هذا، علمتني وأنا أنتظر المطر أن الحب أفعال متلاحقة تكشف عنه وليس بكلمة أحبك، علمتني أن الحب أكبر من أن

يكون داخل إطار بأربعة حروف، وأن هذه الحروف ستفقد جماليتها ومعناها إن أصبحت تلفظ في كل وقت وفي كل حين.

مثل القهوة الحرام سيزال عنها وصف الحرام إذا ما شربها الجميع، معك وحدك أيقنت أن الحب ليس للجميع ولكل عاشق قهوته الحرام الخاصة به، بعضهم اختار أن تكون بكلمة وبعضهم قرر أن تكون بقبلة، أما أنا فقررت معك أن ننتظر موسم المطر كل سنة كي نرتوي من الحب وإلّا كما المطر سيكون ملامح مطر، فالحب إذا أفرط فيه فسيصبح ملامح حب.

أعلنت كلماتي تلك الإقامة الجبرية عليك في منزلي تحت حراسة مشددة من المطر كلما حاولت الخروج يبدأ بزعزعة استقرار خصل شعرك، كم عشقت المطر حينما بين لك بعد منزلك عن بيتي وأنه عليك إذا ما رغبت في العودة إليه أن تمنحك السماء حماماً فاخراً طوال الطريق، للمرة الأولى تتحدين يا بياريتز مع عواطفي وتلبين رغبتها.

تعجبت منك حينما سألتني العودة إلى الوطن. كنت أظنك تريدين مني الرحيل لكن تبين لي أنك كنت تريدين لنا الرحيل، فرنسا ضاقت بك إذاً؟ بقيت طوال الليل تقنعينني بالعودة والاستقرار في فلسطين، وأنك على كل حال ستزورين فلسطين للمرة الأولى بسبب عودة أمك إليها ورغبتها في البقاء فيها.

ـ أنت من يافا إذن؟ كيف لم يخطر ببالي أن أسألك من أي مدينة أنت.

ـ ها قد عرفت الآن، نعم أنا يافاوية أباً عن جد.

ـ يا مرحباً بأهل يافا.

إذن كان سبب دهشتي بجمالك أول مرة أراك فيها هو أن فيك بعض الروائح العالقة من برتقال يافا، مدينتي المفضلة التي لم أعد أذكر منها سوى بحرها فقط وبعض أصوات أمواجه، كانت آخر مرة زرت فيها هذا البحر حين كنت في السابعة من عمري ومن بعدها منعنا حائط كبير من الوصول إليها، يا يافا أنا متأكد بأنك تعرفينني جيداً كما تعرفني فتاتك هذه ومتيقن أن بحرك يشتاق إلى حراك قدمي على شاطئه والعبث برمله، تسكنين في داخلي يا يافا دون أن أدخلك لكنك تذكرتني بحبة برتقالك التي تجلس أمامي الآن فشكراً يا يافا على هذه الهدية، هل لي أن أكرم مدينتك يا حبيبتي وأسمي عينيك يافا؟ إن سمحت لي فلن يغيب ذكرها عن لساني أبداً فهل أجمل من أن تتلخص مدينة كاملة ببحرها داخل عينيك؟ إذا ما وافقت فسوف تعبد يافا عينيك وسيحتضنك بحرها حباً وشكراً لك على تخليدها ومزجها بأعضاء جسدك.

ـ أنا موافقة على هذا، كن مثلي مطيعاً ووافق على الرحيل.

ـ عزيزتي هل أنت متأكدة بأنك ترغبين في الاستقرار هناك أم هي زيارة ؟

ـ ما رأيك أن نقرر هناك؟

ـ لا أعلم.

ـ سأصعّد الإجراءات ضدك إن لم توافق وسأخصم من عدد الساعات التي تراني فيها.

ـ أنت راتب إذن؟

ـ راتب؟ هذا ما استطعت قوله؟ أنا حياة يا رجل، هل سترتضي أن تقلل من ساعات حياتك؟

ـ حبيبتي أنا أمازحك، أنت اطلبي فقط وأنا عليَّ التنفيذ.

ـ إذاً موافق؟

ـ حسناً، وسأعرفك إلى الوطن، أتقبلين أن أكون دليلك السياحي؟

ـ بل دليل قلبي.

دومًا تأسرينني بكلامك المختزل، هذا الذي هو أروع من جميع لفافات الشعر التي وجدت على شاطئ الحب، كلمة أو اثنتان كانتا لي كمعلقات قيس وقصائد نزار.

سنهاجر من هذه المدينة وستبقى شاهدة على جنوننا المشترك، من قبل موعد الرحيل بدأت أشتاق إليها فكيف لي بأن أنسى المكان الذي احتضن لقاءنا الأول والذي شهد على مولد حبنا وشاهدت جدران منزل من منازله قبلتنا الأولى التي التقيت فيها أبطال قصة ظننتها محض أسطورة خيالية.

أخذني منك النوم سريعاً ليلتئذ وحينما توثب الصباح وجدتك

على الكرسي أمام النافذة تشربين القهوة وتداعبين خصل شعرك وتطالعين الأبراج في جريدة الصباح، اقتربت منك دونما أن تنتبهي ووضعت يدي على عينيك قائلاً «هل ذكرني برجك إذن» قلت ممازحة إن برجك يخبرك أنك قد تلتقي الحب قريباً، لا تتردد وافتح له الأبواب لكن لا تتسرع باتخاذ القرارات.

أخذت ألقي عليك بعض التعاليم كي تتعاملي مع الحب حين يطرق بابك وما الذي يجب عليك أن تقوليه في وجهه، طلبت مني أن أدربك أكثر كي تستعدي، وقلت لي أن أخرج وأطرق الباب، فتحت الباب وقلت: «مرحباً أنا الحب هل أجد عندك بعض الطعام». تعالت ضحكاتك، كان صباحنا هذا في قمة السعادة والهدوء، قلت بأنك دعوت كل الأصدقاء الليلة كي نطلعهم على قرارنا هذا، حينئذ جلسنا كلنا أمامك وأنت تصولين بالمنزل وتبعثرين شعرك وتتحدثين بنبرة سعيدة «لقد عزمنا على أن نعود إلى الوطن الأسبوع القادم، قررنا ذلك بالأمس». كنت مصدوماً بموعد السفر كالبقية فلم تخبريني من قبل بأننا سنرحل الأسبوع القادم، لم اخترت هذا الموعد بالتحديد؟ بل تكلمت بثقة كأنك أطلعتني عليه وأنني لن أرفضه.

صدح صوت ياسر بالرفض بحجة أن الأوضاع الآن متأزمة في فلسطين وقد تكون مخاطرة منا إذا ما قررنا الذهاب في هذه الفترة. كان كلاهما فوق رأسي، واحد يقنعني بالسفر والآخر ينصحني بالبقاء، سألت جوزيف رأيه «إن كنت تريد أن تسمع قولي فأنا برأيي أن تعود

إلى وطنك فليس هناك ما هو أجمل من الوطن، أنا لو خيروني ما بين فرنسا وأي دولة فبالطبع سأختار فرنسا حتى ولو كان فيها الكثير من المجازفة والمخاطرة».

ـ أنت محق لأن بلدك فرنسا هادئة ولن يكون فيها مخاطرة كما فلسطين.

ـ ياسر لا تسئ فهمي ليس هذا ما كنت أقصده بل إن الحياة بوطن قاس أجمل ألف مرة من الغربة.

ـ لا تتشاجرا الآن أرجوكما، سنرحل الأسبوع القادم إلى فلسطين أنا ورنين وقد نعود إذا ما وجدنا أن الحال صعب هناك.

ـ لك الحرية يا أخي وآسف على النصيحة.

بدت على وجه ياسر الغصة من قراري السريع وأخذت تعابير وجهه تتغير ربما لأنه إذا ما رحلت فلن يبقى له أحد هنا وسيعود ميتاً بحكم الغربة من جديد، قبلت رأسه واعداً إياه بزيارته بين كل حين وآخر لكن وجهه ما كانت لتنزاح عنه ملامح الحزن. رد عليّ بصوت خافت « كل ما في الأمر أنني خائف عليكما يا صديقي».

قلت بنبرة ممازحة: «يا رجل لقد تعودنا أجواء فلسطين، لا تقلق إن حدث لنا شيء فنحن لسنا أفضل من غيرنا، أنا ابن ذلك البلد يا ياسر لم تحدثني وكأنني غريب عنه؟».

ردد كلمته نفسها قبل أن يرحل «لك حرية الاختيار وآسف مرة أخرى على النصيحة».

ـ حسناً إذن يا خالد ونحن سنرحل أيضاً إذا ما احتجت إلى شيء كلمني.

ـ شكراً لك جوزيف، كونوا بخير.

كانت المفاجأة الثانية لي بأن رنين قد تخرجت وذهبت لإحضار شهادتها دون أن أعلم، سعدت بعد أن عادت إلى المنزل ومعها شهادتها، لم تختلف كثيراً، فكما هي متفوقة بالحب نالت أيضاً درجة الامتياز في القانون، حسدتك جداً حينئذ بعد أن أرجعتني إلى السنة الأخيرة لي في جامعتي حينما فشلت في معظم المواد متذرعاً أمام أهلي بأنني أعمل فكيف لو علموا أن فتاة تعزف وتدرس وكانت تعمل نادلة في مطعم وهي عضو في جمعية تحصد من جامعتها الامتياز من أول مرة.

ـ سيادة المحامي هل لك أن تساعدني في قضيتي؟

ـ أي قضية؟

ـ ما حكم القانون الذي يقع على من يسرق؟

ـ وفق البنود السارية فإن كانت سرقة بسيطة يسجن ستة أشهر وإن كانت سرقة كبيرة قد يسجن سبع سنوات أو حتى أكثر.

ـ تعرضت لسرقة كبيرة جداً لم أخبر بها أحداً من قبل فهل يحكم على السارق بالمؤبد؟

ـ لماذا لم تخبرني من قبل، أعرف محامياً بارعاً جداً يستطيع أن يبقي على السارق في السجن مدى الحياة.

ـ كلميه إذن

ـ لكنك لم تخبرني ما هي هذه السرقة؟

ـ قامت فتاة منذ سبعة أشهر تقريباً بسرقة قلبي وسجلته باسمها فهل يستطيع أن يحكم عليها بالسجن قربي مدى الحياة؟

ـ عزيزي، قضية كهذه لا تحتاج إلى محامٍ، هي تريد أن تسلم نفسها لسلطاتك وتبقي عليها في سجنك، أخال هذا أحب ما على قلبها.

سجينة أنت إذن خلف أسوار قلعتي ومغلقة عليك الأبواب لئلا تخرجي، أحمق أنا، بدلت دوري بالسجين كي أصبح السجان، دعينا من لغات السجن والقانون وسأكلمك بلغة العصيان العاطفي الذي أحب، يا أنت فلتشهد بأن الحب معك قرار تعسفي أشبه بقرارات الهدم الإسرائيلية، قلبك منطقة محظور البناء فيها ليس لأنه خطر أو قد يعبث بقضايا الأمن القومي، بل لأنه الرقعة الوحيدة الأشد أمناً كما هي أشد خطراً، الأكثر نقاء، والأكثر ظلمة، الأشد جمالاً، والأكثر بشاعة إذا ما خنتك يوماً، بك يجتمع المنطق واللامنطق، بك يجتمع السلام والحرب، الشيء واللاشيء معاً، أشهد أن الحب بحضرتك موت لبقية المشاعر وأشهد بأنه لم يهدم قلبي من قبل، وأشعر بأن الحرب الحقيقية في العالم لم تبدأ بعد وأن الثورة بحاجة إلى بيان يصدر من بين مقلتيك ليخرج الثائرون لنجدتك من غطرستي في الحب، الحب معي قد يؤدي إلى موت سريري أو فشل يصيب أنسجة الدماغ أو حتى سرطان من نوع جديد يصيب العاطفة ويأسرها في روحي، فلم يسبق لأحد أن أحبك

بتطرف مثلي وأعلن من هنا على أطلال عينيك وأقسم بشرف أنوثتك وبقدسية خصل شعرك أنه لن يكون لك مني الخلاص، وبأنه لن يكون لك مني سوى الحب كل الحب.

ذهبنا في صبيحة اليوم التالي كي ننتهي من إجراءات السفر وإحضار بعض الحاجات لأهلنا، امرأة غاوية للعطور أنت، أذكر أنك اشتريت سبع زجاجات عطر، واحدة لأمك وواحدة لخالتك وخمساً لك كي تقتليني بها، أما أنا فأخذت بعض الشوكولا والملابس. كانت شوارع المدينة خالية بقدر ما فيها من مارة، هي ليست بفلسطين كي تحزن على خروجي منها فلماذا هذا الحداد الذي أعلنته أم أنها أزالت كل مراسم الجمال عن أرضها وكأنها تستعجل رحيلي عنها؟!

وصل كل منا إلى منزله يوضبه استعداداً للرحيل، لنقل الحب من مكان إلى مكان، عشرات آلاف الأميال دونما أن يصاب بخدش. أعي تماماً حجم المخاطرة المترتبة على العبث بمكنونات الحب ونقلها لكنك كما قلت في ذلك النهار لن يستطيع أحد بأن يدس السم في كوبنا ولن تقوى العادات البالية على نزع أغطية سماوية اتخذناها سقفاً للحب، ولن يسحب من تحتنا أحد بساط أرض مملكتنا الصغيرة؛ فالحب إذا ما عرف السماء يوماً لن يهوي إلى الأرض، لن يسقط من قبل نجم سكن في جوار القمر ولو لبرهة، أحسست بأني تلك الشهور المنصرمة كنت أنا النجم المميز الذي يسكن في جوار القمر ويزيد من نوره وهجاً وهكذا كنت قربك تزيدينني درجة أو اثنتين على كل عابري الطرق وأسكن في جوارك.

ذهبت صوب الهاتف كي أكلم أمي مخبراً إياها أن تعد الفطور بعد يومين لأنني سأتناوله قربها، كانت فرحة جداً، سمعت صوتها وهي تخبر أبي ونسوة كن عندها بأنني قادم. كانت تزغرد طرباً بعودتي.

ـ والله مشتاقلك يما ومشتاق لأكلاتك.

ـ حبيبي وأنا أكثر أنت تعال وشو ما بدك رح توكل.

دائماً ما تكون العلاقة الظاهرة بين الابن والأم علاقة معدة جائعة، هي أول ما تسأل ابنها عنه «هل تناولت الطعام؟» آه يا أمي تخافين على معدتي أكثر مما تخافين على نفسك، وددت لو أنني أستطيع أن أقفز لها من سماعة الهاتف محتضناً إياها.

ـ يما تدفى منيح وما تحكي مع الغربا.

ـ يما أنا كبير تخافيش علي.

ـ اسكت قد ما يشط طولك وتشيب حتضل عندي ولد صغير.

ـ حاضر يما صغير ونص كمان.

ـ الله يرضى عليك.

رضي الله عنك، كلمة تنبثق من عبق الجنة لتوهب للحياة حياة من جديد، كم أشعر بالراحة حينما تنطقين بها يا أم خالد فأرى أن كل الأبواب المغلقة قد فتحت لي وبأن قناع البؤس إذا ما حضرني تطردينه بكلماتك هذه.

بقيت طفلاً مدة ساعتين عبر الهاتف في حضن صوت أمي وما كدت أغلق السماعة حتى جاءتني مكالمة جديدة، صوت البحة

الفلسطينية الملأى بالمشاعر المتضاربة ذات الصوت المجنون الذي أوقعني بالعذاب في الفترة الماضية، كان هذه المرة أكثر جموحاً وأشد وجعاً وأوقع عليَّ عتب العشاق يلومني على انقطاعي عنه.

بصوتها سكنت نفسها في منزلي تراءت لي وكأنها فرس عربية تبحث عن فارسها الذي أسقطته عن ظهرها عمداً، لم تكن تتكلم عبر الهاتف بل كانت تصهل.

ابتلعت ريقي ومعها المشاعر المزيفة التي تحضرني ليلاً فقط وقلت بأن كلامي معك تلك الليلة كان مجرد عتاب ولم أقصد من ورائه الحب قط، ضحكت حينئذ بصوت عال مستغربة أنني أتكلم معك هكذا في الليل، استغربت صلابتي التي عادت لتبقى حتى بعد مغيب الشمس، هناك أشخاص تنزع بمعرفتهم عقارب الساعة وتقاطيع وجه السماء فلا يعود من المهم إن كانت معتمة أو إن كانت في وضح النهار، يغنيك عن أسرة الهاتف وعن غرائزه الحيوانية وتكبح شهوتك حفاظاً على ماء وجهك الذي سيفضحك في النهار التالي، كنت أعلم برغبتك الشديدة كي تسحبيني إلى قعر حبك، صرخت بك حينئذ بأن تتوقفي فأخذت تنتقلين من موضوع إلى موضوع كي لا ينتهي الكلام بيننا.

تكلمنا طوال الليل معاً دون أن يغزوني الحب. كان كلامي معها أشبه بكلامي مع أي صديق، أخبرتني نهاية الليل في محاولة كاذبة منها كي لا تحرج أمامي بأنها ستخطب بعد ثلاثة أيام، كنت متأكداً بأنه ليس هناك أي خطبة لكنني مررتها لها بضحكة مسرورة.

ـ جميل إذن، أظنني مدعواً لحضور الخطبة.

ـ ستأتي؟

ـ نعم أنا ورنين.

ـ من رنين؟

ـ حبيبتي، ستحبينها كثيراً إذا ما عرفتها.

بقيت صامتة حينئذ دون أي كلمة وشعرت بالغيرة تبتلعك وكأنني حققت الانتصار عليك ورددت ما كان لي عندك من حزن وأعدت لنفسي ما وهبت لك من سعادة، أجمل ما قد يحدث للإنسان أن تعيد إليه الدنيا ما أخذ منه وأن تدور كعجلة تعيد لكل شخص ما وهب، لكن أتعين شيئاً يا هديل؟ أنا لم أجرحك قط كما فعلت معي ولم أقض ليالي بياريتز وأبوديس بالتفكير فيك أو الانتقام منك، قوانين الحياة هي من فعلت ولست أنا.

ـ لكنني لم أخطب كنت أكذب عليك فقط.

ـ ولكن أنا أيضاً لم أكذب وسأعود إلى الوطن مع رنين وقد أخطبها هناك.

ـ لم خنتني يا خالد؟ ألم نتعاهد بأن نبقى معاً دوماً؟

ـ هل حفظت العهد أنت؟ هل أدركت الآن فقط أنك تحبينني؟ وانتشلتني من سلة مهملات قلبك في محاولة لإرجاعي، فات الأوان ياهديل ودفتر حياتي لم يعد يحتوي على سجلات اسمك.

ـ أقله نبقى صديقين؟

ـ سأفكر في الأمر.

حب مثل هذا غسل المطر أمكنته كلها وأزال عن مقاعده الخشبية ما علق بها من آثار قهوتنا وما بقي فيها من ذاكرة اقتسمناها معاً والدمع غسل العين والقلب مراراً فلن أقبل بأن يحرق قلب مرة أخرى حتى ولو كان قلبك وحتى ولو كانت العلاقة المرتسمة بيننا في خطوط الصداقة.

أقفلت سماعة الهاتف وهي تبكي في محاولة أخرى منها كي تصطادني ببكائها، لم تكن تعرف أن عيناً لم تعد تعنيني لن يهمني بكاؤها كثيراً، كان بودي أن تمسي صديقتي لكنني أعلم تماماً أن صداقة كهذه من بعد حب لن يقرر لها سوى حب أكبر وعذاب أشد.

يجب عليك أن تكون قاسياً أحياناً من شدة الحرص فأنا لا أرغب لها في العذاب أبداً ولا يستعذبني رؤيتها تبكي بحرقة أمامي، أخذت قرار البعد النهائي عنك يا هديل فلا تلوميني الآن لأنك ستجدين لا محالة القلب الذي يرغب فيك وليس القلب الذي ترغبين فيه، ما فعلت هذا إلّا حفاظاً عليك ومتيقن بأنك بعد سنوات قليلة ستشكرينني بسرك على ابتعادي عنك، لا تلوميني لأنني لم أعد أصلح لك حبيباً أو خليلاً. قلبي الفضفاض لم يعد يرغب بأن ينتقم من أحد، سنلتقي في يوم من الأيام لكن ملامح الغربة هي التي ستكون ظاهرة، أتعلمين؟ لقد أثبت كذب نبوءات عشرات العشاق الذين قالوا: حينما تبتعد عن شخص يزداد تعلقك وحبك له أكثر، كذبوا فيها وبقي المثل الشعبي الأول «البعد جفا» لم يخلصني منك سوى ابتعادي عنك ولم أشف من سرطان حبك إلّا حينما وصلت إلى بياريتز أول مرة.

كنت قد تخرجت حديثاً في كلية التاريخ وذهبت في بعثة مع الجامعة كي نتعرف عن قرب إلى آثار هذه الدولة وهذه المدينة بالتحديد، حينئذ وجدت أن الحياة مختلفة تماماً عنا وأنها سهلة وسلسة وليس هناك خجل من أن تسأل أي فتاة عن الساعة أو إن كنت ترغب في احتساء قهوتك معها.

انطبعت بطباعهم واكتسبت تقاليدهم في الحياة وفي تسيير أموري واعتدت البقاء هناك ثلاثة أشهر كل سنة دون أن أرى أحداً من أهلي، تناسيتك في السنة الأولى ومحوتك من ذاكرتي في السنة الثانية، إلى أن أوقعني الحب مع فتاة مثلك فلسطينية أجبرتني على تقديس عاداتنا التي مقتها بداية وأعادت إلي قيمة القهوة التي كنت أحتسيها مع شريك في الوطن لا وحدي، كم استعذبت القهوة من بعدك وأمسيت لا أشربها إلّا بحضرتك، زرع حضورك الدائم في موعد قهوتي؛ لمنزلي روتين إذا ما كسرته يوماً وشربتها أشعر بالخيانة، كل ما في الكون أصبح أجمل من بعد رنين، لم أرقص من قبل كما فعلت معها وكتبت بقربها كأنني لم أكتب من قبل، وهبت لي كل الحياة بل جعلتني وليد الحياة ونصبت نفسها بكل ما أحتاج إليه، كانت الأم والحبيبة والجدة وزهرة نرجس إذا ما رغبت بأن تكون كذلك.

مضت ليلتي هذه سريعاً أو مضى ما تبقى من آثار ليل بها بسرعة، أعددت كوبين من القهوة واحداً لي والآخر لرنين وجلست أطالع جريدة الصباح ريثما تصل إلى هنا، للمرة الأولى تتأخر عن موعد لها،

قاربت الساعة العاشرة، وبعد ساعة من الانتظار اتصلت رنين مخبرة إياي بأنها لن تستطيع رؤيتي اليوم وغداً لأنها ستذهب لقضاء الليلتين المتبقيتين مع صديقاتها في ستراسبورغ كي يودعنها.

ـ سأمضي يومين بدونك إذن؟

ـ حبيبي، يجب أن أودع صديقاتي قبل أن نسافر.

ـ حسناً، حدثيني حينما تصلين.

ـ إن شاء الله، أحبك.

شعرت بشيء من الوحدة، لم يخطر ببالي حينئذ أحد سوى ياسر، شيء ما جعلني أحدثه معتذراً له بداية عما إذا كان حزيناً بسببي ومخبراً إياه بأنني قد قررت أن أقضي الليلتين الأخيرتين معه في منزله. كلمته طالباً منه العنوان كي أزوره، بادر بالرفض وقال: «أنا سأزورك إن شئت لا أريد أن أتعبك بالمجيء» وبعد محاولات طويلة بتوسلي إليه للذهاب إليه وافق أن يعطيني العنوان، حزمت حقائبي وتركتها جانب الباب واتجهت نحو بيته، كانت المسافة بعيدة جداً فشعرت بالذعر حينما رأيت منزله الذي كان عبارة عن غرفة فيها سرير واحد وحمام ومطبخ صغير، كان منزله في حالة يرثى لها، فكرت أنه يمازحني بقوله إن هذا مجرد بيت مهجور أحب أن يستقبلني فيه.

ـ أنت تسكن هنا حقاً؟

ـ نعم.

ـ يا رجل أنفق قليلاً من مالك المكدس واشتر بيتاً يليق بك.

شعرت بغصة في حلقه بسبب كلماتي تلك، قال بحشرجة في صوته: «هذا كل ما أملكه يا صديقي ولهذا لم أرغب في استقبالك هنا».

ـ لكنك موظف في المطار وبالتأكيد راتبك جيد.

ـ أتلقى مائتين وخمسين يورو فقط.

حدثني أنه كان يملك رصيداً جيداً في المصرف وعقد شراكة مع اثنين تعرف إليهما كي ينشئوا مشروعاً ضخماً، لم يخبرني بالتفاصيل التي حدثت لكنه قال بأنهما نصبا عليه وغادرا، كان يتكلم وأنا أنظر إلى سريره الرث وجدران منزله العفنة، كادت دموعه تسيل من عينيه، لم أعهده يبكي من قبل، ربما لأن الفقر هو السبب الوحيد الذي يستحق البكاء وربما لم أر بكاءه من قبل لأنني لم أسأله يوماً عن حاله.

حاولت أن أزيل القليل من حزنه وأشاركه في كوب من القهوة.

ـ ياسر كيف تحب القهوة؟

ـ أي شيء.

ـ سادة؟

ـ أتعلم؟ حتى مذاق القهوة لم يعد يعنيني أياً كانت درجة حلاوتها أو مرارتها، ربما حياتي هذه هي التي جعلتني أتقبل كل شيء أياً كان أخسر ما أخسر وأفقد ما أفقد فلم يعد يهمني الأمر كثيراً فالحياة التي أعيشها الآن هي بقايا حياة ليس أكثر.

تذكرت أيام المدرسة كيف كنت صاحب المصروف الأعلى بين أصدقائنا، كنت أنت الولد المدلل لدى أهلك وتغدق علينا الطعام

والمشروبات في فترة الراحة بين الحصص، لم أظن ولو للحظة أنك هنا في فرنسا تعيش حياة مقيتة ومرة بسبب شراكة مع بعض المخادعين خسرت كل مالك! لوهلة فكرت أن شركاءك جنود أوروبيي الأصل لم أتوقع قط بأن يكونوا عرباً مثلنا، كانت هذه هي الصدمة الكبرى التي وقعت على مسمعي وهي أن يقتلك من هو من أهلك في أرض الغربة.

آه كم كنت مقصراً بحقك يا صديقي أنت الذي كنت إلى جانبي دوماً لم ألتفت يوماً إلى عيشتك، ابتلعت مرارتي أمامك وقلت مجاملاً لك: «يا زلمة أحلى نومة عندك أنا بنام عالتخت وأنت على الأرض» ابتسم بسمة ملأى بالقهر وتنهد ثم قال: «حسناً، كما تريد».

تعمدت ليلتئذ أن أضع له بعض النقود تحت وسادته وأخذته صباح اليوم التالي إلى منزلي كي لا يلاحظ ذلك إلّا حينما أسافر، كنت أعلم بالقدر الكبير الذي يملكه ياسر من عزة النفس وكنت متيقناً إذا ما علم بالأمر أنه سيعيد المال إلي.

رغم مرارة اليومين المنصرمين إلّا أنه لم يحدث فيهما أي شيء يذكر سوى علمي بكيفية عيش ياسر، وفي اليوم الأخير لي هنا فوجئت منه حينما أخذني إلى المطبخ قبل أن أسافر معطياً لي المال الذي تركته في منزله؛ شكرني وقال إنه يستطيع تدبر أموره وأخذ يستحلفني بأن لا أجبره على أخذه، احتضنني بقسوة وهو يفرك بيديه ظهري ودموعه تنهمر من مقلتيه.

ـ تماسك يا رجل، صدقني سأعود إلى بياريتز وسوف أزورك دائماً.

ـ أتعدني بذلك؟

ـ طبعاً، خبئ دموعك الآن كي تستقبل صديقك جوزيف بصلابة.

ـ لا تقل صديقي، هو سبب رحيلك عني.

ـ ما بالك تتصرف كالأطفال؟ أنا من قررت العودة إلى نفسي وليس هو.

كنت رغم رجولتك وشيبك الذي بدأ يغزو شعرك تبدو أمامي كطفل صغير يودع أمه، غسلت وجهك ثم ذهبنا صوب جوزيف وكاثرين وياسمين الذين جاؤوا كي يودعوني، طلبت من جوزيف أن يعد لنا قهوته الحرام للمرة الأخيرة، وبدأت أخبر كاثرين بأنني قد عملت بنصيحتها وأخبرت رنين بكل شيء، كم كانت ساعاتي الأخيرة تلك قاسية، احتضنت صغيرتي بشدة وخانتني الدموع متساقطة على شعرها الذهبي «سأشتاق إليك يا حبيبتي»، هذا كل ما كنت أردده كلما اقترب أنفي من شعرها. آه كم لعبنا معاً، أعادتني طفلاً صغيراً في الثلاثين من عمري كلما ضحكت لي، وعندما كانت تعبث بأثاث المنزل، كنت عوضاً عن أن أضربها ألعب معها وأدمر الأثاث بنفسي، أخذت أوصي كاثرين أن تعتني بك وأعطيتها رقمي كي تحادثيني يا ياسمين كلما تسنح لك الفرصة.

ذهبت إلى الغرفة أحضر التراب الذي أعطاني إياه علي مرار ووضعته في حقيبتي بعد أن تأكدت أنه ما زال كما هو على حاله.

خرج صوت رنين من الغرفة تقول «حبيبي أنا جاهزة الآن» كم

تمنيت حينئذ أن تبطئي قليلاً يا رنين، شعرت بأنني لن أرى أصدقائي وياسمين مرة أخرى. آه كم كانت لحظات الفراق عليّ صعبة، أحتضن كل واحد منهم خمس دقائق علها تكفيني سنوات الغيبة عنهم، كان مدخل البيت مفعماً بالبكاء كلما احتضنت أحدهم أبكي دون أن أشعر، قال ياسر حينئذ بأنه ذاهب إلى المطار وقرر الذهاب معنا، وقفت على عتبة المنزل مودعاً لتلك الحجارة وكاثرين وياسمين وجوزيف أحرك يدي لهم دون أن أستطيع أن أتكلم، لم أقو على الكلام حينئذ؛ فوداع من تحب له ألف لغة إلّا الكلام. كنت أعي تماماً بأنني مهما تكلمت فلن أستطيع وصف ما في داخلي من مشاعر اشتياق انتابتني حتى قبل أن أرحل.

صعدنا ثلاثتنا إلى التاكسي منهياً بصعودي هذا أطول فترة استقرار لي في بياريتز، شكراً بكل ما أوتي الشكر من معانٍ يا هذه المدينة،شكراً على الحب الذي وهبته لي وشكراً على الطفلة التي خففت عني وحدتي طوال فترة مكوثي فيك، شكراً لثلجك ولمطرك ولسراب ياسمينك الذي إن كان هناك سبب مقنع للعودة مجدداً إليك فهو زيارة المطعم ومعرفة تتمة السراب.

للمرة الأولى في حياتي أتقن البيانو، أتقن شيئاً لا يقدسه إلّا أزراره التي تتلقى الضربات كي تطلع منه شدواً يطرب الآلاف ولولاه لما عرفتك يا رنين، كثيرة هي الأشياء التي تستحق الشكر مني، أناس أصبحوا مثل أهلي وبيت أخاله بيتي وصديق حي وميت يجلس في جواري، حتى التراب الذي كان بحوزتي كان يستحق مني الشكر.

وصلنا إلى المطار من حيثما جئت لأول مرة، أنزلنا حقائبنا منتظرين موعد الطائرة، كان ياسر يسير في غرفة الانتظار مثل المجنون، تركت الحقائب عند رنين وأخذت ياسر كي نحتسي القهوة، قلت له بأن لي طلباً عنده وأرجو منه ألّا يردني فردد «أنت تعلم أنني لا أستطيع فعل شيء».

ـ بل تستطيع يا ياسر.

ـ ماذا هو الشيء؟

ـ كما تعلم لنا بيت هنا ولا أحد يقترب منه، وهناك كم من المزروعات زرعناها حول المنزل فهل تأخذ مفتاح المنزل وتعتني بالأزهار وتسكن فيه؟

ـ إن شئت سأعتني بالأزهار لكنني لن أسكن فيه.

ـ صديقي، أنت تعلم لا آتي إلى هذا المنزل كثيراً فخذه وحينما أعود سنسكن فيه معاً.

ـ و لكن...

ـ رجاء لا تخيبني، خذ المفتاح.

ـ شكراً لك يا خالد، سأحافظ على المنزل، أعدك.

ـ وزر ياسمين كل فترة وفترة افعل هذا من أجلي.

ـ لك ذلك يا خالد، وأنت توخ الحذر من الاحتلال وأتمنى لك رحلة موفقة.

ـ ها قد وصلت الطائرة، اعتن بنفسك سأزورك دوماً.

ودعنا ياسر محتضنين إياه ثم أخذنا نحمل الحقائب تاركين خلفنا كماً من الذكريات الجميلة التي لا تصلح للنسيان، ألقينا نظرة الوداع على كل شيء في هذا المكان ثم صعدنا إلى الطائرة. ظهر صوت المضيفة تردد:

«أعزاءنا المسافرين الرجاء ربط الأحزمة سنقلع الآن».

الفصل الخامس

في الحب لا تخيب التوقعات أبداً، هو طائرة بين الغيوم لن تراها إلّا إذا ما صعدت بين الوسائد القطنية، للحب أسراره الخاصة، كلام وطقوس خاصة به، الحب كالثلج، لا يكون جميلاً إلّا إذا ما زار المساء وكالثلج هو أيضاً يفقد رونقه إذا ما داسته الأقدام أو ذوبه الكلام، في الحب حياة نرجسية الطبع، أنانية بفطرة العشاق الأوائل وبغرائز الأحبة الأسطوريين الذين وضعوا مبادئه الأساسية وكرسوا على دفاترهم المحرمات القاتلة فيه، الحب وإن قال نزار ذات يوم بأنه سيبقى الحب سيده فأنا الحب سيبقى قاتلي، فشدة الرغبة والتمنع للشيء في العادة تقتل.

أن ترى الحب يتمشى بين حقول عينيك دون أن تقترب منه وتستعذبه في قبلة في أرضك يقتل، أن تكون جالساً أمامه وتراه وهو يتناول قهوته في مكان ما دونما أن تشاركه فيها ودونما حتى أن تلقي عليه سلام الصباح وتكتفي بابتسامة له عن بعد مع تحريك الحاجبين وكأنك لخصت بتلك الحركة كل ما كنت تود أن تقوله له ثم ترحل بسلام عن الحي الذي تقطن فيه لئلا تحوم دوامة الشكوك حوله

وتتلصص الأعين على شباك غرفته وتقف مدينة برمتها بوجه الحب وتترك خبايا المشاعر الرديئة تتفشى في أوساطها، أنت ملعون يا أيها الحب في بلادي بعكس الترحيب الذي يلاقى شاربي الخمر على الطرقات، فشرب الخمر بين المارة حرية شخصية أما الحب من خلال زاوية نافذة الرسائل فخيانة مجتمع برمته.

فلتنبذه بقدر ما شئت يا مجتمعي ولتضع له آلاف المبررات، ضع أمام ناصية عيني قضية الوطن الأهم وقضايا التعليم والدين والعادات والتقاليد واللباس الرسمي في أجواء البلدة، ضع أمامه أعلى الحواجز وانصب له الأسلاك الشائكة على مداخل طرقاته واهدم واحفر كما شئت في شارعه المعبد بالورود؛ فمنظر شارع جميل كهذا لن يروق أصحاب الشوارع البالية المعبدة وفق مقاييس الأجداد التي اكتشفتم بعدها أنهم وضعوها صدفة لا أكثر ولم تكن لديهم الرغبة بأن ينقلوا ما بناه أجدادهم، ورغبتم كي تجبرونا على اتباع مساراتكم أن نحترم هذه العادات التي ما هي إلّا بدع اختلقتموها.

كم من التساؤلات التي دارت بيننا على متن الطائرة وكأننا للمرة الأولى نلتقي، أخذت أطلعك على عادات بلدتنا وعلى كيفية سير الأمور هنا، وكنت متيقناً أن امرأة مثلك ما خلقت إلّا لتكسر القوانين وتقفز عن العادات واضعة إياها خلفها، تعشقين التميز حتى بالأفعال التي قد تعتبر مساوئ بين مكان وآخر لكن رغم كل ذلك أبيت أن تدخلي فلسطين إلّا والكوفية على كتفيك غير مبالية بالضفادع الخضر

المليء بهم جسر الأردن، كنت أقوى المسافرين وأشدهم جرأة على الصراخ بوجه كل من يعرقل سير أمورنا من الجنود، ظننت حينئذ أن جنسيتك الأميركية قد تمنع غطرستهم، لم تختلفي عن أي شخص آخر كان معنا، كل ما في الأمر أنك فقط تتعرضين لذل أقل.

أشعلت سيجارة وأخذت تنفثين دخانها في وجوه الجنود وتتحدثين معهم باستحقار شديد، سيبقى ذلك الموقف عالقاً بذهني حينما جاءك جندي يأمرك بأن تطفئيها فقلت له ضع قبعتك أولاً كي أعي من أخاطب، لم أكن أعي معرفتك بالقوانين السائدة بين العسكر، أنت من قلت لي بأن الجندي كي يأخذ وصف الدولة يجب أن يكون معتمراً قبعته.

حينما غادرنا الجسر أخذ كل الجنود ينظرون إليك بطرف مليء بالكره والغل، خفت عليك حينئذ من أن يتم اعتقالك، لكن بقيت كما أنت مرفوعة الهامة تمشين بكل غرور وتفاخر مرددة «قتلة أطفال».

كان الطريق مليئاً بالذهول أمام عينيك، تبحلقين من الشباك على الأطفال والشوارع والحواجز التي بين كل قرية وقرية ترينها.

ثم استقبلتنا قبل أن نصل إلى أبوديس مجموعة من المستوطنين في مستوطنة معالي أدوميم يرشقون السيارات بالحجارة ويتعرضون للمواطنين في الشوارع، بقدر ما كنت سعيداً لمعرفتك الحقيقة الكاملة إلّا أنني خفت عليك أيضاً من خطرهم، وبعد عشرة أمتار فقط رأيت الشبان بصدورهم العارية يصنعون سلاسل من الحجارة كي يحموا

أنفسهم من المستوطنين والجند، كان كل الشبان ملثمين يرددون بصوت واحد «الله أكبر، نموت وتحيا فلسطين».

طلبت من السائق أن يسرع أكثر وحين اقتربنا من منزلي كانت هناك تظاهرة أخرى والسماء عابقة بريح الغاز السام والضباب الكثيف من أثره، وفي الجهة المقابلة رأيت مجموعة من الجنود كالذئاب يهجمون على شاب وينهشون لحمه، كان يصرخ بأعلى صوته من شدة الألم، وحين نزلنا من السيارة رأيتك مباغتة لي وذاهبة نحو الجنود، تبعتك وكنت تصرخين فيهم بأن يتركوه وتحاولين أن تتشبثي بملابس الشاب ساحبة إياه منهم، بدأوا يصرخون بك بالعبرية دون أن تستمعي إليهم أو تلتفتي، كنت أنا في جوارك مع جندي أمرني بالوقوف وبدأ يفتشني حينما قام جندي آخر بدفعك على الأرض ما أدى إلى نزف الدم من يدك، أخذتك عنوة وأدخلتك المنزل وأنا أصرخ فيك متوسلاً إليك أن تدخلي لئلا تصابي بخطر أكبر.

استقبلتك أبوديس على طريقتها، نضال ومقاومة بأبسط الأشياء وعزفت لك مقطوعة الحقيقة الكاملة وبينت لك أن السراب مكانه في كل دول العالم إلّا في هذه الدولة، أرض الدم الحقيقي أرض الشعب الأخير في هذا الكوكب السقيم، الشعب الذي تركه كل من حوله يصارع سرطان الاحتلال وحده دونما أن يصدح أي صوت من مسؤول سياسي سوى بالاستنكار والتنديد، المرض فينا والطبيب يحقن إخوتنا بالعقاقير المهدئة ويعالجهم بالكيماوي ويترك السرطان يتغلغل فينا وهم يحسبون أننا في شفاء.

كانت في عينيك دمعتان، واحدة في إثر ما شاهدته في اليوم الأول وواحدة بسبب قنابل الغاز التي أحرقت مقلتيك، سقطت حينئذ على مدخل البيت مغمياً عليك من أثر الاستنشاق فهرعت حاملاً إياك وأدخلتك البيت سريعاً، ظنت أمي أنني أقله قد أدخل ومعي بعض الحقائب لكن لم يخطر في بالها أنني قد أدخل حاملاً امرأة، طلبت منها أن تحضر بعض العطر كي تستنشقيه ثم أخذت تخفف عنك وتعدل من جلستك، كان يبدو على وجهها الاستغراب، سألتني متخوفة:

ـ من هذه يا أمي؟

ـ هذه رنين.

ـ من رنين؟

ـ الفتاة التي أخبرتك بها.

ـ هذه هي الفتاة؟ سأحاسبك لاحقاً ريثما تستيقظ .

شعرت حينئذ بأنك لم تعجبي والدتي لكنني ارتأيت الصمت منتظراً كي تفاتحني هي بالحوار فلم أرغب يوماً أن أفتتح حواراً مع أحد بموضوع يتعلق بك، أنت بكل تفاصيلك وأسرارك وجنونك وأفعالك لي ودوماً أتخذ عنك موقف الدفاع لا الهجوم. وفي الوقت نفسه كانت النسوة في صالة البيت يتمتمن بكلام غير مفهوم عنك، لم أستطع احتمال نظراتهن المصوبة نحوك فحملتك إلى الغرفة كي ترتاحي قليلاً، في حين كنت ترددين «ولاد الكلب». طلبت منك أن تنامي قليلاً وبعدها سنتكلم.

استقبلتني أمي عند باب الغرفة بوجه لا تفسر معالمه ساحبة إياي إلى الغرفة المقابلة، ظلت صامتة ترمقني بغضب خمس دقائق قبل أن تتكلم، للمرة الأولى أشعر بالخوف أمامها، للمرة الأولى أخبئ وجهي عن ناظريها خافضاً رأسي خشية منها رددت:

ـ فرح أنت الآن؟ ألم تستطع إجبارها على الدخول قبل أن تتعرض لما تعرضت له؟

ذهلت مما قالته أمي، متعجباً أهي غاضبة لأنني أحضرت معي الفتاة أم غاضبة لأنني لم أدخلها المنزل سريعاً ثم تابعت:

ـ لماذا أتيت الآن؟ كان من الأفضل أن تبقى عند خالتك في أريحا ريثما يهدأ الوضع.

ـ هذا ما جرى يا أمي.

ـ اشتقت إليك كثيراً يا ولدي.

ـ ما رأيك في رنين؟

ـ جميلة يا بني لكنني لن أحكم عليها الآن وعلى كل حال سئمت اختيار الزوجات لك فافعل ما شئت.

فرحت من ردة الفعل السريعة تلك، الموافقة الضمنية عليك دونما أن تتكلم أمي معك، أيعقل أن كل من يراك يقع في غرامك فوراً أم فعلك البطولي في محاولتك تخليص الشاب من أيدي الجنود هو ما أكسبك رضا أمي ورأت فيك الفلسطينية الوحيدة في القرية؟.

وبعد أن رحلت النسوة قامت أمي بإعداد الطعام، كان قد مضى

على نومك ساعتان وذهبت أمي كي توقظك، تأخرتما في الداخل فرحت أتذرع بالجوع الشديد كي تخرجا، بدا على وجهك الحزن الشديد حينما خرجت وكنت تتناولين الطعام ببطء دون أن تكون لك رغبة في الأكل، ساد الصمت بيننا على المائدة، صمت حذر لم أجد له أي تفسير، أمي عابسة في وجهي ورنين مثلها أيضاً، ثم على حين غفلة انفجرت أمي من الضحك مرددة «مالك يما، ليش خايف بنمزح معك».

ـ من الآن بدأت المؤامرات تحاك ضدي إذن؟!

ـ لا دخل لي يا خالد أمك من طلبت مني أن نفعل هذا.

كانت السعادة تتراقص في داخلي، فكل شكوكي التي كانت انمحقت جميعها من مخيلتي، حتى إخوتي أحبوك ونلت إعجابهم بل اكتسبت عاداتنا قليلاً وكي تكسبي حب أمي أكثر قلت لها إنك لم تتذوقي يوماً طعاماً كهذا، كيف علمت بأن أمي سوف تسر إذا ما مدحت طعامها؟ أمي إن قال لها أحد بأن طعامها شهي تغدق عليه كلما تراه الحب وأشهى المأكولات، وكأن تلك الشهادة شهادة لها بالجمال والحب والكمال.

اقتربت منك أمي «ما الذي جرى لك في الخارج؟» تنهدت حينئذ بعمق ورددت «حينما كنت في فرنسا لم أكن أظن أن الوضع على هذا النحو، رأيت الجنود يضربون الشاب بوحشية فلم أستطع الاحتمال، هرعت نحوهم كي أبعدهم عنه لكنهم ضربوني أنا أيضاً وأدموا يدي».

كنت إذن صاحبة الموقف النادر الحدوث في هذا الزمن في عيني أمي، رأت فيك الإنسان الحقيقي وأزلت عن عقلها فكرة أن الغربة تنسي الوطن وأثبت لها بأن الغربة لا تزيدنا إلّا حباً وتعلقاً به، آه لو حدثتها عن أعمالك الخمسة التي كنت تقومين بها في بياريتز، لزوجتك إياي في الحال دون أي مقدمات، كل شيء أعجبها فيك ذلك المساء، كلامك وذوقك الرفيع ولباسك المحتشم ونظراتك الخفيضة، لم تخب نظرة أمي يوماً فقد كانت تستطيع التمييز بين التصنع والحقيقة ولو كنت متصنعة لقامت بعمل جنوني، كنت متيقناً من ذلك لكنها لم تقل لك سوى: «ما شاء الله عنك، الله يحميك» حتى أنها قالت لي ممازحة «شوف الأدب والأخلاق مش مثلك».

أخذتك إلى سطح المنزل كي أريك القدس التي ستدخلينها بعد قليل بعكسي أنا الذي أكتفي بالنظر إليها فقط أو أجبر على ذلك، وقفنا عند الجهة المقابلة للمسجد الأقصى، تلك هي بلادنا أترينها؟ أنظري إلى تلك القبة الذهبية في الأفق وانظري إلى الحمام الجاثم عليها، أسمع منها أذان الفجر كل صباح من هنا، أرى ضباب قنابل الغاز التي يطلقها جنود الاحتلال على المرابطين هناك وإذا ما كان الجو عاصفاً أشم ريحه، الفرق بيني وبين من في رحاب المسجد أنهم يصابون بالرصاص النحاسي وأنا حين أتذكر بأنني غير قادر على الدوام أن أذهب إلى هناك يصيبني رصاص القهر والذل وألعن كل من صمت حينما باشروا ببناء الجدار وألعن كل ضحكة تنسيني القدس وأمقت

كل كلمة تبعد عنا تلك المدينة، وألعن كل كوب قهوة لا يطفو على وجهه سور من أسوارها.

أمسكت بيدي مرددة «سنعود يوماً كلنا إلى هناك وهذا الجدار مصيره أن يزول خفف عنك».

في المساء قلت إنك سترحلين إلى يافا ولا تعرفين الطريق المؤدية إليها، صعدنا معاً إلى التاكسي نحو شمال القرية كنا مسرعين جداً وعند الحاجز توقفنا «هنا سأتركك يا رنين والسائق سيتولى إيصالك». بدت عليك علامات التعجب طالبة مني أن أكمل الرحلة معك، لم يكن بعلمك أن يافا بعيدة، بعيدة جداً ومحرومون من الوصول إليها، فكرت حينئذ أنني كنت أريد التخلص منك لا أكثر وتوسلت إلي للذهاب معك.

آه لو أستطيع الدخول إلى ما وراء هؤلاء الجند، كم ستكون تلك التربة حنونة على حبنا، فلو استطعت أن أمر من هذا الحاجز لشاهدنا الغروب على شاطئ يافا وتناولنا السمك قرب سور عكا وقضينا ليلتنا نطالع جمال الكرمل، وعدتك بأن أحاول جهدي كي أحصل على تصريح يسمح لي بالعبور.

أصبحت الآن أحتاج إلى تصريح للوصول إلى شاطئ قلبك فحتى الجند تآمروا عليّ وأبعدوك عني ووضعوا بيننا الأسلاك الشائكة والجدران الإسمنتية كي يمنعوني من ملامسة يدك، للمرة الأولى أشعر بأن هناك قوة قاهرة تجبرني على الابتعاد عنك، آلاف البنادق والكلاب

ترصدني حين سأعبر الحاجز، كنت حينئذ غير قلقة كثيراً بسبب ظنك بأن يافا قريبة وأن المسافة بين أبوديس ويافا لا تحتاج إلى وقت طويل، وعدتني بالعودة غداً وأنا متيقن بأنك لن تقوي على العودة، اكتفيت بابتسامة فاقدة للأمل وقلت لسائق التاكسي بأن يوصلك إلى عنوان بيتها بالتحديد.

بعد أن أدار السائق مفتاح التاكسي شعرت بأن الدنيا كلها تدور بي، أراك تقتربين من الجنود وتبتعدين عني تسير بك السيارة تاركة خلفك شاباً عاجزاً عن السفر وحبيباً يتمنى العبور، كنت من خلف الزجاج تؤشرين لي مبتسمة وأخذت بالابتعاد أكثر فأكثر.

غرت منك إذ ذاك للمرة الثانية، ما الفرق بيني وبينك كي يسمحوا لك بالعبور ويمنعوني أنا، ما الذي يميزك عني مجرد تأشيرة وتجنيس كاذب يدعي أنك أميركية؟ أدرت ظهري عن الحبيبين وأوقفت تاكسياً ذاهباً إلى الجانب الآخر، لا ليس القدس بل أبوديس أنا ممنوع من دخول القدس يا حضرة السائق.

وصلت إلى البيت بعد ساعة وكان هناك أصدقائي ووالدي الذي عاد تواً من العمل وصديقه علي مرار، كان في داخلي من الكآبة ما يجعلني لا أطيق أن أرى أحداً، احتضنني والدي وسلمت على الأصدقاء جميعهم وجلسنا في صالة المنزل، كانت جلسة حميمة وممتعة لكن بينهم فقط، كان بالي معلقاً بك يا رنين منتظراً اتصالاً منك تخبرينني بأنك قد وصلت، وقبل رحيل علي سألني عم إذا ما زلت

أحتفظ بالتراب، أخبرته بأنه معي ولم يفارقني قط وسألته ما الذي سأفعله به الآن؟ ردد «ما تراه مناسباً فلك حرية الاختيار الآن». تبسمت مردداً «كل ما في الأمر أنك أحببت أن تثقل عليّ الوزن إذن؟»

ـ لا، بل جعلته معك كي تذكر البلاد في كل يوم وأنت في الغربة ولا تنسها مطلقاً فأعطيتك أقدس شيء نملك وهو التراب.

لم أفعل شيئاً مخالفاً لما فعلته معه المرة الماضية، قبلت رأسه وحييته على حبه الحقيقي للوطن وتقديره لقيمته، ودعتهم جميعاً وأعدت التراب إلى خزانتي، غيرت ملابسي وارتديت بيجامتي التي بعدت عنها لكن رائحتك ما زالت فيها، لم يعطني أحد من أهلي أي فرصة للخلوة بك، كانوا يسلون أسئلتهم عليّ يستفسرون كيف عرفتك وماذا فعلت معك في الغربة؟.

ماذا فعلت معك؟ لم أفعل شيئاً سوى حبي لك، لم أفعل شيئاً أساساً في فرنسا إلّا أنني وجدت الحب، وجدتك وقضيت معك شهوراً عديدة تراءت لي الآن أنها كانت بضع ساعات لا أكثر، كم مضى من الوقت وكم لم يمض بعد؟ بلادي التي أنجبتني تبعدني عنك وبلد غيرها قربني منك!.

مضى على رحيلك أربع ساعات دون أن تتصلي، للمرة الأولى تتركينني وحدي مع الجدران، جدران غرفتي هذه فارغة منك تماماً غير محملة بعطرك أو بصوتك، غير محتوية على صوت خلخال قدمك الذي كان يطربني في بياريتز، ما أشد هذه الليلة الهوجاء على قلبي بقدر

ما فيها من حركة إلّا أنها خالية منك، أي مكان خال من وقع ضحكاتك مكان ميت لا محالة، غرفة لا تحمل نفسها أن تضعك فيها هي غرفة عاقة عن بيت الحب لا سقف لها ولا شيء في داخلها يحميني من برد طقوس الوحدة المميتة.

آه يا ريح بلادي لو أستطيع أن أحمل معك بعض الرسائل تضربين نافذتها وتلقين به إلى جانب سريرها، تمنيت لو تأكلين قليلاً من البرتقال اليافاوي علِّي أحلق في خيالك إذا ما وضعته في فمك، كلمت سائق التاكسي وقال بأنه هو من أنزل لك الحقائب على باب بيتك قبل ساعتين فلم لم تكلميني حتى الآن إذن؟.

في تمام الواحدة بعد منتصف الليل جاءني صوتك يصدح عبر سماعة الهاتف، اعتذرت مني بداية وقلت بأنه لا يوجد هناك شبكة للاتصالات مع هاتفك مما اضطرك أن تشتري بطاقة دولية كي تصلي إلي، أعادني صوتك إلى الحياة، كررت مئات المرات عبر سماعة الهاتف «اشتقت إليك، أشعر بالوحدة» كرهت تلك السماعة الصامتة التي تخرج لي صوتك دون أن ألمس يديك أو أنظر إلى عينيك، لو كنت في بياريتز لجئتك إلى المنزل سريعاً لكن الآن عليّ الانتظار كي أراك أسبوعاً كاملاً قيد خروج التصريح.

لم أكره عودتي إلى الوطن إلّا بسببك، لم أستطع احتمال فكرة الابتعاد عنك، أنا ما جئت إلى الوطن كي أبتعد بل جئت كي أقترب منك أكثر يا رنين، كان عليّ ألّا أسمع كلامك وأن أبقيك لي في المكان الذي ولد فيه حبنا.

أخذت تخففين عني واعدة بزيارة لك غداً كنت أعلم مصيرها من الآن وبعدها قررت الرحيل للجلوس مع أهلك الليلة، طلبت منك بريدك الالكتروني كي نبقى على تواصل إن لم تستطيعي النوم، أعطيتني إياه على عجل وختمت المكالمة في بـ«أحبك يا خالد سنتكلم الليلة إن بقيت مستيقظة» آه لو لم تقوليها أقله هذه الليلة، كيف تحبينني وتستطيعين الابتعاد ليلة كاملة عني رددت بصوت مهزوم:

ـ وأنا أحبك.

من خلف شاشة صامتة سأحادثك إذن؟ دون روح ودون جسد، بضع نقرات على الأحرف كي أصف ما في قلبي من لواعج، كلام منمق أفكر في إخراجه بتأن كي يلامس قلبك، بعد أن ظننت أنني أستطيع معرفة ما الذي تفكرين فيه أقف عاجزاً الآن عن معرفة نفسيتك وأقف حائراً إذا ما كنت تضحكين فعلاً أم صيد مجاملات فقط، بعثت لي في الرسالة الأولى في اليوم التالي صباحاً «آسفة حبيبي ما قدرت أحكي معك مبارح» وبعدها جاءني الخبر الذي كنت متيقناً منه منذ البداية «لن أستطيع المجيء عندك، أمي لم تسمح لي بذلك».

ضحكت من رسالتك وأنا أراك تبتعدين أكثر قلباً وجسداً وصوتاً وشاشة، أراك تنسلين من يدي عنوة دون أن تدري أو حتى تشعري بذلك، أود سؤالك لو أنك تشعرين بما أشعر به، هذا الذي ليس فراقاً تماماً ولا حباً تماماً عالقاً بين الأمواج ولا يدري أحد إن كان سيصل إلى الشاطئ أم سيعود إلى قعر البحر معلقة سبع وسائد قطنية من الغيم

فوق الجدار نصفها ترينه من عندك والنصف الآخر أراه أنا، إذن القاسم المشترك بيننا هو الطبيعة، الغيوم والرياح ونشرات الأخبار المشتركة أما عداها فلم يعد أي شيء.

تراك ماذا تفعلين الآن؟ متمددة على الشاطئ أم ما زلت تحتسين قهوتك الصباحية قرب النافذة وتفركين عينيك مستفتحة يومك برسالة ترمينها لي، تموج في داخلي البحار غضباً وحزناً على هذا البعد أنا الذي لم أخل أن الحب قد يستطيع يوماً أن يفعل فيّ كل هذا، تراك أنت من فعل هذا أم هو الحب أم أن تضاريس وطن هي ما أعطت ملامح حبنا هذه التفاصيل، أتعلمين ! صعدت في ذلك اليوم إلى سطح منزلي أشاهد الطيور المتجهة نحو الغرب وأكاد أقسم أنها سوف تصلك وقد تخبرك بأن عاشقاً لك لا يبعد عن قلبك سوى سنتميتر واحد ويبعد عن جسدك عشرات الكيلومترات.

قررت أن أزور طفولتي قليلاً فذهبت إلى المكان الذي كنا نجتمع فيه قديماً، شاهدت هديل عن بعد تلقي بعض الدروس على الأطفال المتجمعين، جلست في مكان يطل عليهم وأخذت ألعب بالتراب بيدي محاولاً إفراغ ما في قلبي من شحنات في بعض ذرات التراب ناظراً إلى الأشجار من حولي ومستذكراً تلك الأيام، كم كانت جميلة تلك الأيام، أراجيح وحلوى ولعب من الصباح إلى حين الغروب، لكن الآن وفي نصف ملعبنا العابق بالطفولة يسكن زائر غليظ، يسكن جدار يقسمه نصفين، يشطر خالد شخصين: شخص الطفل الذي كان أقصى

همه أن يلعب وشخص الكهل الذي يتحسر على كل شيء الآن، جاء صوت هديل من خلفي:

ـ أهلاً وسهلاً في خالد، أنا عاتبة عليك، لماذا لم تخبرني بأنك جئت؟

ـ أهلاً هديل وصلت بالأمس.

ـ هل أستطيع الجلوس؟

ـ نعم بالطبع.

لمحات سريعة لماض خال من العشق مع حبيب سابق، جلسة وطنية بامتياز كان كل كلامنا عن الوطن وعن النشاطات الشعبية التي أخبرتني بها هديل، لم تتغيري إذن وما زلت كما أنت مع كل صدمة تتلقينها تفرغينها تجاه الوطن، تارة تخرجين في المسيرات وتارة في الندوات الصحافية وفي دورات الإسعاف والآن أراك تجمعين الأطفال لتخبريهم عن وطنهم وتحدثيهم عنه، دورة اليوم التي عقدتها معهم حدثتهم خلالها عن كيفية التعامل في غرف التحقيق وما الذي يجب عليهم فعله إذا تعرض أحد من الأطفال للسجن.

نمّيت داخلهم الروح الوطنية التي انحرفت بوصلتها عن الهدف الصحيح، وحينما سألتك ما الهدف من فعل كل هذا، لم لا تبحثين عن عمل يحقق لك دخلاً مادياً جيداً قلت بأنك ترغبين حينما تموتين أن يذكرك جيل كامل ويحدّث عن أعمالك، وتابعت مرددة بأن المال يلوث القضية وقد يجعلك تغيرين مسارك، وبررت بأنك لا تريدينه إلّا

باعتباره وسيلة فقط، لم تتغير مبادئك يوماً وكذلك لم يتغير جمالك هذا، أنت المنبوذة بسبب لباسك الرجولي وكثرة خروجك إلى الشارع صباح مساء، أتذكرين كم من الإشاعات أطلقوها عليك تارة فتاة ليل وتارة سارقة وحتى أنهم وصفوك مرة بأنك عميلة للاحتلال.

أتعلمين؟ أنت أطهرهم وأنقاهم، كنت العين الساهرة على البلدة والأغلبية نائمة، الجندي المجهول الذي يخطط ويشرف وتلقى الأضواء على غيره، العامل الفذ الذي يشقى طوال النهار كي يأخذ النائم الأعلى منه رتبة ما زرعه، معطاءة لم تطلبي من أحد يوماً شيئاً مقابل ما فعلته له، رغم كل ما جرى لي بسببك إلّا أنني لا أستطيع إلّا أن أنحني أمام أفعالك وروحك الثورية.

قلت للأطفال بأن يتركوا الكتب الآن وأن يعودوا غداً كي تختبريهم بفحص ستجرينه لهم، أنت المعلمة الوحيدة التي بلا شهادة لكنك المعلمة الوحيدة التي يغدق عليها الأطفال ويحبونها حباً كبيراً.

نظرت نحوي وعيناك تتكلمان وتبحثان عن تلك الفتاة التي حدثتك عنها ثم تمتمت بصوت في استخفاف «وينها؟». إنها في يافا كانت هنا بالأمس ورحلت إلى يافا التي سلبت الطفل من داخلي وأعطتني حباً ها هي الآن تبعده عني.

ـ افترقتما؟

ـ لا، بالطبع لا لكن أصبح التواصل بيننا صعباً ويحتاج إلى مشقة كبيرة.

طلبت مني أن أحدثها عنك فماذا سأقول؟ كيف سأرضى بأن أحدث حبيباً سابقاً عن حبيب حل محله وسكن موطنه! كنت رغم برودك الشديد ذلك اليوم إلّا أن عينيك لا تزالان تتوهجان بالمشاعر المتضاربة، اكتفيت بترديد جملة واحدة «طيبة، طيبة جداً» وجهي الخفيض بعث لك إشارات انزعاجي وحزني فحاولت تغيير الحوار وكأنك تذكرت شيئاً مهماً جداً.

ـ نسيت أن أخبرك، أتذكر ياسر؟ لقد تبين أنه حي.

ـ نعم، أعلم ذلك لقد مكث معي طويلاً في بياريتز.

ـ كم هي غريبة هذه الدنيا وكم تحب إلصاق الموت بسكانها إذا ما غابوا، كنت متأكدة أن ياسر لم يمت لكن خفت أن أقول هذا أمام سكان القرية كي لا ينعتوني بالجنون، حتى أنني حلمت به يخبرني بأنه حي وأنت تعلم أن رؤاي ما خابت يوماً.

ـ معك حق، على كل حال الحمد لله أن أهل القرية علموا أخيراً.

فرددت بسرعة «يا لحظها يا خالد، صديقي لا تقلق ولا تفكر كثيراً حالنا سوف يهون وستلتقيها قريباً، إن رغبت أعطني بطاقة هويتك فلي صديقة بالارتباط المدني تستطيع إصدار تصريح لك في أقرب وقت»

ـ حقاً!

ـ نعم، خلال يومين سوف يكون لديك تصريح عبور.

ـ حسناً تفضلي هذه هي هويتي، لن أنسى لك معروفك هذا.

ـ يا رجل، اعتبر هذا الفعل عربون صداقة بيننا، أعدك بأن تكون علاقتنا محض صداقة فقط.

ـ لا أعلم ماذا أقول لك يا هديل، شكراً لك.

كان خبر هديل هذا مصدراً لسروري أقله سوف أراك بعد يومين وليس بعد سبعة أيام بالرغم من أنني أرى بأن اليومين مدة طويلة جداً على اللقاء، ذهبت مسرعاً نحو البيت مخرجاً الحاسوب لأرسل لك خبر مجيئي القريب، كنت في الوقت نفسه قد أرسلت لي برسالة «اشتقت إليك» شعرت بأن البهجة تجتاحني إثر كلمتك تلك، للمرة الأولى أشعر بأنني سمعتها بأذني لا قرأتها بعيني.

بقينا نتحدث طوال المساء، أنت تحدثينني عن أحوالك وأحوال يافا وأحدثك أنا عني، قلت إنك شاهدت فتاة تشبه ياسمين على الشاطئ وإنك تعذبت جداً حينما تذكرتها، أرسلت باقة صور لك وأنت على الشاطئ وفي مدن الشمال أذكر أنك أرسلت قرابة الخمس وعشرين صورة.

تعجبت من نفسي كيف لم ألتقط لك صورة تجمعني بك، أحقاً أطيافنا أجبرتنا على أن لا نجمد اللحظات، وأن نعيش اللحظة دون أن نستذكرها في صورة بالغد! بعثت برسالة «هذه أول مرة ألاحظ بأننا لم نلتقط صوراً تجمعنا» فكتبت بأنني حينما سأزورك سنلتقط الصور يا حبيبي، ثم خطت أناملك بأن عليك الرحيل الآن لأن بيتكم حاشد بالزوار الذين جاؤوا كي يروك، يا لحظ هؤلاء الزوار سيجلسون معك يطالعون جمال عينيك ويسمعون صوتك ويقبلونك ويتبادلون الضحكات معك وأنا عالق بخيبتي من صعوبة الوصول.

جاءت أمي إلى الغرفة تخبرني بأنها حدثت والدي عنك وأن الجميع من عائلتي يرضون بك فرداً منهم، والدي الذي لم تعجبه يوماً فتاة ذهل مما سمع عنك من أمي، أتعلمين في مجتمعنا غالباً ما يخاف الابن أن يحدث أباه بداية عن رغبته في الزواج فيضع أمه وسيطاً بينهما، ورغم أن إقناع الأم أصعب، إلّا أنها تنصاع دوماً لرغبات ابنها وتحقق له ما يريد.

أخذت أريها صورك التي أرسلتها لي وكانت مع كل صورة تزداد إعجاباً بك وبثيابك الواسعة التي لم يضيّق منها ثوب الغربة، وبعدها طلبت مني بأن أهاتفك فأحضرت بطاقة دولية كي تتحدث معك، كان حواركما خالياً مني تماماً، طيبتك وسرعة تعاطيك مع الناس زادتا من حب أمي لك أكثر وفي نهاية المكالمة قالت: «الله يرضى عليك يا ابنتي، اعتني بنفسك ولا تنسي زيارتنا».

ـ اذهب للنوم يا بني، لا تتعب نفسك أكثر.

ـ بعد قليل يا أمي.

ـ حسناً كما تريد، بالمناسبة هل كلمت ياسر؟

ـ لقد نسيت، جيد أنك ذكرتني يا أمي سأكلمه الآن، هل تريدين أن تكلميه معي؟

ـ لا، لا، فقط أبلغه سلامي.

ـ حسناً.

طلبت رقم ياسر وسرعان ما رفع السماعة كان كعادته كثير الأسئلة

لا يعطي المجال لي بأن أسأله حتى عن حاله، ماذا فعلت وكيف كانت رحلتك ما الأخبار أين رنين؟؟ عشرات الأسئلة في الدقيقة الواحدة، من الممكن أن هذا هو السبب الرئيسي الذي جعلني أعشق ياسر وأحبه أكثر من أي صديق آخر، كثرة أسئلته تلك ما كانت إلّا دليلاً على خوفه علي وحبه لي، عفويته في طرح أسئلته وطيبته الشديدة التي لامستها عبر سماعة الهاتف وفي بياريتز أيضاً، آه يا كثير الكلام لو أن رنين تسأل عني مثلك، الفرق بينك وبينها أنني أحبك لكثرة حديثك وأحبها لصمتها الدائم وكلامها القليل.

ـ أين رنين يا رجل؟ أريد أن أتكلم معها.

ـ رنين في منزلها في يافا.

ـ هي من يافا! قل إنك كنت تعلم بأن رحلتك قد يسودها شيء من البعد هكذا بسبب الاحتلال.

ـ لا، لم أكن أعلم.

ـ الحماقة تسري دائماً في عروقك.

كم ضحكت من كلمته تلك، فعلاً شعرت أنني أحمق، رددت وأنا أضحك «فعلاً أحمق»، استمر الحديث بيننا ساعة ونصف الساعة، أوصلت سلام أمي لك ثم حدثتك عن هديل وعن محاولتها استصدار تصريح لي، حينئذ قد أبديت إعجابك الشديد بها خصوصاً حينما حدثتك عن أعمالها التي تغدق بها على أهل البلدة، ودعتك وانتهى الأمر ولم أكن أعلم بأن اشتياقي سوف يكون إليك سريعاً أو أن الدنيا ستدبر لي لقاء قريباً معك.

مضت ليلة أخرى خالية منك يا رنين فارغة بقدر ما هي ممتلئة بالأشياء من حولي، لا أبصر فيها إلّا البياض، فألوان الحياة ترحل عن عيني كلما أخذت بالابتعاد أكثر ويأخذ سمعي بالضعف إن لم يتناول علاجه الصباحي والمسائي في سماع صوتك وتناول وجبة الضحك الصباحية، تندمل ستائر القلب وتتخذ تدريجاً أعتم الألوان وتحجب عنه أشعة الشمس الشديدة.

أتذكرين حينما سألتني ذات ليلة أين يكمن سر سعادتك يا خالد؟ هل ما زلت تذكرين أنني رددت عليك بأن سعادتي تكمن في استيقاظي الصباحي وفنجان قهوة أطالعه وقطعة شوكولا دكناء وبعض الموسيقى وقليل من المطر، وقلت أيضاً بأن سعادتي مبنية عليّ وعلى أمكنة صممت كي أسكنها وأسعد فيها وأزمنة أعيشها وليس على شخص ما أبني سعادتي؟ كنت أكذب، وكان الكذب في أقصى السهولة عندي، لم أصدق أي كلمة قلتها فلا المكان ولا القهوة ولا غيرها سر سعادتي.

اكتشفت بأن سر السعادة هو أنت إذا ما شاركتني في المطر والزمان والشوكولا والبسمة وسر الشقاء هو أنت إذا ابتعدت.

وسر كسلي هنا هو عدم رنين منبهك الصباحي إلى جانب أذني عند الساعة السادسة فلا تلوميني إن أكل السواد عيني، فلقد أفقدتني لذة النشاط في هذين اليومين وسرقت مني ما هو لي، سرقت مني نفسك وبلادي تآمرت معك وأبعدتك إلى منفى في وطني، من الذي يعيش في المنفى لا أعلم أهو أنت أم أنا فكلانا نملك الروابط المشتركة،

جدار من يمينك وجدار من شمالي كلانا مبعد بسبب تفاصيل الأرض المصطنعة.

قفز لي الفرح من تحت النافذة متوشحاً بالكوفية السمراء المنثور شعره عليها والبسمة تلوح بين خيوط الشمس في وجهه، لا لم تكوني أنت يا رنين بل كانت هديل، تصرخ بأعلى صوتها «يلا بدك تروح على يافا قوم استعجل خليك تلحق توصل».

ـ طلع التصريح؟

ـ له يا كبير، آه يلا خليك تلحق تصل، مشوار يافا بعيد.

ـ هديل اسكتي فضحتيني الكل عرف أني رايح على يافا.

ـههه، طيب يلا إلبس أواعيك مستنيتك تحت.

ذهبت بسرعة أرتدي ثيابي وأمشط شعري للموعد الذي سيجمعني بك بعد بضع ساعات، أرسلت برسالة لك «لاقيني بالقدس، عند أول المصرارة». أخبرت أمي بأنني سأتأخر في العودة الليلة إلى المنزل بحجة أنني سأزور القدس فرددت مبتسمة «على القدس ولا عند حبيبة القلب؟»، ضحكت لها وأجبتها بأنني ذاهب لأزور الاثنتين ثم خرجت سريعاً من المنزل، استقبلتني هديل ببسمتها أمام المنزل وكان في يدها حقيبة سفر صغيرة.

ـ إلى أين يا هديل؟

ـ سأذهب معك.

ـ هل أنت جادة؟

ـ هل تظن أنني أمزح هيا بنا، يجب أن تكافئني على إحضار التصريح لك وتسمح لي بالذهاب معك.

إذن ترغب هديل في إفساد لقائنا وتود مشاركتي في بسمتك، لم أرغب في ردها خائبة لئلا تسيء فهمي فطلبت منها أن نذهب، كنت صامتاً طوال الطريق أفكر في الطريقة الأنسب كي أعرفك بها، وخفت أن تسيئي فهمي أنت أيضاً وتظني بأنني أعدتها إلى حياتي من جديد حتى أنني دعوت أن لا تأتي إلى المصرارة كي لا ترينا معاً، سأضحي بموعدنا هذا بسبب هديل وتطفلها هذا.

تعرضنا للتفتيش عند المعبر الذي كان حاشداً بالناس وبعد ساعة وصلنا إلى المصرارة، نظرت إلى ساعتي، ما زال هناك بعض الوقت كي تأتي، ذهبنا لنتناول الفطور وعيني لا تنزاح عن الساعة، لوحت لي هديل بيديها ثم رددت:

ـ لذيذ الطعام أليس كذلك؟

ـ نعم إنه لذيذ.

ـ يبدو عليك التوتر ما بك؟

ـ لا، لا شيء.

ـ حسناً أنا سأذهب الآن، لكن ستخبرني بكل ما سيجري حسناً؟

ـ ماذا؟! ألن تأتي معي؟

ـ لا لا تكن بهذا السخف، بالطبع لن آتي لأفسد عليك لقاءك الأول هنا، عندي ورشة عمل هنا مع الجماعة وسأبيت في القدس الليلة.

ـ كنت أود أن تأتي معي، عله في يوم آخر.

ـ لا تكذب.

ودعت هديل ثم خرجت أمام المطعم أنتظر قدومك، تأخرت عن الموعد نصف ساعة لكن لقائي إياك غفر لك تأخرك هذا، كنت أرغب في أن أحضنك، أقبلك أفعل أي شيء لكن شوارع القدس لا ترضى بغير سلام اليد، سلمت عليك بحفاوة خفية عن أعين المارة، ذهبنا كي نمشي في أزقة البلدة القديمة والجنود منتشرون بين كل شارع وشارع كنت ترمقينهم بغضب فخفت أن تفتعلي معهم أية مشكلة، طلبت منك أن تبقي يومنا هذا جميلاً وألّا تلوثيه بوضاعتهم لئلا يفسد مساء انتظرته فترة طويلة.

شربنا السوس من بائع متجول واشترينا من باعة الأرصفة بعض الحلويات، كانت البلدة مكتظة بالناس لكن ورغم هذا الاكتظاظ لم يلحظ الشبان سواك، كنت أجمل مَن هناك حينئذ والكل ينظر إلى شعرك الذي كلما تحرك إلى جهة يتحركون معه، كم ضحكت حينما أعجبك ثوب معلق أمام أحد المحلات فطلبت مني أن أذهب معك كي نشتريه، كنا نتحدث بالفرنسية قبل أن ندخل المحل ونسأل البائع عن السعر، قال لنا إنه بخمسمائة شيكل فصرخت وقلت له: «شو مالك يا زلمة أنا بنت بلد مش سائحة»، وبقيت بعدها تفاصلينه حتى أوصل السعر إلى مائتي شيكل فقط.

ذكية يا بنت البلد وتجيدين المفاصلة كما تجيدين اللعب بنبرات

صوتي ومشاعري والتحكم فيها كما شئت، أخذنا نتابع سيرنا قبل أن تصلني رسالة من هديل تخبرني فيها بذوقي الجميل في اختيارك، حتى هديل شهدت لك في جمالك هذا رغم شعوري بشيء من الغيرة في رسالتها، تعمدت أن أتغاضى عن الرسالة كي لا تتنبهي لي ثم سألتك إن كنت قد أخبرت أهلك عني فكان جوابك نعم لقد أخبرتهم.

ـ وماذا قالوا؟

ـ لا أريد أن أخفي عنك أكثر، أمي ترفض علاقتنا بسبب هويتك.

ـ هويتي؟

ـ قالت إنني سأجد صعوبة في الحياة إذا ما أخذت أحداً من حملة الهوية الخضراء.

ـ معها حق، لكن ماذا سنفعل؟

ـ لا أعلم، هي طلبت مني رؤيتك وقد تعيد النظر في الحكم.

ستعيد النظر في الهوية التي أحمل أم في شخصي! لم أظن ولو للحظة بأن أمك التي كما قلت إنها قضت عمرها في أميركا تؤمن بهذه المعتقدات التي دسها الاحتلال لنا للتفرقة بيننا أكثر وتناولها من ليس في مصلحته أن يتوحد الشعب بل يريد تمزيق ألوان الهويات ولا يقيم اعتباراً لها، وربما تداولها المواطنون أيضاً دون أن يدروا حجم الدمار الذي قد يخلفه هذا التفريق.

صعدنا في الحافلة متجهين نحو يافا، أخذت تدلينني على المناطق في الداخل، تعجبت من معرفتك بهذه الأمكنة وكأنك لم ترحلي عنها

يوماً وأخبرتني بأن ابنة خالتك أخذتك في جولة إلى كل هذه المناطق وعرفتك إليها، أمسكت بيدك سائلاً عما سيحدث إذا ما رفضتني أمك، أخبرتني حينئذ بأن أتحلى بالإيمان ثم تابعت محاولة طمأنتي بأن أمك طيبة ولم ترفض من قبل أي طلب طلبته منها.

ـ ها هي يافا يا خالد، ها هي مدينتك.

ـ في جواري يافا وأمامي يافا أخرى فيا لحظ من حظي بيافا.

لم تتغيري يا يافا، مثلما تركتك وجدتك لكنك كنت قد أدخلت طابعاً جديداً على سكانك، طابعاً عبرياً يجتاح العرب وتتوسع مساحته في ألسنتهم ربما وفي اختلاطهم الكبير المفروض عليهم مع اليهود الذي مكنهم من لغتهم وتداولها فيما بينهم، وقفت مذهولاً أمام اليافتين، عينيك والمدينة.

ـ خالد، ما رأيك بأن آخذك في جولة في المدينة وأدلك على معالمها؟

ـ لا، أنا الذي سوف آخذك في جولة وأدلك عليها، لم أنس يافا يوماً، لا تقلقي.

أخذت أحدثك عن الأمكنة الشهيرة، جلسنا أمام مبنى السرايا العثماني وشاهدنا البحر من كنيسة القديس بطرس أقدم الأمكنة في المدينة، ثم ذهبنا في جولة سريعة إلى مسجد العجمي، تمتمت بصوت يشوبه القهر «هذه الأماكن كلها كانت لنا في يوم من الأيام». صعب أن تفقد حبيباً وتمنع من رؤيته لكن الأصعب أن تضيع وطناً ولا يسمح

بأكثر من مشاهدته على التلفاز أو في تصريح عبور مسموح به مرة أو اثنتين في السنة.

علي مرار الذي فتح شهيتي على تراب الوطن هو من جعلني ألتقط حفنة تراب من كل مكان زرته في يافا، أدركت قيمة التربة التي يقدسها علي والفلسطيني الأصيل، حفنة صغيرة بالقرب من سبيل سليمان ومن مسجد حسن بيك وغيرهما من الأماكن.

ذهبنا إلى محيط تل الريش المكان الأشد كثافة في البرتقال، تناول كل منا حبة ثم توجهنا إلى منزلك في تل جريشة، وكان في استقبالنا وعلى وجهه بسمة مصطنعة جاملني بها.

ـ أهلاً بك في منزلنا.

ـ شكراً لك، سررت بلقائك.

كانت الساعة الثامنة مساء حينما دخلنا المنزل الذي يشوب أرجاءه الصمت الحذر، بدأت أمك بإلقاء الأسئلة عليّ وأنا كنت أجيبها بكل أريحية عن كل سؤال سألته، لم يكن يبدو عليها قط أنها فرحة بلقائي، أخرجت سيجارة من عبوتها وقدمت لي واحدة فاعتذرت منها قائلاً: «لم أعد أدخن، شكراً سيدتي». أخذتك معها إلى الغرفة وتركتماني أمام جدك الذي أخاله أصم، كان هو الآخر يرمقني ويبتسم بغرابة ولم يكن لي سوى رد ابتسامته بابتسامة مني وحينما خرجتما كنتِ غريبة الطبع بعض الشيء ولم تكوني على ما يرام وأمك جاثمة خلفك تبتسم.

شعرت بأنني ثقيل جداً على عائلتك هذه، لم يكن مرحباً بي في منزلك إلى أن نطق جدك وسألني عن اسمي فأجبته بأنني أدعى خالد.

ـ أعلم أن اسمك خالد يا ولدي لكن ما اسمك الكامل؟

ـ أدعى خالد هشام الحاج خالد.

قام من كرسيه واتجه نحوي بخطواته المتباطئة متكئاً على عكازه، وضع يده على وجهي وابتسم

ـ الحاج خالد، آه على ذلك الزمن الجميل!

ـ أي زمن؟

ـ كنت وجدك دوماً نلتقي في المسجد الأقصى كل جمعة، من أروع الأشخاص الذين التقيتهم هو أبو هشام، شبهت عليك حين رأيتك والآن ثبت لي ما كنت أظنه، أهلاً بك في منزلك يا حفيد الغالي.

اجتاحتني الراحة بعد كلمات جدك تلك ووجدت بها بصيص أمل، بدأت معالم وجه أمك بالتغير بعد أن سمعت كلام جدك الرائع عن جدي ثم أخبرني بأن جدي كان شاعراً يطربه على الدوام كلما التقيا. لم أكن لأصدق هذه الصدفة الرائعة، بدأ جدك يقص علينا قصة اللقاء الأخير مع جدي، حدثنا بأنه قبل أن يتزوج من إيزابيل كان غاضباً من كل من حوله بسبب ترك كل أصدقائه له، لم يبق معه سوى جدي الذي أثر في معالم حياته قبل أن يرحل في رسالة كتبها له.

ذهب نحو زاوية البيت تجاه الصندوق محضراً معه الرسالة التي مضى عليها خمسون عاماً. بدأ بصوته المتآكل يقرأ ما هو مكتوب داخلها «إلى الصديق العزيز أبي محمد أبعث برسالتي هذه وأنا آخذ في الرحيل فلا أطيق احتمال رؤيتي أودعك، صديقي الغالي لي عندك

طلب صغير وأرجو ألّا تردني حتى لو لم أعد مجدداً، لا تلوث عذرية روحك بعهر الواقع، حتى ولو تحول كل من حولك إلى شوك يابس، كن أنت النرجس الذي يبقى صامداً بين الخراب ولا تتماش مع بشاعة نفوسهم وتصبح شوكة مثلهم بل انفث بعطرك الذي عودتني أن أشمه عل ذلك الشوك يعود إلى الحياة مجدداً، ومن يدري فقد يصبح ورداً مثلك، صديقك المخلص: الحاج خالد».

تنهد بعمق ثم قال: «عاد جسد جدك إلى الوطن دون روحه التي سرقت منه إثر تلقيه خمس رصاصات من مجهول بهوية معروفة انتقاماً من كلماته، لم يرغبوا في قتله هو بل كانوا فقط يريدون اغتيال كلماته فمات هو ولم تمت الكلمات».

كان جدك يومئ لأمك برأسه ويرمقها بنظرات ثاقبة وهو واضع يده على كتفي، بدت على وجهه معالم الغضب من تصرفات أمك معي، أجلسني في جواره وبدأ يقص عليّ بعض مغامراتهما المشتركة وشبابهما الذي لم يكن طائشاً ولو لمرة.

من كان يدري بأن لقاء مضى عليه خمسون سنة هو من سينقذ حبنا من وطأة أفكار أمك فهي لن تقوى على رفض طلبات أبيها أبداً خصوصاً بعد أن أغدق عليّ وعلى عائلتي المديح حتى أنها اقتربت مني وتمتمت بخجل «أنا متأسفة لأنني لم أرحب بك كما يقتضي الأمر». بعد تلك الكلمات التي وصلت إلى مسامعك عادت إلى وجهك ضحكته من جديد، اقتربت مني وهمست بأذني « قلت بأن تتحلى بالإيمان فلن تخيب».

كانت الساعة التاسعة والنصف قبل أن أرحل من عندكم حاملاً معي حزمة أمل وحفنات التراب. صعدت بالتاكسي متوجهاً نحو موقف الحافلات الذي يوصل إلى أبوديس، سأشتاق إلى اليافتين، كم هو جميل بحرك يا يافا وكم هي جميلة عيناك يا يافا، شعرت بالخوف من عدم تمكني من العودة إلى هنا مجدداً بعد أن سمعت عبر الراديو أن الوضع يزداد سوءاً واقتحامات الأقصى والاعتداءات أصبحت تتكرر كل يوم، عزائي بالتراب الذي أخذته منك عله يزيد من صبري قليلاً.

لم تستغرق مني الطريق طويلاً بسبب قلة حركة السيارات، وقبل أن أصعد بالحافلة ذهبت إلى محل صغير يبيع زجاجات عصائر طبيعية اشتريت منه زجاجتين ثم عدت إلى الموقف، كانت هناك هديل جالسة على السور تعبث بجوالها، اقتربت منها سائلاً إياها عم تفعله هنا؟ فقالت بأن ورشتها قد انتهت الآن وسترحل حينما تأتي الحافلة، كان الصمت يجوب فمها وأطرافها التي ما عودتني يوماً أن تتوقف عن الحركة والكلام، ذهبت تسير بين الحافلات وطلبت مني أن أنتظرها ريثما تذهب إلى دورة المياه وبعد أن عادت والسكون يجتاحها أخرجت لي سندويشاً من حقيبتها.

ـ تناوله فلقد شبعت من الأول.

ـ شكراً، أنا جائع على أي حال.

صعدنا في الحافلة الأخيرة التي ستتجه إلى أبوديس، كانت فارغة ولم يتعد الركاب أكثر من خمسة. سألتها عما جرى معها في الاجتماع

فأجابت بأنه ستنطلق مسيرات كبيرة في أرجاء الوطن احتجاجاً على تهويد الأقصى وقيام المستوطنين بقتل الفلسطينيين بأعنف الوسائل وأشدها إرهاباً، عرضت عليّ الخروج في المسيرة التي ستنطلق بعد يومين فرفضت الأمر «هديل لا تضيعي شبابك وجمالك عيشي حياتك ويكفيك سجنك مرة واحدة». صرخت بوجهي وارتسمت معالم الغضب الشديد على عينيها مرددة:

ـ أضيع ماذا يا خالد؟ أضيع جمالي، أي جمال وشباب هذا والأعداء يتربصون بنا ويذلوننا في كل ثانية!

ـ أعلم ذلك لكنك قدمت كثيراً فتنحي جانباً للجيل القادم.

ـ كلنا جيل واحد ما دامت قضيتنا واحدة، للأسف يا خالد أراك جبنت وأدركت بأن الغربة غيرتك كثيراً.

ـ لا تقولي: جبان، لم تفهميني، أنا أقصد بأنك تعبت جداً، انظري إلى وجهك كيف أصبح من قلة النوم ثم إن أمك لم تمرض سوى من دخول الجنود المتكرر إلى منزلك باحثين عنك مراراً قبل أن يعتقلوك.

ـ جبان، أنت جبان، لماذا تخاف؟ إذا أشهرت المسدس ستموت وإن أشهرت غصن الزيتون والحمامة البيضاء فسوف تموت أيضاً، في كلتا الحالتين سوف يستهدفونك وسيذهب جمالك.

ـ لا لست جباناً فأنا موافق على الذهاب معك في المسيرة.

بعثت هديل في داخلي روح النضال من جديد وأعادت إلي قيمة الحجر الخارج من الطفل الأعزل متصدياً به بندقية ودبابة، وضعت

يدها على ظهري وهمست «أنا أعلم أنك لست بجبان ولكن كنت أرغب في إجبارك على المجيء».

أعطيتها رقم هاتفي قبل أن يرحل كل منا إلى منزله بعد أن طلبت مني أن نبقى على تواصل لتخبرني بموعد المسيرة ولتطمئن إلى صديقها بين حين وآخر، كم أصبحت تشبهين أخاك صاحب الطباع الثائرة على الظلم والاحتلال، رحل هو وورثك طباعه.

في صباح اليوم التالي استيقظت على رسالة منك بعثتها لي بالأمس تخبرينني أنك تودين العودة إلى فرنسا في نهاية الشهر كي تنتهي من إجراءات إصدار شهادتك، وكي تنتهي من إجراءات التسجيل للدراسة العليا هناك، وأن أمك هي الأخرى ستعود إلى أميركا مطلع الأسبوع القادم، كان في قرارك السريع هذا كم من الفرح في نظري كما فيه كم من الغموض، لم ترقني هذه الرسالة إذ شعرت أنها تحمل بين طياتها بعض الخفايا، ألم ترغبي في الاستقرار هنا؟ أنت التي بقيت تغردين في أذني لحن العودة دوماً تخبرينني أنك سترحلين؟.

أخذت أطالع فنجان قهوتي محاولاً البحث عنك فيه، وجدتك في كل زواياه، أعلم أن مطالعة فناجين القهوة محرمة لكني لم أطلب منه أن يتنبأ لي عدا كشف مصيري ليس إلّا، كيف تجبرين الفنجان على أن لا يكذب الحقائق المتعلقة بك! لم يظهر زواج بعد مدة ولم يظهر لنا خلاف أيضاً، كان بسيطاً وواقعياً ولم يظهر لي سوى عينيك، مصيري هو أنت فحتى اللوحة التي يرسمها البن داخل الأكواب فيها عيناك.

يا من شهد لها كل من أحب لا تخذلي شهاداتهم، لا تخيبي القهوة ولا تردي الياسمين خائباً، فلتبقي كما حدثوني بأنك الزهرة الأخيرة، العطر الأخير الذي سوف أشمه، يا شمس بزغت بخجل اذهبي صوب يافا وأيقظي تلك الكسلى من نومها، اقتحمي غرفتها وداعبي عينيها بلطف كي ترى رسالتي المخبأة في قهوتها.

ذهبت إلى الجبل أشاهد شروق الشمس حين وصلتني رسالة عبر هاتفي «هل أستطيع أن أشاركك في جلستك؟» كانت هذه الرسالة من هديل بعثت لها «حسناً تعالي، أحضري معك بعض القهوة لم أكتفي منها هذا الصباح».

تنهدت بعمق ثم قالت: «آه على تلك الأيام أدفع ما تبقى من عمري كي أشاهد شقائق النعمان في الأرض التي خلف الجدار» لاتزال كما أنا متعلقة بوردة الطفولة الحمراء هذه التي تناقل أسطورتها الأجداد بأنها تنبت في كل مكان سقط فيه شهيد، تنبت بين كل خطوة وخطوة بين كل حجر وحجر، ففلسطين أرض الشهداء الكبرى بشهادة هذه الزهرة.

أخذت تسألين عن موعدي الأول كيف كان بالأمس فأجبتك بأن كل شيء سار كما أريد، ابتسمت وتمتمت «أتمنى لك كل الخير يا صديقي، جميلة جداً هي».

ـ وكيف علمت أنها جميلة؟

ـ شاهدتكما عن بعد قبل أن أذهب.

ـ شكراً.

خفضت رأسها ثم نظرت إلى السماء، عكست الشمس بريق عينيها الملتهبتين ثم تابعت بصوت خافت:

ـ هل سنأتي إلى هنا مجدداً بعد شهر لنقطف شقائق النعمان كما في أيام الطفولة، أنا متشوقة جداً لرؤيتها، أشعر أن قلبي لم يعد يطلب سوى هذه الزهرة؟

ـ لا أعلم، إن بقيت هنا فسوف نفعل ذلك أعدك.

كان كلامها وحنينها إلى رؤية الجبل مفعمين بالزهر الأحمر الغريب، خفت أن تلمح إلى استرجاع الذكريات، سقطت دمعة من عينها صوب الأرض وهي تعبث بيديها بالتراب جاثمة على ركبتيها، أخذت أناديها دون أن ترد، أمسكت بيدها أسألها ما الأمر فردّت بصوت خافت: «كم كان أحمد يحب شقائق النعمان، اشتقت إليه، أرغب حينما ينبت الورد الأحمر هذا أن أقطفه كله وأتوج به قبره، كانت هذه الزهرة انتماءه، لم يكن يتغنى بحزب أو بجهة معينة، كان يقول بأن شقائق النعمان و إبراهيم طوقان هما من يمثلانه». أذكر مرة حينما خرجت معه في تظاهرة أنه غضب من بعض الشبان الذين نحوا علم فلسطين جانباً واتخذوا من أعلام الفصائل وأغانيها شعاراً لهم. قال لي بأن هذا البلد فيه مئات الأغاني التي نسمعها في كل أرجائه وكل أغنية تمثل حزباً واحداً، جميلة هي لكنها سوف تهترئ كلها وستبقى أنشودة واحدة تهتف قائلة «موطني موطني الجلال والجمال والسناء والبهاء في رباك» ثم غادر المسيرة وهو يصرخ بصوت عال تلك الأنشودة:

الشباب لن يكل
همه أن يستقل
أو يبيد أو يبيد
نستقي من الردى
ولن نكون للعدى
كالعبيد.

لم يرغب يوماً في رؤية الشعب منقسماً بين أحزاب حتى لو كانت تؤدي إلى تنظيم سير الشعب، كان شعاره دوماً فلسطين ولا شيء غير فلسطين، منها أنا وسأموت فيها، دمعت عيني معها واعداً إياها بأن أقطف الزهور معها وأشاركها في تكليل قبر أخيها، لم أقو على مشاهدتها تبكي أكثر، أستطيع تحمل دمعات الحب لكنني لا أقوى على رؤية دمعة تسيل مرسلة إلى شهيد تحت التراب وإلى وطن، تذرعت بأن هناك عملاً ضرورياً عليّ القيام به الآن وأنني مضطر إلى الذهاب، كم هي غالية دمعة الحنين تلك التي نزلت منك .

عدت إلى المنزل ينتابني شيء من الحزن على هديل وحسرة على شعب أخيها، أخيها له شعب واحد، شعبه من يهتف ضد الاحتلال فقط دون أن يولي اهتماماً كبيراً بالفصائل ولو كان منتمياً إليها، أطربتني قصيدة طوقان المغناة فأعدتها عشرات المرات، نظرت إلى الصور المضافة للفيديو المليئة بالشهداء والدمار والأطفال الجرحى، الأطفال الرضع الإرهابيين الذين يشكلون خطراً كبيراً على أمن اسرائيل، تيقنت

الآن من سبب قيام اسرائيل بقتل أطفالنا، سيصبحون إرهابيين حينما يكبرون سيصبحون قتلة ومجرمين بعد بضع سنين، لماذا؟ لأنهم رفضوا الظلم وأحبوا وطنهم، فحب الوطن إرهاب كبير، لا ليس حب الوطن؛ فالفرنسيون والألمان وغيرهم من الشعوب يحبون وطنهم وهم ليسوا بإرهابيين، حب فلسطين وحده هو الإرهاب والزلزال الذي قد يدمر العالم بحسب مقاييس ريختر والمنظمات الشديدة الإنسانية، أحبك يا وطني يا من يستشهد على أرضك في اليوم الواحد عشرات الشهداء دون أن تستشهد أنت، كم تشبهين هديل يا فلسطين، فإن مسك سوء فإنك تخرجين من صدمتك أقوى بمئات المرات عن ذي قبل.

جاء صوت صغيرتي عبر الهاتف كنسمة متسللة إلى صحراء قلبي «Tu me manques»، وأنا أفتقدك أيضاً يا ياسمين، أفتقدك جداً عزيزتي، سعدت لسماع صوتها وصوت جوزيف وكاثرين أيضاً، حدثتهم نصف ساعة كان الفرح بارزاً على صوتها حينما أخبرتها بأنك ستعودين قريباً إلى بياريتز.

ـ أنا سعيدة جداً مشتاقة إليها كثيراً.

ـ ولست حزينة لأنني لن آتي؟

ـ حزينة قليلاً.

ـ آه منك يا مخادعة!

اشتقت مشاكستها وتدميرها لمنزلي في كل يوم فماذا تراها تدمر الآن، كم أود احتضانك يا صغيرتي الجميلة، يا من وهبت لي المشاكل

والفرح في الوقت الذي تعرضت للسجن بسببك ووجدت الحب أيضاً بفضلك، قبل أن أقفل سماعة الهاتف أخبرتني بأنها وعائلتها زارت ياسر في منزلي وقد كان سعيداً بلقائهم، أخيراً تصالح ياسر مع جوزيف بطريقة ما، أنا متأكد أن المشاكسة الصغيرة هي من تقف وراء تصفية الأجواء بينهما.

استيقظت على صوت المذيع في غرفة الصالة وهو يخبر عن الاقتحام الذي قام فيه قطعان المستوطنين ورغبتهم الملحة في تقسيم المسجد الأقصى في أقرب وقت، وفي خبر آخر أنهم ينوون مصادرة أرض في قريتي، يقتسمون أغراضنا ثم يصفون أنفسهم بالكرم وأنهم من دعاة السلام والصداقة بين الشعبين، تابع أن هناك اندلاعاً لمواجهات ومسيرات بدأت سلمية وأجبرها جنود الاحتلال على التراجع بعد أن أطلقوا مئات قنابل الغاز والوضع آخذ بالتأزم أكثر فأكثر، في أول ساعة من الاحتجاجات أصيب ما يفوق الأربعين مواطناً بالأعيرة المطاطية وحالات الاختناق الشديد، حينئذ كلمتني هديل عبر الهاتف تطلب لقائي بأسرع وقت لأن مسيرة زراعة الزيتون سوف تنطلق نحو أراضي أبوديس المصادرة بعد قليل.

ذهبت عندها بسرعة، كانت أمام محل تجاري تجمّع فيه المتظاهرين وتنظمهم، ما زلت لا أدري كيف استطعت في ساعة واحدة أن تجمعي ما يفوق المائتي شخص في بلدة واحدة، تخلصت مما تبقى من أنوثتك الوهمية حينئذ وحملت مكبر الصوت تخاطبينهم « ممنوع حمل أي علم غير علم فلسطين، رجاء يا أخوان لا نريد أي علم آخر».

وكعادتك بعد أن نظمت المسيرة تقدمت الصفوف وأخذت تهتفين بأعلى صوتك وكلنا خلفك سائرون نردد من ورائك «لو يعرف الزيتون غارسه لصار الزيت دمعا»، جبارة مثل وطنها نازعة قميصها ليس لتشبع غريزة رجل وتغويه بل لترضي الوطن قليلاً وتقدم له دمها إن لزم الأمر، هل تتوقع غير ذلك من فلسطينية اتخذت من الكوفية وشاحاً لها ومن شجر السلام سلاحاً تبعد به الغاصبين، أشد ما يميز أنوثتك ويعطيها طابعها الخاص هو حبك وخدمتك للوطن بشتى الوسائل؛ فعاشقات الوطن دوماً يضعن الرجال في شهوة مختلفة، شهوة العذرية ويجبرنك بأن لا تستبيحهن بكلامك المخادع والمنافق لأنك إن فعلت فلن تشعر بأنك خنت فتاة بل خنت وطناً.

وصلنا إلى الأرض وكان في استقبالنا عشرات الجنود المدججين بالأسلحة متحدين بها إرادة شعب كامل، باشروا بإطلاق القنابل الصوتية والغازية تجاهنا وكان معظمنا في تراجع بعدما باشروا بإطلاق الرصاص تجاهنا عدا هديل وبضعة شبان لم يبرحوا أماكنهم مرحبين بالموت إن جاء لأجل الحفاظ على الوطن وإتمام مهمتهم التي خرجوا من أجلها. لم تشهد من قبل عشر سنين بلدتنا نشاطاً بهذا الحجم، فحتى نساء القرية شاركن فيها كما لو أن هذه الأرض باحة بيتهن الخلفية، انتهينا من زراعة الأشجار رغم كل العراقيل التي وضعت لنا، وكان هناك شابان تعرضا لإصابة متوسطة، حمدت الله لأن هديل لم تكن واحداً منهما لكنها بقيت قربهما في المستشفى ريثما استقرت حالتهما،

وقد بقيت طوال الليل ولم تعد إلى منزلها وحين طلب المستشفى التبرع بالدم كانت أول من أهدى دمه إلى الجرحى وأخذت تستصرخ الناس كي يتبرعوا، وبعد أن تبرع أهل القرية وعاد كل منهم إلى منزله خرجت وهديل إلى الشارع الذي لم يكن فيه أي شخص بسبب الذعر الذي سببه الاحتلال وقطعان مستوطنيه.

ـ عظيمة أنت يا هديل.

ـ لست أعظم من قطرة دم شهيد.

ـ خفت عليك كثيراً حينما بقيت صامدة مكانك في مواجهة الرصاص المطاط.

ـ لا تخف، إن قدر لي الحياة فلن تستطيع رصاصة أن تقتلني وإن قدر لي الموت فقد أموت الآن هنا أو وأنا أشاهد التلفاز في غرفتي فما هو الأفضل أن أموت أمام التلفاز أم أن أستشهد لأجل قدسية الوطن؟.

في كل كلمة قلتها كنت أرى كم هم أقزام من يهتفون باسم الوطن ولا يسهرون لأجله، وكنت أرى كم هم عظام من لا يتكلمون عنه بقدر ما يقدمون له من عمل، حتى ولو كان زرع شجرة، أخذت تحدثينني عن بعض الأحداث التي جرت في غيابي عن البلدة وعن الكلام الذي نعتوك به حينما نبذت كل من يعارض الوحدة الوطنية وفضحت مخططاتهم المادية المحضة، سألتك حينئذ وماذا كان ردك عليهم؟ فأجبت مبتسمة: لا شيء لم تؤثر كلماتهم بي كثيراً وتابعت «وليش أتعب نفسي وأردحلهم كل واحد بيعرف حالوا».

تابعنا السير إلى أن وصلنا إلى المنزل، رددت حينه «بالمناسبة سمعت عن محاولة رنين تخليص شاب من أيدي الجنود في اليوم الأول لها هنا، يبدو أنها رائعة هي أيضاً».

ـ نعم هذا صحيح، لقد فعلت ما بوسعها كي تخلصه منهم.

تمتمت قبل أن تدخل بيتها بنبرة يشوبها الحزن دون أن تنظر إلي «اعتني بها يا خالد، أتمنى حياة سعيدة لك معها».

قلبي تمزق جراء كلماتها تلك ولم أستطع قول أي شيء لها، لامست القهر في داخلها، قهر ظننت أن سببه حبها لي لكنها قالت بأن ذلك الشاب صديقها العزيز وهي حزينة لما جرى له، حزينة على وطن يسرق من أصحابه.

لم أرغب في دخول المنزل الآن وتابعت السير وحدي في الشارع، تمنيت لو أن كل الفتيات مثل هديل يضعن الوطن في أولوياتهن بدلاً من أشياء أخرى واكتشفت كم كنت مقصراً بحق فلسطين إذا ما قورنت أعمالي ببطولات هديل وحتى حديثها الذي لا يكاد يخلو من سيرة الوطن، أجمل الفلسطينيات أنت يا صديقتي وأشجع الرجال أنت وأشد الإناث نعومة أنت يا صاحبة الكوفية.

أخرجت الهاتف من جيبي أسألها إذا ما كان هناك نشاطات أخرى فلم أعد أفضل أن تقدم لبلدي أكثر مني، فرحت حينئذ جداً ورددت وهي تضحك «كل يوم عنا نشاط بيقهرهم احنا مش قد السلاح ولا حمل الحجر حتى بس بتثقيفنا لولادنا وتوعية الشعب لأبسط الأشياء بتقدر تفرق كثير، لاقيني في الجبل بكرا».

زاد تواصلي مع هديل فأصبحت في كل يوم أكلمها مرة أو اثنتين عبر الهاتف خصوصاً بعد أن قررنا أن أساعدها في دوراتها مع الأطفال كي أعرفهم إلى الأماكن الأثرية في فلسطين وكيف أخذ الاحتلال في تهويدها دون أن تكون بيننا أي مشاعر تجمعنا غير الصداقة وحب الوطن، كنا في كل مرة بعد أن ننتهي من الدرس نجلس معاً أكلمها عنك يا رنين، لم أعد أخشى غيرة هديل منك، أخذت طابع الصديق الوفي ومكب همومي التي اعترتني بسبب بعد مسافة الحب الواصل بين يافا وأبوديس حتى أنها طلبت مني أن أعرفك إليها، وددت كثيراً لو أستطيع أن أجعلك تلتقي هديل؛ فهديل اليوم شخص مختلف تماماً وشديد الضحك والمزاح عدا الروح الوطنية العالية وطيبة القلب التي تمتلكها.

لم تكرهك يوماً بل اشتعلت لفترة الغيرة في قلبها على حبيب وسرعان ما خمدت، فهل سترحبين بحبيبة حبيبك السابقة وصديقته المخلصة الآن؟ لا تتعجبي كثيراً فقد شاء القدر أن يجعل منها توأماً لروحي مع بقائك ملكة على عرش القلب، حاولت مراراً أن أخبرك عنها في جلساتنا على الحاسوب لكنني لم أجد الفرصة المناسبة قط فقد كنت أيضاً مشغولة بإنجازاتك الرائعة التي فعلتها في غيابي، أخبرتني بأنك ستقيمين بعد ثلاثة أيام حفلك الموسيقي الثالث الذي سيعود ريعه إلى أطفال غزة، بعثت برسالة تبررين بها عدم إخباري في الحفلتين بأنك رغبت بأن تفاجئيني كما وعدتني حينما كنا في بياريتز، ولقد نلت ما طلبت بعد أن عدت إلى أصلك الفلسطيني ولم تعودي

تستمعين للكلام المغلوط الذي يبثه الإعلام، يا من حرم عليّ رؤيتها ابعثي بروحك لي في رسالة سماوية تعينني على هذا الكلأ الشديد، انفثي عن قلبي الغبار لئلا يتلاشى بريقه، عودي لتمسحي عن وجهي عرق الشوق وتزيلي عن أطراف عيني دموع الحنين، الأسوار التي طوقت بها قلبي لاتزال قوية ولا تسمح لغيرك بالدخول فادخلي ولا تتركي القلب وحيداً أكثر، قتلتني في غيابك مرة فلا تسفكين دمي بحرماني منك مرة أخرى فلم أعد أقوى على الاحتمال.

مضى في أسبوعين غيابك عني عمراً وحياة كاملة يا من تلذني من رحم صوتها في كل مرة وتميت قلبي مئة مرة في اليوم إذا ما غابت عني كل آثارك وبقايا من روحك من صوت ورسالة وبعض الصور أسعف نفسي بها، إذا ما طال غيابك حل الربيع في أرجاء العالم ولم تحلي أنت، لم تشرق شمسك على نافذة روحي طوال تلك الفترة، أبقيتني في العتمة آكل منها وتأكل مني تضحك على حزني وأضحك بجبروت العاشق في خضمها، كان في كل يوم لي من الحياة ساعتان فقط ألتقي فيهما الأطفال وهديل، أما بقية اليوم فكنت أقبع بين أسوار الغرفة راقصاً بكل ما أوتيت من قهر على غيابك الطويل هذا.

أجمل ما جرى لي في صباح اليوم التالي أنني استيقظت على صوتك، ليس صوتك فحسب بل على صورتك أيضاً، كنت أظن أنني في حلم جميل ولا أرغب في الاستيقاظ منه إلى أن جاءت أمي ومعها القهوة التي تحبينها، أمسكت بيدي وصرخت وأنت تضحكين «هيا ها

أنا عندك هل ستنهض لتراني أم ستبقى في السرير وأرحل؟» ترحلين! كنت أعد الساعات والثواني كي أراك وأحتسي القهوة إلى جانبك، لقد أطلت الغياب عني يا رنين يا إلهي كم اشتقت إليك يا ظالمة.

ما زلت حتى الحلم الأخير أفتش عنك في ذلك المكان الذي لم أعرفه بعد، ألقي النظرات على كل أنثى تمر لعلها أنت ولعلّي أجد في طيات عينيها أو برسم جفونها ما أبحث عنه، فتلتفت إلي كل أنثى ظناً منها أنني أريدها، وتنتبه لي كل امرأة إلّا أنت، وها قد خانني الحلم ووفى لي الواقع محضراً إياك على غفلة من قلبي.

طلبت قريتي إذناً من أمك كي تدخليها، أمك التي تمد يدها للجميع لم ترد نداءات قريتي خائبة ووافقت على ذهابك إلى أبوديس بعد حوارات طويلة كان جدك الوسيط بينكما، قبلت أمك ترطيب قلبي شريطة ألّا تتأخري كثيراً، أتعلمين؟ رغبت في تقبيل أمك على السعادة التي منحتني إياها هذا الصباح شعرت بأنني أستطيع الطيران دون طائرة أو أشرعة، معك وحدك تجوب مخيلتي كل المستحيلات وتأخذ بتبسيط نفسها أكثر فأكثر وكل معادلات الفيزياء تراءت لي أن كل نتائجها متشابهة، فجاذبية نيوتن أنت وضوء أديسون الذي أنار العالم أنت وحتى معادلات القنابل النووية تنتهي بنتيجة واحدة هي أنت، وبعد كل هذا تأتين لتسأليني في تلك الليلة كيف تعلمت العزف على البيانو بسرعة؟ أنا أملك كل شيء إذا ما كنت بقربي وأفقد بصري وسمعي إذا ما طلبت الرحيل، أرأيت كم أنا ضعيف في بعدك؟ فهل راقك ضعفي؟ تمتمت «مجنون» ثم تابعت:

ـ لا طبعاً يا مجنون، أحبك قوياً كي تحميني من الأشرار.

ـ تستخفين بي إذن يا رنين.

كنا سعيدين جداً وكل ما في اللقاء هذا يؤهل للجنون الجميل، كنت تتصيدين لي الكلام وتقلبينه ضدي ممازحة، وحينما ذهبت أمي إلى المطبخ تمسكت بك وخطفت منك قبلة، آه كم أحتاج إلى قبلة كهذه من ذلك الفم الذي هجرني منذ شهر، كنت تحاولين إبعادي عنك كي لا ترانا أمي لكن لم يكن في بالي أي شيء في هذا الكون كله سوى شفتيك، قبلتك كما لم أفعل من قبل، سرقتها منك خلسة، هذه هي السرقة الوحيدة التي أحب، أحب سرقة شفتيك وأشعر بالنصر إذا ما باغتهما.

احمرت وجنتاك خوفاً من أن تكون أمي قد رأتك ورحت تلعبين بخصل شعرك في الوقت نفسه، متقلبة أنت وبين خبايا وجهك آثار الحنين والشوق التي لم تستطيعي إبرازها لي هنا، آخر قبلة كانت حينما أمطر الحب ورقصنا معاً، جميلة تلك الرقصة ما زالت في مخيلتي وكأنها بالأمس، هل تحبين الرقص في الربيع ما رأيك أن نرقص إذن؟ رددت متخوفة:

ـ لا، أرجوك لا أريد أن ترانا أمك.

ـ ومن قال إننا سنرقص هنا، سوف أصطحبك إلى مكاني المفضل في البلدة وأعلى نقطة فيها.

ـ خالد لا أريد أن أتأخر على أمي.

ـ لن نتأخر، المكان قريب من هنا لا تقلقي.

كانت الساعة العاشرة صباحاً بعدما أحضرت أمي لنا الفطور وذهبنا للرقص، لم أكن أرغب في الرقص بجسدي بل كانت عواطفي بحاجة للنفض والاهتزاز من جديد كي تسري الحياة كلياً في جسدي، جلسنا على الصخرة الكبيرة بين الأشجار، لم يكن هناك أحد سوانا في ذلك المكان الجميل، حدثتني حينئذ أنك ستسافرين بعد غد إلى فرنسا من جديد، ما كانت لي رغبة في السفر خصوصاً بعد أن أصبح عندي بعض المسؤوليات تجاه أطفال الوطن، هذا التخدير الموضعي الذي منحني إياه غيابك قد يعينني قليلاً وخصوصاً أن فترة الغياب لن تكون أكثر من شهر، لأنني سأتبعك كي أزور ياسر وأراك، طريق فرنسا أسهل من طريق يافا أقله أستطيع الذهاب متى شئت.

عدنا إلى المنزل قبل أن يرن هاتفي، كان صوت غريب آخذاً بالبكاء، لم أسمع شيئاً بداية سوى صوت البكاء من امرأة وصوت الآلات الطبية، كانت أم هديل تخبرني بأن هديل تود رؤيتي سريعاً، لقد أصيبت برصاصة في صدرها وهي الآن في المستشفى، تجمدت في مكاني، سقط الهاتف من يدي وجسمي يرتعش بشدة، تركت كل شيء جانباً وهرعت إلى المستشفى كانت على السرير تبتسم «ها قد جئت يا خالد» ما الذي جرى معك أين كنت يا هديل يا مجنونة، خبرتك أن تبقي في البيت، لماذا يا هديل؟

كانت متمدّدة تحاول أن تخرج بعض الكلمات من فمها بصعوبة حين تمتمت «كلها موتة وحدة»، لا لن تموتي يا هديل أنا متأكد من

ذلك، أنت أقوى من الموت وتستطيعين صرعه بسهولة، لن تموتي الآن يا هديل لا تقولي هكذا ستصبحين أقوى من ذي قبل، طلبت مني بأن أستفسر من الطبيب الذي قال حينما سألته بأن وضعها حرج جداً ومن الصعب أن تحيا طويلاً، بحلقت بعيني نحوه ودمعة تسللت من عيني حينما تابع بأنها لن تبقى على قيد الحياة أكثر من أسبوع، شهقت بقهر وأخذت أضرب رأسي بالحائط قبل أن أعود وأخبرك بأن الطبيب أخبرني بأن وضعك مستقر، كنت أذكى من أن يخدعك أحد، تبسمت وعيناك تدمعان «لن أبقى طويلاً إني أشم رائحة الموت من سريري».

لم يكن هناك أحد في المستشفى غيري أنا وأمك وخالتك، كيف لأمك أن تتحمل مشهد الموت الثاني أخيك أولاً والآن أنت من تحملين مشروع الموت لها، جلست في جوارها أمام غرفتك، لم تتحرك أمك قط بقيت كما هي كالصنم دون بكاء أو كلام، أيا أم الشهيد صبراً فابنتك تؤمن بأننا هنا كلنا مشاريع شهادة.

أخذت أبحث عن جوالي دون أن أجده فقد نسيته في المنزل، حاولت البحث عن هاتف كي أخبر أمي ورنين، حينئذ أعطتني خالتك هاتفها وقالت أمي بأن رنين رحلت من المنزل بعد نصف ساعة من خروجي.

ـ رنين رحلت بعد ما كانت تعبث في هاتفك.

ـ هاتفي؟

ـ نعم بدت غريبة حينئذ وسرعان ما رحلت.

أقفلت الهاتف مع أمي وحاولت الاتصال برنين عشرات المرات دون أن ترد، وفي النهاية خرج صوت المجيب الآلي «عذراً الهاتف الذي تحاول الاتصال به مغلق حالياً، يرجى المحاولة لاحقاً».

ذهبت لأطمئن إلى هديل بعد أن فقدت الأمل من الإجابة، اقتربت منها أكثر، وضعت يدي على شعرها أنظر إلى عينيها اللتين تأخذان بالذبول أكثر فأكثر، أمسكت بيدي ورددت بصوت ضعيف «خالد أريد أن أخبرك بشيء».

ـ هشش، ليس الآن، لا تتعبي نفسك.

ـ لا، الآن، خالد لم أستطع أن أعتبرك صديقاً في يوم من الأيام، رأيتك حينما التقيت رنين في المرة الأولى وقبل أن أصاب، وجدتكما في المكان الذي تعودنا أن نجلس فيه معاً احترقت مئة مرة حينما قبلتها، دوماً كنت أشاهدك عن بعد دون أن تشعر أصبحت أتلذذ برؤيتك فقط حتى ولو كنت مع غيري، خالد أنا ما زلت أحبك.

لم أدر ماذا أقول لها، فالدموع أكلت وجهي حزناً عليها، ففي أيامها الأخيرة هذه تنطق بحبي وتعلنه مجدداً، فكرت أن أخفف عنها قائلاً وأنا أحبك يا هديل.

ـ خالد لا تكذب، أنا لست حزينة بل سعيدة لأن قلبك معلق برنين وأتمنى من كل قلبي حياة سعيدة لكما.

عدت إلى المنزل كي أحضر هاتفي دون أن أقول لهديل أية كلمة، وصلت إلى البيت بعد ساعة كان الهاتف مفتوحاً على أيقونة الاتصال،

لم أحدث أحداً سوى هديل، كل الاتصالات كانت منها، تأكدت من سبب رحيل رنين الآن، فلقد رأت ما أخفيته عنها، رأت اسمك على شاشتي.

حاولت أن أكلمها مجدداً لكن الهاتف ما زال مغلقاً فبعثت لها رسالة «هديل في المستشفى كلميني حينما تهدئين أرجوك».

مضى يومان على هذه الرسالة دون أن تردي أو تفتحي هاتفك، موعد رحيلك إلى فرنسا اليوم أتراك رحلت دون أن تكلميني؟ شعرت أنني مكبل، أمامي موت وخلفي موت، أدركت أنني أنا الذي كنت أموت وليس هديل، حركت لي برأسها وهي على السرير تطلب مني الاقتراب منها سائلة إياي عنك فأخبرتها بأنها رأت اتصالاتنا وسترحل اليوم إلى فرنسا فرددت بصوت ضعيف جداً «لا تقلق، ستعود من جديد اعتمد عليَّ» بماذا أعتمد عليك وأنت لا تقوين حتى على الجلوس في سريرك. أمسكت بيدي وتبسمت والدمعة لا تفارق وجهك، حينئذ طلبت مني الرحيل إلى المنزل بل توسلت إلي أن أرحل، كنت غريبة جداً في طلبك هذا وحلفتني برحمة أخيك أن أرحل، وافقت على ذلك شريطة أن أعود في صباح اليوم التالي.

تفقدت البريد الإلكتروني عل هناك فيه رسالة منك دون جدوى، أمضيت الليلة أصلي كي تشفى هديل وكي أجتمع فيك أيضاً، لم يكن لدي رغبة في الطعام أو في الجلوس مع أحد، بقيت في غرفتي أبكي على الفاجعتين اللتين تلاحقانني وتحاولان النيل من جسدي الهزيل.

حينما ذهبت إلى المستشفى لم أجدك في السرير، قالت لي الممرضة بأنك استشهدت، لم طلبت مني الرحيل يا هديل؟ كم من الأشياء دمرت في نظري، جزء من طفولتي رحل ولن يعود، بكيت وصرخت وانهرت في المستشفى، نال منك الموت دون أن أراك، أخذت أبحث عن أمك التي وجدتها أمام سيارة الإسعاف كان المسعفون يدخلونك فيها وأنت مغطاة بالعلم وهي تبكي وتلطم وجهها «بنتي حبيبتي».

لا،لم تموتي، قالوا بأن أمامك أسبوعاً فلماذا خابت توقعاتهم، سبقني الموت إليك ولم يعد مسموحاً لي رؤية وجهك الذي اكتسب حرمة الموت، عم النبأ كل القرية وفزعوا جميعاً كي يصلّوا عليك ويدفنوك بعدها، سرعان ما خطر في بالي تراب يافا والقدس الذي تحبينه، هرعت إلى المنزل وأحضرته معي إلى المقبرة وغطيتك بالتراب الذي تعشقينه والذي استشهدت لأجله.

أصبحت بطلة حتى في عيون من كانوا يبثون بألسنتهم السموم عليك، الكل مجدوك وأقاموا لك الأنصاب التذكارية في أنحاء البلدة كلها، حتى أن خبرك وصل إلى جامعة الدول العربية التي خرجت تصرخ من منبرها تستنكر فعل اغتيالك الشنيع، أما أنا فتركت كل هذه المراسم والاستنكارات وذهبت إلى الجبل وحدي، تمنيت لو أنني لم أصله فكان كما كنت تحلمين بأن تريه مليئاً بشقائق النعمان، خرج الورد من الأرض ودفنت أنت تحتها، غطى ورد الشهداء كل الجبل دون أن تريه،

أخذت أقطف منه كما طلبت يوماً كي نصنع إكليلاً لأخيك ونضعه على قبره، لم أصنع إكليلاً بل اثنين، واحداً لأحمد وآخر لك.

ربما سنحلم يوماً ما مجدداً، وربما ستجتمع بنا الطفولة في مكان ما، حتى ولو رحل جسدك فستبقى روحك تلقي عليّ تعاليمها وتراتيل الصمود والتضحية، كوفيتك التي ستتوارثها عشرات الفتيات بعدك ستبقى رمزاً لكل شيء، رمزاً للموت، ورمزاً للحياة، ستتغنى الثائرات بقصة أسطورية إذا ما وجه لهن أحد المتسلقين كلمة سوء بحقهن أو قال لهن رجال القوم أنتم نسوة لا تقدرن على التحرير فهذه وظيفتنا، ستسكت هذه الكوفية كل الناس وستلغي من التقاليد البالية الجنس المحدد للقتال والعمل من أجل الوطن سيخبرونهم قصة الكوفية السمراء وشقائق النعمان، سيخبرونهم قصتك أنت.

أنت وكما قلت يوماً «المناضل بلا جنس، فليس المناضل برجل أو امرأة المناضل من سلالة أخرى تمقت كل الأجناس والأعراق وحتى الأسماء، المناضل هو الهدف الأسمى وليس وسيلة تحرير فقط، من يتمسك بالبندقية أو بالحجر فهو مناضل، ومن يزرع الزيتون مناضل ومن يرسم بريشته مناضل ومن يكتب بقلمه مناضل ومن يعزف يناضل، ناضل في سبيل الأرض كما تريد فمن استيقاظك الصباحي حتى تستطيع أن تناضل، المهم ألّا تستكين».

***

اصفحي عن صديقتي الشهيدة، لو لم تتسرعي لكنت أخبرتك بطبيعة علاقتنا لكن ما الفائدة؟ حتى ولو قلت بأنها صديقة ليس إلّا لن تصدقيني فكيف الخلاص من وشاح الخيانة الوهمية الذي يعتري ظهرك، لو عرفتك إلى هديل لكانت هي الوحيدة في نظرك التي لو تبقى معي ليلاً نهاراً فلن تقبل أن أخونك معها، حتى أنا لن أرضى بأن أمس من هي مثل هديل.

مئات الرسائل طوال أسبوع كامل بعد موتها دون أن تردي عليَّ، اتصلت بجدك الذي صرخ في وجهي «خاب عشمنا فيك» ثم أقفل السماعة. حتى من ظننته يقف إلى جانبي من عائلتك خذلني، اتصلت بياسر وبجوزيف و بكل من أعرفهم في بياريتز كي أسألهم عنك فكانوا يقولون إنها رفضت أن يزورها أو أن يتحدث معها أي أحد فكيف لي بأن أراك؟

أي قلب تمتلكين ومن أين اكتسبت كل ذلك البرود؟، كيف تحملت الابتعاد عني ولم تتساءلي يوماً عم قد يحدث لي من وعكات وصدمات عاطفية في إثر فراقك، كيف وبعد دهر من الغياب مازلت تتمسكين بابتسامتك هذه واضعة لها صورة شخصية على حسابك الإلكتروني، لم أخطئ ولم أتلاعب بك يوماً، كنت وستظلين كما أنت عشيقتي الأبدية التي من بعدها محقت كل جمال نساء العالم وأنوثتهن، لا تكسريني أكثر فقلبي لم يعد يحتمل خطايا لم يرتكبها.

توجهت إلى منزل هديل كي أقابل أمها وأستفسر عن أحوالها، كانت واضعة في كل زاوية في البيت صور هديل التي كنت ألتقطها لها في بعض من الأيام، ذهابي إلى منزلك كان هدية القدر لي فأخرجت أمك ورقة من الخزانة أخبرتني أنك أنت من كتبتها حينما رحلت عنك في ذلك المساء وأن خالتها هي من خطت الرسالة.

ـ هذه رسالة من ابنتي وأوصتني أن أعطيك إياها حينما تأتي وأن ترسلها إلى فتاة تدعى رنين.

ـ رنين؟

ـ نعم هكذا قالت وأوصتني أيضاً بأن لا تفتح الرسالة أبداً ولك أنت أيضاً رسالة منها.

أخذت الرسائل وتوجهت إلى المنزل، فتحت خاصتي التي كان قد كتب فيها:

« عزيزي خالد، إن وصلتك مني هذه الرسالة فاعلم أنني قد استشهدت ونلت ما أريد، آه كم كانت جميلة تلك اللحظات التي اقتسمناها معاً في الطفولة، أتعلم؟ طوال الفترة التي قضيتها بالمشفى وأنا أسترجع شريط الذكريات التي جمعتنا، منذ أن سكنت في حيكم حتى الفراق الأخير الذي ظلمتك به، شجرة الياسمين الكبيرة التي كنا نستظل تحتها، لعبة الغميضة، الشطحة الجماعية التي كنا نتقاسمها في المدرسة، مراهقتنا الجميلة وكبريائي الحمقاء وطيبتك الشديدة، آه كم من الأشياء خطرت في ذاكرتي، أيعقل أنها تسللت إلي لعلمها

بأنني سأفارق الحياة بعد لحظات؟ لا أعلم ولكن كل ما أعيه أنها كانت تستوجب الرجوع الآن، على أي حال يا صديقي لي عندك طلبان أخيران، أولهما أن تسامحني على كل ما بدر مني بحقك وأن تبقي عليّ ذكرى جميلة في حياتك، لا،لا تبك بل اضحك يا صديقي لأن هناك ميتاً يخاطبك الآن، ألست من قلت ذات يوم ونحن صغار بأن أمنيتك كانت أن تحدث شخصاً ميتاً ثم تهرع خائفاً منه وتنام في حضن أمك؟ ها قد حققت لك أمنيتك لكن هل ستخاف مني؟ هههه.

على أية حال، وعدتك في ذلك المساء بأنك سوف ترجع إلى رنين، وكما تعرفني طوال عمري ما أخلفت وعداً من قبل قط، عليك أن ترسل الرسالة الثانية إلى ياسر في فرنسا وتطلب منه أن يعطيها لرنين وثق بصديقتك ولن تخيب أبداً.

عدني بأن لا تفتح الرسالة الثانية مهما حدث، لم يعد لي طاقة على الكلام أكثر، هذا كل ما أريده منك الآن، أوه قبل أن أنسى، شكراً على إكليل شقائق النعمان الذي وضعته على قبري، صديقتك المخلصة هديل».

ابتلت الرسالة تماماً من دموعي التي لم تعرف طريقة لتتوقف، دمعة تذرف على شفتيك وأنت تبتسمين، هذه هي الدمعة القاتلة، أخذ يضيق نفسي من هذه الرسالة، حتى أنني وددت أن أفتح قبرك وأحتضنك، أتشكرك، أبكي عليك أو أي شيء المهم أن أحدثك فهل تسمعينني الآن؟ أنا متأكد أنك مصغية إلي فإن كنت كذلك فشكراً لك يا أروع وأحن شخص سبق أن التقيته.

مسحت ما تبقى من دمع بعد أن جفت العين وذهبت مسرعاً كي أضع وصيتك في البريد، وأرفقتها برسالة أخرى أشرح لياسر ما الذي يجب عليه فعله، أعطيت العامل الطرد والعنوان والأجرة وعدت إلى المنزل واتصلت بياسر وأخبرته بأمر تلك الرسالة.

ـ حسناً صديقي مجرد أن تصلني رسالتك فسوف أرسلها إليها فوراً، لكن ألا تريد أن تأتي إلى فرنسا مجدداً؟

ـ سوف أزورك في بداية الشهر القادم، أعدك.

ـ حتى ولو لم تصالح رنين؟

ـ حتى ولو لم أفعل، فأنا أحتاج إلى رؤيتك حقاً.

بقيت طوال اليومين أحاول الاتصال برنين دون أن تجيب، ولم يطفئ نار التساؤلات في بالي سوى ياسر حينما أخبرني بأنه سلم الرسالة كما هي وقال أيضاً إن جوزيف وياسمين كانا في بيتك.

بعد تسع ساعات من الانتظار زغرد الهاتف بنغمتك الخاصة التي وضعتها لنفسك يوماً، كنت حينئذ في باحة المنزل الخلفي أروي الأشجار ويرويني عبق النرجس الذي ملأ أرجاء المنزل.

ـ أهلاً رنين، اشتقت إلى سماع صوتك.

ـ أهلاً خالد، وصلتني الرسالة هذا الصباح أعتذر عن تأخري بالرد.

ـ لا مشكلة، على ماذا كانت تحتوي الرسالة؟

ـ هذا ليس من شأنك.

ـ إذن لم تغفري لي بعد؟

ـ جوزيف أخبرني بتتمة سراب الياسمين فمتى ستأتي كي أحدثك عنها؟

ـ حالاً.

أغلقت سماعة الهاتف وأرسلت برسالة إلى ياسر أخبره بأن موعد قدومي قد تغير وأنني سأكون عنده بعد يومين، فتحت نوافذ قلبي أخيراً ومع انقشاع الغيوم السوداء عادت الشمس لتبث في داخلي الحياة من جديد، يا نرجسي الجميل سأعود إلى من تحبك، يا سماء فرنسا لا تستعجلي الغروب، يا بحر بياريتز احتفظ بأمواجك ريثما أطل عليك من شرفتي، انتظريني يا رنين.

انتهيت من كتابة هذه الرواية يوم الخميس ١٥/ ١/ ٢٠١٥

السابعة والنصف مساء

محمد عريقات

كاتبنا فتى جامعيٌ مقدسي يطلق العنان لنفسه جاعلاً خياله المشتعل مركبة تحملها وتخترق بها تلك الطبقة التي تجثم بسوادها على حياة الفلسطيني، فتحلق بها في أجواء انسيابية كتلك التي تصل الفضاء بالزمان في نقاط كونية، تختفي عندها الفواصل بين الماضي والحاضر والمستقبل، كما بين إنسان الواقع وإنسان الرواية، وكأن بنا عندئذ نعيش في بعدين أو أكثر، أحدهما تمثله حبيبة الصبا عاشقة الأرض والمستضعفين عليها، والآخر حبيبته في الغربة الفرنسية التي تغشم عينيها تلك الطبقة حالكة السواد، والتي لا تسمح للضوء الاعلامي الغربي باختراقها ليصل الى معرفة البؤس تحت الاحتلال، والتي يغذي وجودها غربة المنفي عن وطنه. فنجد بطلنا منغرساً في الثرى محلقاً في ثريا الخيال والعوالم الافتراضية، راوياً هنيهة ثم مروياً عنه وكأن الشخصيات تختلط بعضها ببعض، كما الزمان والظرف، عند تلك الفواصل الكونية التي تنسف بجبروتها منطق الأبعاد الثلاثية.

سري نسيبه

استاذ الفلسفة - جامعة القدس

Bibliotheca Alexandrina
1503514

ISBN 978-614-432-376-2
9 786144 323762